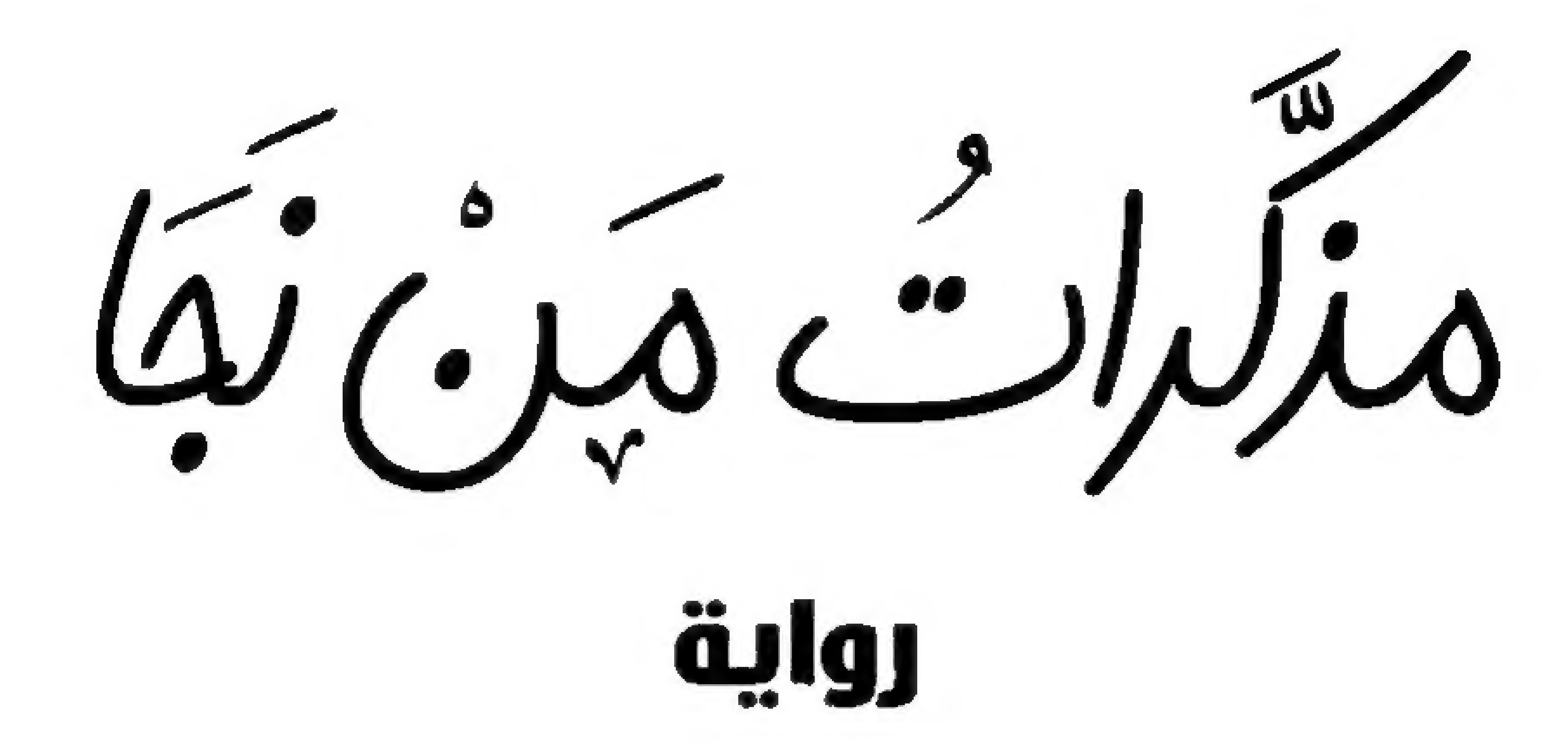
دوريس ليسينج

الفائزة بجائزة نوبل للآداب 2007

مذكرات من نجا

رواية



رواية

تأليف

دوريس ليسينج

ترجمة

د. محمد درويش

الكتاب ٦٦

مقدمة المترجم

تؤكد الناقدة البريطانية وأستاذة الأدب الإنكليزي د. روث ويتكر في كتابها النقدي المهم **دوريس ليسينج** الصادر في أواخر العام 1988 عن دار نشر ماكميلان – لندن أن الكاتبة ليسينج وسعّت آفاق الرواية الإنكليزية أسلوباً ومضموناً بروايتها **مذكرات من نجا** التي تعدّ سبراً للأغوار متصلاً بطبيعة التحولات وآلياتها مستخدمة بذلك الواقعية، والخيال، والرمز.

تختزل هذه الرواية اهتمامات الكاتبة ليسينج منذ أن نشرت كتابها الأول بعنوان **المفكرة الذهبية**. وهذه الاهتمامات تتمثّل في لاجدوى استثمار العلاقات الشخصية، والاهتمام المتزايد بالعوالم الداخلية، والطاقة البشرية في تعزيز النمو الروحي، وما ينجم عن ذلك من اغتراب عن العالم المادي.

كانت هذه الاهتمامات واضحة في مؤلفات ليسينج منذ كتاباتها الأولى. إذ بدأت تعالجها معالجة واضحة في **المفكرة الذهبية** وغيرها من الكتب اللاحقة، إلاّ أنها أصبحت في روايتها مذكرات **من نجا الموضوع** الأساس. غير أن ما يميّز هذه الرواية عن بقية مؤلفات الكاتبة هو الأسلوب الهادئ الذي تسرد فيه أحداث هذه الرواية الكابوسية، والإذعان التام لما يجري من أحداث في كلا العالمين الداخلي والخارجي. لقد استخدمت الكاتبة الأسلوب الهادئ على لسان بطلتها الراوية فنراها تصف الأحداث والأزمات التي حلّت بمدينة أخذت تتلاشى بمرور الزمن لتفقد هويتها وذلك على نحو يثير الرعب.

بالإضافة إلى ذلك، تمزج المؤلفة في هذه الرواية ولأول مرة بين الواقعية والرمزية. ففي رواياتها الأولى كانت الأحلام والجنون وسائل

لسبر غور حالات نفسية وذهنية. فعلى سبيل المثال، كانت الكاتبة تصف جنون مارتا وليندا وصفاً واقعياً تماماً. أما في **مذكرات من نجا** فتوضح **ليسينج** منذ البداية أن النص الذي تقدّمه للقارئ إنما هو نص حرفي ورمزي من حيث إن الراوية تستطيع أولاً أن تنظر أمامها ومن ثم تخترق جدار شقتها لتنتقل إلى عالم آخر. من هنا نلاحظ أنها تنبذ الواقعية، ويصبح الجدار هو الحدّ الفاصل بين عقلي الراوية الواعي واللا واعي، وتصبح الحجرات والحدائق الكائنة وراءه مناطق اللاوعي الذي تعمل على سبر غوره. تنقل ليسينج هذا بيسر وسهولة، إذ يكون الانتقال من الواقعي إلى الرمزي دون وجود ما يشير إلى قلقها بشأن إقناع القارئ بما تفعله. وتبدو المسألة كلها وكأن المؤلفة أصبحت معتادة على الانتقال بين عالمي حياتها الخارجي والداخلي انتقالاً سهلاً تشي رواياتها بسهولته.

تجري أحداث الرواية في مدينة ما توقفت فيها جميع الخدمات، وانتشرت فيها الفوضى، وأصبحت السلع نادرة. تعيش الراوية وهي امرأة لا نعرف اسمها في إحدى الشقق، وتفكّر بالرحيل عن المدينة التي عصفت بها الأحداث العنيفة والفوضى. في يوم ما تناط بها مسؤولية الاهتمام بطفلة في الثانية عشرة من العمر تدعى إميلي، ولديها حيوان غريب نصفه قطة ونصفه الآخر كلب يدعى هوغو. تصف لنا الرواية حياة هؤلاء الثلاثة في فترة زمنية تمتد إلى ثلاثة أعوام تقريباً تقيم خلالها إميلي علاقة مع زعيم عصابة من الشبان. عندما تبلغ إميلي الخامسة عشرة من العمر نجدها فتاة بالغة متزنة. وقد لجأت المؤلفة إلى الإسراع في عملية بلوغ الفتاة باعتبار ذلك مؤشراً واقعياً على الزمن الذي لا يسمح بإطالة فترة الطفولة من ناحية، وباعتبار ذلك أسلوباً تمثل فيه إميلي حياة المرأة الراوية نفسها تمثيلاً انعكاسياً إذ تصبح إميلي والراوية شخصاً واحداً. فبينما ترى الراوية إميلي وتراقبها وهي تصل إلى مرحلة البلوغ، نجدها تسبر غور الغرف الكائنة وراء الجدار فترى مشاهد من حياة إميلي تمثّل في الواقع مشاهد من حياتها الشخصية.

تصف الرواية تلك المشاهد بإسهاب، وتعيد صياغة التجارب، وتفهمها بكل ما تنطوي عليه من آثار في حياتها اللاحقة. أخيراً، تنهار واقعية الرواية انهياراً تاماً عندما تجتاز الراوية، وإميلي، وعشيقها جيرالد، وهوغو الجدار وينتقلون إلى عالم آخر تماماً.

تصف ليسينج هذه الرواية بأنها محاولة في السيرة الذاتية. وفيها تعالج الكاتبة مظاهر من طفولتها التي حذفتها على نحو واضح من رواية **مارتا كويست**، إذ تبدأ الرواية والبطلة في سن المراهقة. وقد أشارت ليسينج في بعض المقابلات الصحفية إلى العلاقة الصعبة التي كانت تربطها بأمها. ويبدو أن ليسينج لم تسبر هذه العلاقة سبراً كاملاً في معظم رواياتها التي كتبتها قبل **مذكرات من نجا**. ويبدو أن تذكر الراوية لأشد الآلام التي عانت منها إنما يساعدها على ملاحظة أن أمها ورثت تركة ثقيلة من التربية السيئة والقاسية.

في البداية، توضح ليسينج أهمية الحياة الداخلية عند الراوية، إذ تشاهد البطلة في زيارة مبكرة لها لما وراء الجدار ظلال وجه يرحب بها، ويعيد الثقة إليها، فتشعر أنه لا بدّ أن يكون وجهاً لشخص منفي عن ذلك المكان القذر الذي يفتقر إلى العناية. في الزيارات اللاحقة لما وراء الجدار تكون التجارب شخصية أو لاشخصية، والمشاهد الشخصية عبارة عن فترات يُعاد تشكيلها من طفولة الراوية وطفولة إميلي. تمنحنا المشاهد اللا شخصية مهمة ينبغي إنجازها تتمثّل في تنظيف الغرف وطلائها، ويبدو أن ليسينج تريد الإيحاء أن العقل اللاواعي أُهمل شأنه وأنّه من الضروري الاهتمام به اهتماماً واضحاً. ويسود المشاهد الشخصية إحساس بالاكتئاب والانقباض وعدم توفر أي حلول بديلة، بينما يسود المشاهد اللاشخصية الإحساس بالحرية وتوفر الحلول الكثيرة. فنرى مشاهد من حياة إميلي وهي طفلة صغيرة تصرخ من شدة الجوع لأن إطعامها لا يكون إلاّ في فترات محددة تحديداً صارماً. ونراها فتاة صغيرة في الرابعة من عمرها يحظى شقيقها الأصغر منها

باهتمام أكبر مما تحظى هي به، وفي الخامسة أو السادسة من عمرها تشعر هذه الطفلة بالذنب لأنها خلقت على وجه الأرض، وتصغي لأمها وهي تصف لأحد الجيران معاناتها بسبب هذين الولدين، وتتحمل الطفلة مداعبة أبيها القاسية، وتحن إلى ارتباط بأمها يسوده الأمن والطمأنينة، لكنها لا تحظى بشيء.

في الرواية صورة أساسية ومهمة إذا أردنا فهم مغزى الأحداث. فالراوية تعثر على غرفة سداسية الشكل ذات أرضية مفروشة بسجادة مزخرفة ولكنها غير ملونة. ينهمك الناس الموجودون في الغرفة بتثبيت أجزاء من مادة على السجادة تبعث فيها الحياة لتزخر بالألوان. تريد ليسينج الإيحاء أن مثل هذه الزخرفة موجودة في حياتنا إذا ما تمكنا من ملاحظتها. وتتضمن رؤية هذه الزخرفة سبراً لغور عقولنا اللاواعية واعترافاً بأنّه من الضروري العمل على المستوى الذهني للتعويض عن إهمال هذا الجانب من شخصياتنا.

توضح الراوية على مدى صفحات الرواية أن من الأشياء التي مرّت بها، القيود التي فرضها المجتمع على تصرفات المرأة ومرض الحب الرومانسي. فهي تراقب إميلي وهي تواجه هذه القوى الكبيرة كأنما ترى نفسها من خلالها.

يلاحظ أن أسلوب ليسينج ينم عن القبول بما يجري من حولها، إلاّ أن القارئ لا يخرج بإحساس محبط لأن القيود التي تكبّل الإنسان تتلاشى في النهاية. كما أن ليسينج تعترف بالقوة الكامنة في أعماق الإنسان خفية كانت أو غير مستغلة. فالجدار ينهار، ويتلاشى أخيراً الحاجز بين العالمين الداخلي والخارجي، وتتحقق الوحدة، وتنتهي الرواية نهاية إيجابية وهي مسألة طبيعية في جميع روايات ليسينج.

ولدت دوريس ليسينج في 22 تشرين الأول 1919 لأبوين بريطانيين، ولكنها انتقلت بعد ذلك بست سنوات إلى زيمبابوي، إذ اشترى والدها مزرعة كبيرة للتبغ والذرة، وهناك دخلت مع شقيقها

إحدى المدارس، ولكنها تركت المدرسة وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وانصرفت للقراءة الجادة منذ تلك السن المبكرة.

بعد أن اشتغلت في وظائف عدة في سالزبري، تعرّفت إلى فرانك وزدم، وهو موظف حكومي فتزوجا في العام 1939، وأنجبت ولداً وابنة لكن زواجهما لم يستمرّ طويلاً، وانتهى بالطلاق في العام 1943. في العام 1945 تعرّفت إلى غوتفرد ليسينج، وتزوجت به، وأنجبت منه ولدها بيتر، بيد أن الزواج انتهى بالطلاق أيضاً بعد أربع سنوات. وقد ذكرت ليسينج بعد ذلك قائلة: "إن الزواج لا يناسبني، وأعتقد أن حياتي بدون زواج أفضل بكثير".

في العام 1949 قدمت دوريس إلى إنكلترا مع ولدها بيتر، واستقرّت فيها، وقدّمت أول رواية للنشر بعنوان **العشب يغني** التي حققت نجاحاً كبيراً عند صدورها في العام 1950.

في بداية حياتها الأدبية اهتمت دوريس ليسينج بالكتابة عن العالم الخارجي، بيد أن أبطالها أظهروا ميلاً نحو البحث والاستقصاء بدلاً من الركود والخمول. ثم تحول هذا البحث والاستقصاء شيئاً فشيئاً إلى الداخل مما جعلها تهتم بعد ذلك بدراسة الصوفية لتؤكد إيمانها: إننا جميعاً جزء لا يتجزأ من وعي يسمو فوق ميل الفرد إلى العزلة والانفصام. تبدو رواياتها الأخيرة ذات علاقة بتطورها المادي وثمة إحساس أن الكتابة جزء من هذه التجربة.

ألّفت ليسينج أكثر من خمسين كتاباً في الرواية، والقصة القصيرة، والنقد، والشعر، والمسرح وحازت العديد من الجوائز الأدبية العالمية، تُوّجت بجائزة نوبل للأدب في العام 2007.

د. محمد درويش

بغداد – أوائل 2008

نحـــن نتذكّر جميعاً ذلك الزمان الذي لم يكن مختلفاً عندي أو عند الآخريــن. لكننا على الرغم من ذلك أسهبنا في الحديث مرات ومرات عــن خصوصــيات الأحــداث التــي مــرّت بنا معاً، وتكرار الحديث والإصغاء وكأننا نقول: "إنه يشبه ذلك بالنسبة إليك أيضاً. ثم ذلك يؤكده، نعــم، الأمر كذلك. لا بدّ أنه كذلك. فأنا لم أتخيل الأشياء". نحن نتفق أو نخــتلف مــثل الناس الذين رأوا حيوانات غريبة في أثناء رحلتهم "هل رأيــت تلك السمكة الزرقاء الضخمة؟" "آه. إن السمكة التي رأيتها كانت صــفراء!" لكن البحر الذي كنا نشق عبابه كان ذات البحر. كما أن فترة القلــق والتوتر الثقيلة التي سبقت النهاية كانت متشابهة عند الجميع وفي كــل مكان؛ في الوحدات الأصغر حجماً من مدننا: الشوارع ومجموعة البــنايات الســكنية الشاهقة والفندق؛ كما في المدن، والأمم، وقارة من القــارات... نعــم. أنــا أوافق على أن هذا خيال خصب وجميل في ما يخــص طبــيعة الأحداث المطروحة أمامنا: أسماك غريبة، ومحيطات، وهلمَّ جرّا. لكن لعله من المناسب التعليق على الأسلوب الذي سنتذكّر به جمــيعاً فترة من الحياة، وسلسلة من الأحداث لنجد بعدئذ أشياء أكثر مما كان الناس يشعرون بها آنذاك. ينطبق هذا حتى على الأحداث التي تثير الكآبــة في النفس مثل الفضلات والنفايات المتروكة إثر عطلة رسمية. ســوف يقارن الناس بين الملاحظات كأنهم يرغبون أو يأملون في تأكيد شــيء مــا لــم تُصــرح به الأحداث، بل أكثر من ذلك شيء استبعدته الأحــداث تماماً. السعادة؟ تلك كلمة تعوّدت عليها بين فترة وأخرى من فــترات حياتــي وأمعنــت النظر فيها؛ لكنني لم أجد أبداً أن تلك الكلمة تحتفظ على نحو ما – بمعنى إذن؟ أو هدف؟ على كل حال، إن الماضي يبدو من خلال النظر إليه ضمن هذا الإطار العقلي مغموساً بمادة غريبة

عـــنه، فيبدو دخيلاً. هل يمكن أن تكون هذه هي مادة الذاكرة الحقيقية؟ الحنين؟ لا. فأنا لا أتحدث عن ذلك الموضوع، الشوق أو الندم؛ لا ليس تلـــك الحكمة المسمومة. كما أن المسألة ليست هي الأهمية التي يحاول كل واحد منا إضفاءها على ماضينا الذي يفتقر إلى المغزى العميق "كما تعلم، لقد كنت موجوداً هناك".

لكن ربما يكون مسموحاً لي ذكر الاستعارات الغريبة بسبب طبيعتنا التي نتحلى بها. فقد رأيت حقاً السمك في ذلك البحر، وكأن الحوت والدولفين اختارا الظهور باللونين القرمزي والأخضر دون أن أدرك في ذلك الوقت ما كنت أشاهده. ولم أعرف حقاً القدر الذي أشترك فيه مع الآخرين في مجال تجربتي الشخصية: إننا في عملية التذكر نقّر أولاً بأوجه الشبه بيننا لا بأوجه الاختلاف.

إن أحد الأشياء التي نعرفها الآن كان مسألة حقيقية عند الجميع. بيد أن كل فرد ظنّ أن ذلك ليس إلاّ دليلاً على أصالة العقل المصانة، وأننا خشينا ما كان يحدث بأساليب غير رسمية. إنه أمر لا يبعث على الاحترام. كانت النشرات الإخبارية والصحف والإعلانات مألوفة لدينا، إلاّ أننا لم نكن نرفضها تماماً. إذ لولاها لأصبحنا جزعين وقلقين، إذ كان ينبغي لكل واحد منا أن يقبل الصيغة الرسمية؛ ولا سيما في زمن لم تعد فيه الأمور تسير وفق ما يتمنّاه المرء. لكن الحقيقة هي أن كل واحد منا أصبح واعياً في فترة ما بأن الحقائق التي كانت تصلنا لتصبح بعدئذ صورة مختلفة تمام الاختلاف عن الصورة المعلنة لم يكن مصدرها رسمياً. كانت سلسلة الكلمات تبلور الأحداث فتصبح صورة من الصور، بل قصة إلى حدٍّ ما: ثم حدث هذا، وقيل كيت وكيت. لكن مثل هذه الكلمات كانت في معظم الأحوال تأتي في سياق الحديث العام، وربما في ذهن المرء نفسه. سيفكّر شخص ما: نعم. حقاً. تلك هي المسألة. لقد عرفتها منذ وقت لا بأس به. لكن كل ما هناك أنني لم أسمع

بها وفق هذا التصور، ولم أفهمها...

كانت المواقف إزاء السلطة وإزاء هم وإنهم تزداد تناقضاً. كما أننا اعتقدنا أننا كنا نعيش في مجتمع فوضوي غريب. لا، ليس تماماً. الأمر نفسه في كل مكان. إلاّ أنه ربما كان من الأفضل تطوير هذا الشيء فيما بعد، وعدم التوقف إلاّ للتعليق على أن استعمال الضمير **هو** أو **هي** لغير العاقل إنما يشير دوماً إلى أزمة وقلق عام. فهناك هوة سحيقة بين "لماذا ينبغي لهم أن يكونوا مفتقرين إلى الكفاءة إلى هذا الحدّ بحق الجحيم؟" و"أوه يا إلهي إن الأمور سيئة غاية السوء" تماماً مثلما هناك اختلاف بين: "الأمور سيئة" و"لقد بدأت هنا أيضاً" أو "هل سمعت المزيد من ذلك؟"

سأشرح هذا في وقت ما قبل أن أبدأ الحديث عنه. فنحن لا نزال في مرحلة القلق العام. الأمور ليست على ما يرام تماماً. بل إنها سيئة حقاً. هناك أشياء كثيرة سيئة وآخذة بالانهيار، ممّا يثير الذعر في النفوس- على حدّ تعبير نشرات الأخبار- لكن هذا الوصف لا يعني أن هناك خطراً داهماً على وشك الوقوع ولا يمكن تجنّبه.

أنا أعيش في بناية سكنية وهي واحدة من بنايات كثيرة متشابهة. وتقع شقتي في الطابق الأرضي، على مستوى الأرض. ليس كما في بعض القرى الهوائية ذات الطرقات الخفية التي تطرقها عيون الطيور الفضولية بعيداً عن قضايا البشر. لا، أنا واحدة من اللاتي نظرن إلى الأعلى في محاولة لتخيل شكل الأشياء في تلك البقاع العالية التي تسمح فيها النوافذ بدخول هواء عليل، وحيث تقود الأبواب الرئيسة إلى المصاعد، وهناك في الأسفل يوجد الشارع بما فيه من ضوضاء المرور وروائح المواد الكيميائية. لم تكن هذه الشقق مشيدة بواسطة مجلس المدينة، ولم تكن الكتابات تعلو جدرانها، كما لم تكن مصاعدها ملوثة بالبول أو جدران الردهات ملوثة بالبراز. لم تكن هذه الشوارع هي

شوارع الفقراء العمودية، بل كانت مشيدة بأموال خاصة وفوق أرض ثمينة، الأرض الثمينة سابقاً. كانت جدرانها سميكة، وكانت مخصصة للعائلات التي تستطيع إنفاق المال للتمتع بأجواء الخصوصية. في المدخل ثمة صالة كبيرة مفروشة بالسجاد، ومنصات وضعت فوقها الأزهار الاصطناعية الجميلة، ووكيل يشرف عليها. لقد كانت هذه الشقق السكنية نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه مثل هذه الشقق: نموذجاً للمتانة والعيش الكريم.

لكن في ذلك الوقت، وبعد أن غادر عدد كبير من السكان المدينة، فإن العائلات التي سكنت في هذه البنايات لم تكن تمثّل الطبقة التي شيّدت من أجلها هذه البنايات. فعلى مدى سنوات طويلة، وعلى امتداد شوارع الفقراء المتداعية، احتل البيوت الفارغة أشخاص يشكلون عدداً من العائلات بحيث مرّ وقت طويل كان من المستحيل فيه القول: هذه منطقة خاصة بالطبقة العاملة، وهذه منطقة متجانسة. وكذلك هو الحال بالنسبة إلى هذه الأبنية الضخمة التي كان يسكنها ذات يوم الأثرياء، والحرفيون، ورجال الأعمال. إذ توجد الآن أسر أو مجموعة أسر فقيرة. ومعنى ذلك أن شقة ما أو بيتاً ما أصبح ملكاً لناس تجرأوا على الإنتقال إليه. وهكذا، ففي ممرات وصالات البناية التي كنت أقطنها، تستطيع أن تلتقي بكل أنواع الناس؛ تماماً مثلما يحدث في الشارع أو السوق.

هناك أستاذ وزوجته وابنته يسكنون الغرفتين المجاورتين لي في نهاية الممر. أما فوق غرفتي مباشرة، فهناك أسرة هندية تمتلك عدداً كبيراً من الأقارب ومن تعيلهم. أذكر هذين النمطين من الناس لأنهم كانوا قريبين جداً مني، ولأنني أود أن أوضح أنه لا يوجد هناك نقص في الوعي بما كان يدور وراء الجدران والسقوف قبل بداية – ماذا؟ هنا أجد بعض الصعوبة، لأنه لا يوجد أي شيء أتمكن من الإشارة إليه

وتحديده.. أنا لا أتحدث الآن عن الضغط العام والأحداث التي نغلّفها داخل كلمات من مثل إنهم وهم وهو أوهي، بل أتحدث عن اكتشافاتي الخاصة التي أصبحت عاجلة جداً، وتستحوذ عليّ في ذلك الوقت. فأنا لا أستطيع أن أقول: "في يوم من الأيام كنت أعرف أن هناك حياة ما يعيشها الناس وراء الجدار". ولا أستطيع أن أقول أيضاً: "في ربيع ذلك العام حيث...". لا، إن الوعي بتلك الحياة الأخرى التي كانت تتطور خفية على مقربة مني، إنما هو شيء بطيء يقترب كثيراً من ميزة الفهم التي نَصِفُها في فعل *يدرك* وبما تحتويه من مضمون يدلّ على اقتراب تدريجي من الاستيعاب. إن مثل هذا الاقتراب والتقدم قد يغدو قضية أسابيع أو أشهر أو سنوات. ومن الطبيعي أن في وسع المرء أن يعرف *شيئاً* ما ولا *يعرفه*. (وفي وسع المرء أيضاً أن يعرف شيئاً ما ثم ينساه!) وعندما أنظر إلى الوراء أستطيع أن أقول على نحو قاطع إن نمو تلك الحياة، أو شكل الوجود القائم وراء الجدار كان محفوراً في ذاكرتي منذ وقت طويل وقبل أن أدرك ماهية الشيء الذي كنت أصغي إليه ومن أجله. بيد أنني لا أستطيع أن أحدّد الوقت أو التاريخ تحديداً دقيقاً. فمن المؤكد أن هذا الانشغال الباطني كان يسبق الاهتمام العام الآخر الذي أطلقت عليه كلمة **هو** وأرجو أن لا يعتبر ذلك جزافاً.

وحتى في أكثر لحظات كآبتي وقنوطي لم أعرف أن الشيء الذي كنت قد بدأت أعيه، والذي كنت على وشك إدراكه كان شيئاً مختلفاً- من حيث النوع- عن الشيء الذي كان يحدث فعلاً من حولي: ففوق رأسي كانت العائلة الهندية التي جاءت من كينيا على ما أظن تحيا حياة حافلة مليئة بالحيوية. وكان هذا شيئاً مختلفاً عمّا سمعته من الغرفتين اللتين كان الأستاذ وايت وأسرته يسكنون فيهما. كان جدار مطبخ تلك الأسرة يفصل بيننا، ونتبادل منه الأخبار على الرغم من سُمكِه.

في غمرة عدم إدراكي أو عدم السماح لنفسي بالإدراك، كانت

مضامين حقيقة أن شيئاً ما يدور وراء جدار غرفة معيشتي إنما هي بسبب وجود الممر وراءها. ولكي أكون دقيقة أكثر، فإن ما كنت أسمعه يستحيل تصديقه. فالأصوات القادمة من الممر محدودة حتى لو كان الممر مكتظاً إلى حدٍّ بعيد. ويساعد هذا الممر الناس على الانتقال من مكان إلى آخر؛ إذ كانوا يسيرون على امتداد الممرات الأخرى فرادى ومثنى وجماعات وهم يتحدثون أو وهم صامتون. يبدأ الممر من مدخل البناية الأمامي، ويمتد أمام باب شقتي وباب شقة أسرة وايت وحول الشقق الواقعة شرقي الطابق الأرضي من البناية. لقد استخدم هذا الممر الأستاذ وأفراد أسرته وزوّارهم وأنا وزوّاري والأسرتان اللتان تسكنان الجانب الشرقي وزوّارهما. وهكذا فقد كان كثير الاستخدام. كان على المرء في الغالب أن يكون على بينة من الأقدام والأصوات التي ترن من خلف صلابة ذلك الجدار. أما أنا فكنت أقول: "لا بدّ أن هذا هو الأستاذ. من المؤكد أنه مبكر هذا اليوم". أو "لا بدّ أن هذا هو صوت جانيت وهي في طريق عودتها من المدرسة!"

على الرغم من ذلك، فقد جاءت اللحظة التي تعيّن عليَّ فيها الاعتراف بوجود غرفة ما وراء ذلك الجدار، ربما أكثر من غرفة واحدة، ربما مجموعة من الغرف تشغل المسافة نفسها أو تمتد قليلاً متجاوزة الممر. لقد أصبح إدراك ما كنت أسمعه ومعرفة أنني على وعي بذلك الشيء منذ فترة طويلة قوياً في داخلي حتى أنني عرفت أنني سأغادر المدينة حتماً. من الطبيعي أن كل واحد في هذا الوقت كان يملك مثل هذا الإحساس، فالمعرفة بأننا سنترك المدينة لم تكن مقصورة عليَّ. وهذا نموذج لشيء ذكرته تواً؛ فكرة ما ترد إلى ذهن كل واحد في الوقت نفسه ومن دون أي تدخل من السلطات. أي أن ذلك لم يُعلن بواسطة مكبرات الصوت، أو من فوق المنصات العامة أو في الصحف، أو في الإذاعة، أو التلفزيون. والله يعلم أن إعلانات مختلفة كانت تذاع. ولكن على الرغم من ذلك، لم يستوعبها الجمهور

مثلما استوعب المعلومات الأخرى. فعلى وجه العموم، كان الناس يميلون إلى تجاهل ما تقوله السلطات. لا، هذا غير صحيح. لقد كانت المعلومات العامة مدار نقاش وبحث وشكوى. إلاّ أن تأثيرها مختلف. ولنفترض أنني قلت إن هذه المعلومات كانت تعامل بوصفها ممتعة؟ لا، هذا غير صحيح. فالناس لا يتصرّفون استناداً إلى ما يسمعون، وهذه هي النقطة الأساسية؛ ما لم يضطروا إلى ذلك. لكن هذه المعلومات الأخرى القادمة من مكان مجهول، والأخبار التي تقول إن شيئاً ما يحوم في الجو قد حفّزت الجميع. فعلى سبيل المثال، وقبل أسابيع من الإعلان الرسمي بأن مواد غذائية محددة سيجري توزيعها وفق نظام الحصص، صادفت في الصالة السيد ميهتا وزوجته، وهما زوجان عجوزان وجدّان كبيران. كانا يسحبان بينهما كيساً من البطاطا. كنت أملك حصتي من المؤن. فأومأنا برؤوسنا، وابتسمنا ابتسامة تدل على حسن تدبيرنا وبعد نظرنا. أتذكّر أيضاً زوجة السيد وايت وأنا أتبادل معها تحية الصباح على الجزء المبلط أمام المدخل الرئيس. وقالت عرضاً: "لا ينبغي لنا ترك الأشياء فترة طويلة". وأجبتها قائلة: "أمامنا عدة أشهر، ولكن لا بدّ من الاستعداد. أنا أوافقك على ذلك". كنا نتحدث في الموضوع الذي كان يدور على جميع الألسن؛ ضرورة مغادرة هذه المدينة. لم يكن هناك أي إشعار عام بضرورة مغادرة الناس المدينة. ولم يكن هناك أي إقرار من جانب السلطات أن الناس أخذوا يهجرون المدينة. وربما جرت الإشارة على نحو عابر إلى أن ذلك ليس إلاّ نتيجة لشيء ما، أو أنه ظاهرة وقتية لا حقيقة مهمة في حياتنا.

لم يكن هناك سبب واحد يدعو الناس للرحيل. فنحن نعلم جميعاً أن الخدمات العامة كافة قد توقفت في الجنوب والشرق، وأن هذه الحالة أخذت تمتد إلى منطقتنا. وكنا نعرف أن الجميع قد غادروا الجزئين الشرقي والجنوبي من البلاد باستثناء عصابات تتكون في معظمها من

شبّان يعيشون على ما يصادفونه: محاصيل متروكة في الحقول، حيوانات هربت من الذبح قبل أن ينهار كل شيء. ولم تكن هذه العصابات عنيفة أو تلحق الأذى بالناس القليلين الذين رفضوا مغادرة المدينة. بل إنها مدّت يد العونَ لقوى تنفيذ القانون والحفاظ على النظام على حدّ تعبير الصحف. مع ازدياد شحّ المواد الغذائية واقتراب الخطر الذي دفع الناس إلى الرحيل بعيداً، أصبحت هذه العصابات خطيرة. وعند عبورها ضواحي مدينتنا كان الناس يدخلون بيوتهم ويبتعدون عن طريقها.

لقد مرّت على هذه الأحداث أشهر عديدة. وكانت في بادئ الأمر عبارة عن تحذيرات أُطلقت بواسطة الإشاعات، ومن ثم بواسطة المصادر الإخبارية. وتفيد أن العصابات كانت تتحرّك في هذه المنطقة أو تلك حيث أوصد السكان أبوابهم، وقبعوا وراءها حتى انجلاء الخطر. كما تفيد أن عصابات جديدة كانت تقترب من هذه المنطقة أو تلك ولهذا يتعيّن على الناس أن يحتاطوا للأمر فيحافظوا على حياتهم وممتلكاتهم؛ وتفيد هذه التحذيرات أيضاً بأن منطقة أخرى كانت خطرة فيما مضى، أصبحت الآن مأمونة مجدداً. هذه التحذيرات كانت جزءاً من حياتنا.

في المكان الذي كنت أقطن فيه، وهو مكان يقع في الجهة الشّمالية من المدينة، لم تصبح الطرقات ممرات سالكة للعصابات المتنقلة إلاّ بعد وقت طويل، وبعد أن ألفت الضواحي الجنوبية أعمالها. وحتى عندما أصبحت الفوضى أمراً لا مفر منه في أجزاء من مدينتنا، فإننا نحن سكان الجهة الشمالية كنا نتحدث بل ونعتقد أننا سنظل بمنأىً عن ذلك. وأنّه من شأن الاضطرابات أن تختفي وتزول. هكذا كنّا نعتقد بقوة. فبدت بعض الحوادث الطفيفة التي رافقت ظهور العصابات في ضواحينا الشمالية بمثابة حوادث معزولة وليس هناك أي احتمال بتكرار حدوثها. وأخذنا ندرك ببطء أن فترات السلم والأوضاع

الطبيعية التي عشنا في ظلها لا أيام السلب والنهب هي التي ستصبح غير مألوفة ابتداءً من الآن.

وبالاستناد إلى ما تقدم، فإنه ينبغي لنا الرحيل. نعم. سنغادر، ولكن ليس الآن. وعمّا قريب سيصبح رحيلنا ضرورياً، وكنّا نعرف ذلك. في هذا الوقت كله كانت حياتي الاعتيادية هي الواجهة وهي البقعة المضيئة – هذا إذا صح التعبير – لهذا السر الذي بدأ يستحوذ علينا والذي بدأ منذ فترة طويلة "في مكان آخر". لقد بدأت أشعر أكثر فأكثر أن أيام حياتي العادية أصبحت عديمة الشأن، وغير مهمة. وبات ذلك الجدار عندي – لكن كيف لي أن أعبّر عن ذلك؟ – مثل هاجس. وتوحي هذه الكلمة بأنني مستعدّة لأن أخدع هذا الجدار وما يمثله، وأنني على استعداد لأن أحيله إلى مناطق مرضية في الجسم، أو أنني أحسست بالقلق في فترة سابقة أو الآن ربما إزاء ما يمثله لي. لا، إنني أشعر وكأن مركز الجذب في حياتي قد انتقل، وأن التوازن قد انتقل إلى مكان آخر، وأنني على وشك الإيمان – وعلى نحو لا يدعو إلى الارتياح – بأن ما كان يحدث وراء الجدار قد يكون في غاية الأهمية، تماماً مثلما هي حياتي العادية في تلك الشقة المريحة والأنيقة والكئيبة في آن واحد. كنت أقف في غرفة الجلوس: كان اللونان الأبيض والأصفر يعمان الشقة أو ربما كان فيها ما يكفي من هذين اللونين لكي يجعلان دخولها يشبه دخول بقعة يغمرها نور الشمس. كنت أنتظر هناك وأنظر بهدوء إلى الجدار. صلب، اعتيادي. جدار يخلو من أي باب أو نافذة. أما باب الردهة فهو في جدار الغرفة الجانبي. وثمة موقد نار في أحد جوانب الجدار لا في وسطه وبهذا كانت مساحة واسعة من الجدار خالية من أي شيء؛ إذ لم أعلّق عليه صوراً أو غير ذلك. كان لون الجدار الأبيض قد بهت قليلاً ولم يعد يعكس ضوءاً كثيراً ما لم تسقط أشعة الشمس عليه. في يوم ما كان يكسوه ورق الجدران، إلاّ أن الطلاء امتدّ فوقه، وظلت رغم ذلك بعض الخطوط

العامة للأزهار والأوراق والطيور مرئية من ورائه. عندما كانت أشعة الشمس تسقط في الصباح على جزء من ذلك الجدار، كانت نقوش ورق الجدران المعتمة تبرز واضحة بحيث إن العقل يتخيل صور أشجار وحديقة وهذا يزيد المرء اعتقاداً أن نور الشمس كان يصنع من اللونين الأخضر والأصفر ظلالاً محددة من لون وردي واضح. ولم يكن هذا الجدار مرتفعاً، وكان سقف الغرفة على ارتفاع مناسب.

وهكذا، فإنني لا أستطيع التفكير بشيء أقوله عن هذا الجدار يستطيع أن يزيل عنه صفته العادية. وعلى الرغم من ذلك، فإن الوقوف هناك والنظر إليه أو التفكير فيه في أثناء إنجازي أعمالاً أخرى في الشقة، هو إحساس وشعور يكمن دوماً في أعماق ذهني؛ إذ كان يشبه وضع بيضة على مقربة من الأذن وهي على وشك أن تفقس. إن شكل البيضة الدافئ والأملس وهي في راحة اليد ينبض. وخلف القشرة الكلية الرقة التي يسهل كسرها بإصبعين، والتي تتمتّع بحرمة خاصة بها بسبب ضرورات التوقيت الزمني لفرخ الدجاج، والوقت الدقيق الذي يحتاجه للخروج من سجنه المظلم هناك، إن إعادة توزيع الوزن داخل البيضة أشبه بتغيير الولد موضعه داخل الرحم. ثمة صوت رقيق. صوت آخر. الفرخ يجد له سبيلاً إلى الخروج بعد أن وضع رأسه تحت جناحيه. كما أن القطع الصغيرة جداً من القشرة بدأت تتفكك وسيظهر أول ثقب أسود عمّا قريب. وجدت نفسي أضع أذني فوق الجدار تماماً مثلما يفعل المرء عندما يضع أذنه قرب بيضة على وشك أن تفقس ويصغي إليها وينتظر. لم أكن أصغي إلى حركات السيد وايت أو زوجته. إذ ربما خرجا تواً أو عادا قبل وقت قصير. لعل أصوات الممر العادية هي التي كانت هناك. لا، الأصوات التي أسمعها قادمة من مكان آخر. ومع هذا فهي أصوات عادية: أثاث ينقل من مكانه، أصوات قادمة من مكان بعيد جداً، طفل يبكي، لا شيء واضح. إلاّ أنها أصوات مألوفة إذ كنت أسمعها طيلة أيام حياتي.

ذات صباح وقفت وأنا أدخن سيجارة ما بعد الفطور - وهي السيجارة الوحيدة التي سمحت لنفسي بتدخينها كل يوم - ونظرت من خلال سحب الدخان الأزرق المتكاثف، وفكّرت بالطريقة التي كانت تمتد فيها أشعة الشمس الصفراء لتسقط على شكل مستطيل صغير فوق الجدار فتجعله يبدو مرتفعاً قليلاً في الوسط عمّا هو في طرفيه الآخرين. نظرت إلى اللون الأصفر المتألق والمتدفق، وكان يبدو عليّ وكأنني أصغي وأفكّر بكيفية تغيّر شكل هذا الضوء الصباحي وحجمه وموقعه كما تتغيّر الفصول. ثم عدت إلى الجدار، وعرفت ماذا كان هناك. في بادئ الأمر لم أدرك أكثر من وجود مجموعة من الغرف. كانت هذه الغرف مهجورة منذ فترة، وربما منذ سنوات. لم يكن هناك أي أثاث. كما تساقط الطلاء من بعض الأماكن على الجدار، وتبعثر فوق الأرضية التي انتشرت فوقها قطع من الأوراق، والتراب، والذباب الميت. لم أدخل بل بقيت واقفة عند العتبة الفاصلة بين عالمين: شقتي المألوفة، وهذه الغرف التي كانت تنتظر بهدوء هناك طيلة هذا الوقت. وقفت ونظرت وأنا ألتهم المكان بعينيّ. وانتابني إحساس بأمل كبير وشوق: إن هذا المكان يحتوي على ما أنا في أمس الحاجة إليه. كنت أعرف أنه موجود هناك وأنني كنت أنتظره؛ أوه، نعم، طيلة أيام حياتي، طيلة أيام حياتي. لقد عرفت هذا المكان واستطعت تمييزه قبل أن أستوعب حقاً أن الجدران أكثر ارتفاعاً من جدراني، وأن هناك عدداً كبيراً من النوافذ والأبواب، وأن البيت أو الشقة كبيرة، ومضيئة، وجيدة التهوئة، وتبعث الانشراح في النفس. لاحظت في غرفة أخرى سلماً كالذي يستخدمه الدهانون. وبينما أشعة الشمس تنحسر من على جداري بسبب غيمة كانت تمر من أمامها، شاهدت شخصاً ما يرتدي ملابس عمل بيضاء ويطلي باللون الأبيض السطح الملطخ والباهت اللون.

نسيت هذه الحادثة، وواصلت إنجاز أعمالي اليومية، وأنا أدرك

تماماً طبيعة الحياة الكائنة وراء الجدار، إلاّ أنني لم أتذكّر زيارتي للمكان. مرّت بضعة أيام قبل أن أقف مرة أخرى والسيجارة في يدي وقت الضحى لأنظر إلى الغبار المنحسر بسبب ضوء الشمس الساقط على الجدار، وفكّرت: هالو! لقد كنت هناك وراء الجدار. حقاً. كيف تسنى لي أن أنسى ذلك؟ ومرة أخرى تلاشى الجدار، وأصبحت موجودة هناك. وجدت عدداً من الغرف أكبر مما ظننت في البداية. لديَّ إحساس قوي بذلك، على الرغم من أنني لم أشاهدها كلها. كما أنني لم أشاهد في تلك المرة الرجل أو المرأة بالرداء الأبيض. كانت الغرف خالية. وإذا ما أردنا جعلها صالحة للسكن فإنها تحتاج إلى جهد كبير. نعم، أعتقد أنها بحاجة إلى جهد يستمرّ أسابيع أو أشهراً. وقفتُ هناك وأنا أنظر إلى طبقة الجدران الخارجية المتساقطة، وإلى إحدى زوايا السقف الملطخة الرطبة أو القذرة أو المتضررة. ومع هذا، فإنني في ذلك الصباح نفسه، بدأت أفهم مدى الجهد الذي ينبغي أن يُبذل وشاهدت لبرهة – نعم، ماذا؟ أنا لا أكاد أستطيع التفوه بذلك. لعله شعور أكثر منه رؤية حقيقية. ثمة عذوبة. هذا لا شك فيه. ترحيب وإعادة ثقة. ربما شاهدت وجهاً أو ظل وجه من الوجوه. كان الوجه الذي شاهدته من بُعد مألوفاً لديَّ. لكن من المحتمل أن ذلك الوجه يظهر في ذاكرتي في هذا المكان، وفي هذه الزيارة الثانية المبكرة بعد أن لاحظ انتهاء كل شيء. لقد عكس الوجه نفسَه ولم يكن بحاجة إلى استخدام مرآة أو أي شيء آخر، بل العواطف التي حملها الحنين العذب الذي يمثل الجوع غذاءه الملائم. هذا هو الساكن الحقيقي لهذه الغرف الواقعة وراء الجدار. ولم أشك في ذلك آنئذٍ أو بعدئذ. الساكن المنفي. إن هذا الساكن هو فتاة لم يكن في وسعها العيش أبداً في ذلك الجو البارد الخالي الذي يملأه الهواء الفاسد والنتن.

عندما أدركت مرة أخرى أنني أقف في غرفة الجلوس في شقتي والسيجارة قد احترق نصفها، انتابني اليقين بوجود أمل ما، ولم يغادرني

هذا الأمل مهما ازداد تعقيد الأمور بعد ذلك؛ سواء في حياتي الخاصة أو في هذه الغرف الخفية.

* * *

تُركت الفتاة عندي بهذه الصورة. كنت في المطبخ، وبعد أن سمعت صوتاً ما، توجهت إلى غرفة الجلوس فشاهدت فيها رجلاً ومعه فتاة صغيرة. لم أكن أعرف أياً منهما، فتقدّمت منهما وأنا مصممة على توضيح الالتباس الذي حصل. فكّرت أنني ربما تركت الباب الرئيس مفتوحاً. فالتفت إليَّ الاثنان. أتذكّر الآن كيف صعقتني في ذلك الوقت، تلك الابتسامة المشرقة والقلقة التي ارتسمت على وجه الفتاة. أما الرجل الذي كان يرافقها فكان في أواسط العمر ويرتدي ملابس مألوفة، ويبدو عادياً في كل شيء... وقال:

- هذه هي الفتاة.

بعد أن تفوّه بهذه الجملة، كان قد وصل إلى منتصف الطريق نحو باب الخروج. كان قد وضع يده فوق كتفها، وابتسم لها، وأومأ برأسه، والتفت خارجاً. لكنني قلت:

- لكن أنت أكيد...

- لا. ليس ثمة التباس. أنت مسؤولة عنها.

في تلك الأثناء كان قد وصل إلى الباب.

- ولكن انتظر لحظة.

- إنها تدعى إميلي كارترايت. فاهتمي بها.

ثم انصرف وغاب عن الأنظار.

مكثت والفتاة واقفتين في الغرفة، وأخذت كل واحدة منا تنظر إلى الأخرى. أتذكّر أن نور الشمس كان يغمر الغرفة. فالوقت كان صباحاً. فكّرت كيف استطاع الاثنان الدخول، لكن ذلك يبدو الآن أمراً لا أهمية

لــه طالمــا أن الرجل قد مضى في سبيله. هرعت إلى النافذة، فوجدت الشــارع وعــدداً مــن الأشجار امتدت على طول الرصيف. وكان ثمة موقف لحافلة نقل الركاب، واصطف عدد من الناس منتظرين. كان على الرصيف الفسيح المقابل عدد من الأطفال من شقة ميهتا العلوية يلعبون تحــت الأشــجار بالكرة، وكان هؤلاء الأطفال من البنين والبنات، ومن ذوي البشــرة الداكنة، وكانوا يرتدون قمصاناً بيضاء اللون براقة وثياباً وردية وزرقاء. كان شعرهم متألقاً. أما الرجل الذي كنت أبحث عنه فلم تكن هناك أي إشارة تدل على وجوده.

التفــتُ إلــى الفتاة. وفي هذه المرة تأملت قليلاً، وفكّرت بما يجب عليَّ قوله، وكيف لي أن أقدّم نفسي لها، وكيف سأتعامل معها. وفكّرت بكل الأساليب والحيل التي يلجأ إليها المرء للتعريف بنفسه. كانت الفتاة تراقبنــي بحــذر وعــن كثب. راودتني فكرة أن هذه المراقبة إنما هي تخميــن جــيد للاحــتمالات الواردة، يقوم به أحد السجناء لدى مراقبته ســجانه الجديــد. كــان قلبي قد بدأ ينقبض! أما عقلي فلم يستوعب بعد معنى الأحداث الجارية.

قلــت بتردد والأمل يراودني في أن تجيب عن الأسئلة التي كانت تشغل ذهني.

– إميلي؟

فأجابت بلهجة تتفق وصوتها وابتسامتها العذبة المنيعة:

– إميلي ماري كارترايت.

وقحة؟ على أي حال، إنه حضور قوي كما يبدو. وكنت أحاول أن أتفــادى ذلــك. أدركــت أنني أبذل محاولة يائسة لإصدار الإشارات – ابتســامة أو إيماءة – التي قد تصل إلى مواقع أكثر ليناً وأشد دفئاً وراء دفاعها البارد.

– حســناً. هــلاّ جلســت؟ أو هــل ترغبين في أن أعد لك بعض

الطعــام؟ بعــض الشــاي؟ لديّ شاي حقيقي هنا. ولكن من الطبيعي... فقالت:

- أرجو أن تأخذيني لمشاهدة غرفتي.

رافقت هذه الإجابة نظرة التماس من عينيها دون أن تدرك ذلك. لقد كانت في أمس الحاجة إلى معرفة الجدران، أو الملجأ الذي ستتمكن من جذبه من حولها كما تجذب البطانية فتشعر بالطمأنينة.

فقلت:

- حسناً. لم أفكّر في ذلك بعد. فأنا لست... أنا ينبغي لي أن...

في هذه الأثناء لاح شيء من الوهن على وجه الفتاة إلاّ أنها احتفظت بلهفتها الحارة. فواصلت كلامي:

- كما ترين أنا لم أتوقع... دعينا نفكّر بالأمر.

فانتظرت الفتاة. انتظرت بعناد. لقد كانت تعرف أنها ستعيش معي. كانت تعرف أن ملجأها، وجدرانها الأربعة، وملاذها، والبقعة الصغيرة التي تملكها والتي في استطاعتها أن تذهب إليها موجودة هنا في مكان ما.

فقلت لها:

- هناك غرفة احتياطية. أنا أسمّيها بهذا الاسم. لكنها ليست...

غير أنني ذهبت إلى الردهة الأمامية الصغيرة، ومن هناك توجهت إلى الغرفة الاحتياطية. في وسعي أن أتذكّر كيف أن سلوكي ذلك كان يبعث على الحزن واليأس.

كانت الشقة تقع في الواجهة الأمامية من الجزء الجنوبي للمبنى. كانت غرفة الجلوس تحتل معظم المساحة تقريباً، وكان حجمها الواسع هو الذي حفزني على السكن في الشقة. في الجانب البعيد من نهاية الردهة يوجد المطبخ، ولا بدّ من اجتياز غرفة الجلوس للوصول إليه،

فهو يقع في ركن البناية. كان المطبخ كبيراً وفيه خزانة للأواني المنــزلية، وفسحة تستخدم مخزناً للأغراض. كانت الردهة تحتوي على بابين اثنين يؤدي أحدهما إلى غرفة الجلوس بينما يؤدي الآخر إلى الغرفة الاحتياطية. كانت الغرفة الأخيرة تضم حماماً. أما غرفة نومي فتقع في واجهة البناية ويمكن الوصول إليها من غرفة الجلوس. كانت مساحة الحمام، والردهة، والغرفة الاحتياطية تساوي مساحة غرفة نومي التي لم تكن كبيرة جداً. يجدر بالملاحظة أن الغرفة الاحتياطية صغيرة جداً وفيها نافذة صغيرة عالية. أما جوها فخانق. إذ ليست هناك أي وسيلة يمكن أن تجعلها غرفة جذابة. لم أستخدمها إلاّ لتخزين الحاجيات أو إذا أرادت صديقة ما قضاء ليلة عندي، مع الاعتذار.

قلت:

– متأسفة فالغرفة صغيرة جداً ومظلمة. ربما في وسعنا أن... إلاّ أنها قاطعتني وهي تقول بلهجتها الباردة الطروب:

– أبداً، أبداً، لا مانع لديّ.

ثم نظرت إلى السرير بشوق، وأدركت عندئذ أنها قد وجدت ملاذاً لها، ملاذاً هنا في النهاية. ثم أردفت قائلة:

– إنه رائع. آه. نعم. أنت لا تصدقينني. أنت لا تعرفين ما...

ثم سكتت تاركة احتمال توضيح ما كانت تتوقعه وانتظرت. كان جسدها كله يعبّر عن رغبتها العنيفة في أن أغادر الغرفة.

فقلت لها:

– كما أننا سنستخدم الحمام معاً أيضاً.

فأكدت لي وهي تقول:

– آه. سأكون مرتّبة جداً. أنا فتاة طيبة حقاً. ولن أحيل المكان إلى فوضى. فذلك ليس من طبعي.

عرفت أنني لو لم أكن موجودة في هذه الشقة أو لو أن الفتاة لم تشعر أنه ينبغي لها أن تتصرّف تصرفاً لائقاً فإنها ستكون بين الأغطية وستكون بعيدةً جداً عن العالم.

أكدت لي وهي تردد:

– لن أقلق راحتك. ينبغي لي أن أكون مرتَّبة وسأسرع بقدر استطاعتي.

تركتها. وانتظرتها في غرفة الجلوس. وقفت في بادئ الأمر قرب النافذة وأنا أحدّق إلى الخارج، وأفكّر إن كانت هناك أي مفاجآت أخرى جديدة قادمة. ثم جلست واتخذت– حسبما تخيلت– وضع المفكر أو شيئاً يشبه ذلك الوضع.

نعم، أمر غريب. نعم، أمر مستحيل. لكنني على كل حال قبلت بالمستحيل، وعشت معه. لقد تخليت عن جميع الآمال الاعتيادية بالعيش حياة هادئة في عالمي الخاص وحياتي الحقيقية في ذلك المكان. أما في ما يخصّ العالم الخارجي، فهو منذ وقت طويل يمنح الأشياء الاعتيادية. هل في وسعِ المرء أن يصف تلك الفترة بأنها فترة اعتيادية في وقت غير اعتيادي؟ حسناً، لا ينبغي للقارئ أن يجد أي صعوبة هنا: فهذه الكلمات إنما هي وصف للأوقات التي عشناها معاً (وصف لكل الحياة؟ ربما. لكن من غير المفيد الاعتقاد بذلك).

غير أن هذه الكلمات تصف تماماً جو الأحداث التي كانت تجري عندما جيء بإميلي إليّ. ففي الوقت الذي كان فيه كل شيء ينهار، بما في ذلك جميع أشكال التنظيم الاجتماعي، كنا نستمرّ في حياتنا ونكيّفها وكأنه لم يحصل أي تغيير جوهري. ومما يبعث على الدهشة أن المحاولات المبذولة من أجل الاستمرار فِي حياة اعتيادية كانت محاولات تتسم بالعزم والتصميم... ولأنه لم يبقَ سوى جزء ضئيل مما كنا معتادين عليه منذ ما يقارب أكثر من عشر سنوات، فإننا واصلنا

حديثنا وتصرفاتنا كأن الأشكال القديمة هذه لا تزال ملكنا. في الحقيقة، إنّ نظام الأشياء القديمة؛ الغذاء، وأسباب الراحة، وحتى وسائل الترف كان موجوداً على مستويات رفيعة، وكنا جميعاً ندرك ذلك، على الرغم من أن أولئك الأشخاص الذين كانوا يتمتّعون به لم يجذبوا إليهم الأنظار. كما أن النظام كان موجوداً في بعض جيوب الزمان والمكان؛ في فترات أسابيع أو أشهر أو في منطقة معينة. هناك كان الناس يعيشون ويتحدثون بل يفكّرون كأن شيئاً ما لم يتبدل. عند حدوث خطب ما، مثل دمار يلحق بإحدى المناطق، فالناس قد يخرجون من بيوتهم ليقضوا أياماً أو أسابيع مع أقاربهم أو أصدقائهم، ومن ثم يعودون إلى بيوتهم التي يجدونها قد تعرّضت للسلب والنهب، ويواصلون أعمالهم وإدارة شؤونهم المنــزلية، ويستمرون في نظامهم. إننا نستطيع التكيف مع أي شيء. هذا أمر شائع، ولكن ربما ينبغي عليك أن تحيا في ظل مثل هذا الزمان كي ترى مدى فظاعته. فلا شيء يثني الناس عن تكييف أنفسهم مع الحياة الاعتيادية. هذا هو الشيء الذي أضفى على ذلك الزمان طابعه الخاص الذي يجمع كل ما هو رهيب وفظيع ومتعب ومهدّد – إنه جو الحصار أو الحرب – مع ما هو مألوف، واعتيادي، ولطيف.

فعلى سبيل المثال، كانت نشرات الأخبار والصحف تواصل الحديث أياماً طويلة عن طفل واحد اختطف من عربته. ربما خطفته امرأة مسكينة تعيسة. وكان من شأن رجال الشرطة تمشيط الضواحي والريف بأعداد تصل إلى المئات. كانوا يبحثون عن الولد، والمرأة لمعاقبتها. أما الخبر التالي فيفيد بموت مئات أو آلاف أو حتى ملايين الأشخاص. إننا لا نزال نؤمن –ونريد أن نؤمن أيضاً– أن الشيء الأول وهو القلق من أجل طفل واحد، وضرورة معاقبة المجرم الفرد هو الشيء الذي يرمز إلينا حقاً حتى لو اقتضى الأمر قيام قوة من رجال الشرطة الأكفاء بعملهم هذا أياماً أو عدة أسابيع. أما الشيء الثاني، وهو الكوارث، فكانت مادة إخبارية ينظر إليها أولئك الأشخاص البعيدون عن

منطقة الخطر بمثابة حادثة ثانوية يؤسف لها أو على الأقل ليست مهمة أثّرت في سياق تطور المدنيّة.

هذه الأشياء التي ألفناها وقبلنا بها هي أشياء اعتيادية. بالرغم من ذلك، كانت هناك لحظات تمر بنا لا ترقى فيها اللعبة التي اتفقنا على ممارستها إلى مستوى الأحداث. إذ استحوذت علينا مشاعر اللاواقع كالغثيان. لعل الشعور بالأرض وهي تميد تحت أقدامنا هو عدونا الحقيقي؛ أو هكذا ظننا. لعل موافقتنا الضمنية بأن ما من شيء يحدث ويصعب إصلاحه إنما تعود إلى أن عدونا هو الحقيقة، وأننا نسمح لأنفسنا بمعرفة ما يجري، ولعل ادعاءاتنا جميعاً التي تجعلنا نبدو في اللحظات التي نشعر فيها أننا عراة ونفتقر إلى الحماية تشبه التمثيل، لا بل العبثية. فهل يتعيّن النظر إليها نظرة إعجاب؟ أو ربما كانت ضرورية مثل ألعاب الأطفال الذين يستطيعون جعل التمثيل أسلوباً لإبعاد الواقع عن مكامن ضعفهم؛ غير أن المرء لا بدّ له من التغلب على الحاجة وذلك بواسطة الضحك. آه، ليس ضحكة بل عليه أن يصرخ بسخرية.

مرة أخرى على سبيل المثال، وفي الأسبوع نفسه، وبينما اقتحم حوالى مئتي سفاح منطقتنا، وتركوا إحدى الجثث فوق الرصيف المقابل لشقتي، وحطموا النوافذ، ونهبوا المتاجر، وأضرموا النيران كانت ثمة مجموعة من النساء في أواسط العمر اللواتي تبرّعن للقيام بأعمال الحراسة قد بدأن مسيرة احتجاج رسمية ضد فرقة مسرحية أسّسها بعض الشباب. كانت هذه الفرقة قد ألّفت مسرحية، وبدأت تقدّم عروضها وهي تصف حالات التوتر داخل إحدى الأسر العاديّة، وتقطن في إحدى البنايات السكنية التي تشبه بنايتنا. كانت هذه الأسرة قد أوت نحو ستة غرباء من الدول الشرقية (إذ طالما ظلّ المسافرون يرافقون العصابات المهاجرة فإنهم سفاحون وقطاع طرق. أما إذا حاولوا إيجاد مأوى لهم مع إحدى الأسر فهم لاجئون). فبعد أن كان

البيت يتسع لخمسة أشخاص آوى فجأة اثني عشر شخصاً، وأدت الاحتكاكات بينهم إلى الزنا. *كما أن إحدى الفتيات الشابات أغوت رجلاً مسناً في عمر جدها* على حدّ وصف النساء الطيبات، وقد أفلحوا في تنظيم لقاء لم يحضره إلاّ القليلون لمناقشة موضوع *تفكك الحياة الأسرية، والخلود، والممارسة الجنسية*. من الطبيعي أن هذا أمر يدعو إلى الضحك، هذا إن لم يكن مثيراً للحزن، وما لم يكن مثيراً للإعجاب، كما أشرت آنفاً؛ إنه إشارة تدل على حيوية ما يُسمّى *الحياة العادية* التي ستهزم الفوضى، والاضطراب، والأحداث الكريهة في النهاية.

أو، ما الذي نستطيع قوله بشأن مجموعات المواطنين التي لا حصر لها، والتي ظهرت حتى النهاية لأي غرض أخلاقي أو اجتماعي يمكن للمرء أن يفكّر فيه: لتحسين الحقوق التقاعدية للمسنين في وقت أصبحت فيه المقايضة تحل محل النقود؛ لتوفير أقراص الفيتامينات لطلاب المدارس؛ لزيارة المرضى المقعدين في بيوتهم؛ لتنظيم التبنّي القانوني الرسمي للأطفال الذين تركتهم أمهاتهم؛ لمنع أي أخبار عن الأحداث غير السارة أو التي يصاحبها العنف وذلك لكي لا تمتلئ رؤوس الشبان بالأفكار؛ للتعامل مع السفاحين وقطاع الطرق معاملة عقلانية عند مرورهم في الشوارع أو تأديبهم بدلاً من ذلك؛ لاستعادة الإحساس بالكرامة في ممارساتهم الجنسية؛ للموافقة على عدم تناول لحم القطط والكلاب؟ وهلمّ جرّا. مهزلة. البصاق في وجه إعصار؛ الوقوف أمام المرآة لملامسة المرء وجهه أو تعديل ربطة عنقه بينما ينهار المنزل من حوله؛ مدّ الذراع ومصافحة أحد البرابرة إذ من المؤكد أنه سينحني ويعضها... إن هذه التشبيهات تراود الذهن. ويجري القياس بعد ذلك. في سياق الأحاديث التي تعدّ بمثابة الطعام والشراب لنا. ويفعل هذا الكوميديون المحترفون.

في مثل هذا الجو، وفي زمن تحدث فيه مثل هذه الأمور، فإن

وصول شخص غريب إلى بيتي ومعه طفلة، ثم يقول إنني مسؤولة عنها ويغادر دون أي ملاحظة أخرى، إنما هو أمر ليس غريباً إطلاقاً.

أخيراً، خرجت إميلي من غرفتها بعد أن بدلّت ملابسها، وأزالت عن وجهها ما كان يبدو شبيهاً بدموع هاجمتها وقالت:

- ستكون الغرفة صغيرة عليّ وعلى هوغو. لكن هذا ليس مهماً.

شاهدت أن هناك كلباً قربها. وليس قطة. ما هو؟ إنه حيوان على كل حال. كان بحجم كلب البولدوغ، وشكله يشبه شكل كلب أما الوجه فهو وجه قطة.

كان أصفر اللون، خشن الجلد، له عينان وشارب كالتي نجدها عند القطط، أما ذيله فطويل يشبه السوط. هوغو حيوان قبيح. جلست بعناية فوق الأريكة القديمة قبالة المدفأة بينما قفز الحيوان وجلس قريباً منها. بعد أن طوقته بذراعها، نظرت إليّ بعينين قريبتين من وجه الحيوان. نظر الاثنان إليّ هوغو بعينيه الخضراوين وإميلي بعينيها البندقيتين الحصينتين واللاذعتين.

كانت إميلي طفلة كبيرة في الثانية عشرة من عمرها. في الواقع، لم تكن طفلة، بل في وسط تلك المرحلة التي ستجعلها فتاة. كانت جميلة أو على الأقل حسنة المظهر. يداها صغيرتان وقدماها صغيرتان أيضاً. أما ذراعاها فقويتان لوّحتهما الشمس. شعرها أسود سبط ومفروق إلى أحد الجانبين ومثبت فيه دبوس.

تحدثنا معاً، أو أننا أبدينا بعض الملاحظات الصغيرة وكل واحدة منا تنتظر الانتقال في الحديث إلى موضوع يجعل من وجودنا معاً أمراً سهلاً. بينما كانت تجلس على مقعدها مفكرةً، كان فمها يشي بعدة احتمالات بروح النكتة. أما مظهرها الموحي بالاهتمام الصبور والمتأمل فقد جعلها تبدو شخصاً من شأني أن أحمل له كل الود. لكن ما إن أصبحت واثقة من أنها ستستجيب برقة لمحاولاتي ولمشاعر البهجة التي

غمرتني نظراً لقدراتها حتى ظهرت في حديثها كلمة مدام وهي كلمة عتيقة الطراز كانت مناسبة لها؛ إذ كان هناك شيء ذو طراز عتيق يكتنف نظرتها إلى نفسها، أو لعل تلك فكرة شخص آخر عنها.

وهذرت:

- إنني جائعة جداً. وكذلك هوغو. مسكين هوغو. إنه لم يأكل شيئاً هذا اليوم. كما أنني لم آكل شيئاً أنا أيضاً. أقول هذا إن كان ينبغي لي أن أقول الحقيقة.

اعتذرت لها، وهرعت إلى الخارج لكي أشتري من أحد المتاجر أي نوع من طعام القطط أو الكلاب قد أجده متوفراً لإطعام هوغو. استغرقني العثور على أحد المحلات التي لا تزال تحتفظ بمخزون من هذه الأطعمة بعض الوقت. ووجدت نفسي محط اهتمام مساعد صاحب المحل؛ إذ وجد فيَّ عاشقةً للحيوانات، وأعجب بعزمي على مناصرة حقي في الاحتفاظ بالكلاب في هذه الأيام. كما أنني أثرت اهتمام شخص أو شخصين من الزبائن. غير أنني كنت حذرة في عدم البوح بأي شيء عن المكان الذي أقطن فيه عندما سألني أحد الزبائن عن ذلك. عدت إلى البيت سالكة طريقاً مغايرة متعمدة التضليل. في طريق عودتي زرت بعض المحلات بحثاً عن بعض الأشياء التي لم أجشم نفسي عناء الحصول عليها، فوجدت أنه من الصعوبة الحصول عليها، إضافة إلى ارتفاع ثمنها. في النهاية استطعت الحصول على بعض البسكويت والحلويات الجيدة النوعية؛ أي كل ما تصورت أن من شأنه أن يلاقي قبول الطفلة. أصبحت أملك كمية كبيرة من التفاح والكمثري المجففة، إضافة إلى مخزون كبير من المواد الغذائية الأساسية. ولمّا عدت أخيراً إلى الشقة كانت الفتاة تغط في النوم فوق الأريكة، وكان هوغو يرقد بجانبها. كان رأسه الأصفر يتكئ على كتفها، بينما كانت ذراع إميلي تطوق رقبته. كانت حقيبتها على الأرض بجانبها؛ وهي حقيبة صغيرة. وكانت تضع في داخلها بعض الثياب المطوية بعناية

وفانيلة من قماش الجرسيه وبنطالاً من الجينز. يبدو أن هذه الأشياء هي كل ما تملكه. ولم أكن لأدهش إذا ما رأيت لعبة من ألعاب الأطفال. لكنني وجدت عوضاً عن ذلك نسخة من الكتاب المقدس، وكتاباً يضم صور الحيوانات، وبعض قصص الخيال العلمي.

لكي أظهر لها ترحيبـــي بها فقد أعددت وجبة طعام لها ولهوغو. وقد وجدت صعوبة في إيقاظهما. إذ كانا في حالة إعياء شديد بعد أن وجدا الراحة أخيراً إثر التوتر الذي أصابهما. وبعد أن فرغا من تناول الطعام رغبا في النوم رغم أن الوقت كان لا يزال عصراً.

بهذه الطريقة تُركت إميلي في عهدتي.

واصلت إميلي النوم في الأيام الأولى من وجودها معي. وهذا هو السبب الذي جعلني دوماً أفكّر بلا وعي في أنها أصغر سناً مما تبدو عليه. يضاف إلى ذلك سبب آخر يتمثل في طاعتها العمياء. فكنت أجلس منتظرة بهدوء في غرفة الجلوس وأنا أعلم أنها نائمة تماماً مثلما يفعل أي شخص إزاء طفل صغير. أصلحت لها بعض الأشياء، وغسلت ثيابها وكويتها. لكنني على الرغم من ذلك بقيت جالسة أنظر إلى الحائط وأنتظر. ولم أفلح في منع نفسي من التفكير في أن وجود الطفلة معي من شأنه أن يعكّر صفو مزاجي تماماً كما هي الحال منذ أن بدأ الجدار ينفتح أمامي. في الحقيقة، إنّ الطفلة والحيوان كانا في طريقي. وقد سبّب هذا التفكير لي الإحساس بالذنب. كما أن جميع العواطف التي لم تكن تنتابني منذ فترة طويلة جداً هاجمتني الآن مرة أخرى. اشتقت حقاً إلى اجتياز الجدار والخروج بلا عودة. لكنّ هذا التصرف من شأنه أن يبدو تصرفاً غير مسؤول. وسيعني أنني أتنصل من مسؤولياتي.

بعد وصول إميلي بيوم أو يومين كنت خارج الجدار. وجدت نفسي أواصل فتح الأبواب أو السير وراء منعطفات ممرات طويلة لأكتشف مزيداً من الغرف. كانت جميعها خالية، أي أنني لم أشاهد أحداً فيها

بالرغم من إحساسي القوي بوجود شخص ماً. واصلت الالتفات بسرعة كأنما كنت أتوقع خروج مثل هذا الشخص من وراء أحد الجدران في اللحظات القليلة التي أتقدّم فيها إلى الأمام. غرف فارغة لكنها مأهولة. فارغة ولكنها مؤثثة. تجولت في ذلك المكان بين الجدران البيضاء المرتفعة وأنا أتنقل من غرفة إلى أخرى. فرأيت أن المكان يمتلئ بالأثاث. أعرف جيداً هذه الأرائك وهذه الكراسي. لكن لماذا؟ إلى أي فترة من تاريخ حياتي تنتمي هذه الأشياء؟ إنها ليست من الطراز الذي أفضّله. لكنها على الرغم من ذلك تبدو كأنها من ممتلكاتي أو من ممتلكات صديق عزيز.

كانت ستائر غرفة الاستقبال حريرية ووردية باهتة. أما أرضية الغرفة فمفروشة بسجادة رمادية اللون مطرزة بزهور وردية وخضراء. كما انتشر في الغرفة عدد كبير من المناضد الصغيرة والأدراج. كانت الأرائك والكراسي مزدانة بنسيج مطرز بالرسوم والصور، بينما كانت الوسائد ذات الألوان الفاتحة موزعة هنا وهناك. لقد كانت الغرفة ذات صبغة رسمية مبالغ فيها، مما يجعلني أشك في أنها غرفتي. لكن بالرغم من كل ذلك، فإن كل شيء فيها كان مألوفاً لديّ. سرت في الغرفة والإحساس باليأس يتسرب إليّ تسرباً بطيئاً. فكّرت أن كل ما تقع عليه عيناي لا بدّ أن يبدّل أو يصلّح أو ينظّف؛ إذ لم يكن فيها أي شيء جديد أو كامل. فكل الكراسي بحاجة إلى إصلاح بعد أن بهت لونها. أما الأرائك فكانت وسخة، والستائر فيها بعض الشقوق، كما أن العث ترك فيها ثقوباً عديدة. أمّا خيوط السجادة فكانت بارزة. هكذا كان حال جميع الغرف الأخرى في هذا المكان الذي كان يوحي بأن الأشياء تتــزلق من بين أصابعي المتشنجة والمرتبكة. فالمكان برمته بحاجة إلى ترتيب. هذا ما قلته لنفسي. لا بدّ أن يُفرَغ من جميع محتوياته التي ينبغي إحراقها أو رميها خارجاً. فالغرف الفارغة من كل شيء أفضل من هذا المكان المهلهل القليل النفع. غرفة إثر غرفة إلى ما لا نهاية. وإلا فالعمل الذي

ينبغي عليّ القيام به لا نهاية له. واصلت البحث عن الغرفة الخاوية التي كانت تحتوي على سلم الدهان والشخص الذي رأيته بعجالة مرتدياً ملابس العمل. لو استطعت مشاهدة ذلك لبدأت الخطوة الأولى. غير أنه لا توجد أي غرفة خاوية. فكل غرفة كانت تحتشد بالأغراض وكلها تحتاج إلى عناية.

ينبغي ألاّ ينصرف الذهن إلى أن كل طاقتي موجهة الآن إلى هذا المكان الخفي. فقد مرّت أيام كثيرة لم ينشغل تفكيري به أبداً. كانت معرفتي بالمكان، ووجوده، والشكل الذي يتخذه تمرّ أمامي مثل ومضات في أثناء حياتي العادية. هذا ما كان يحدث في معظم الأحيان. إلاّ أنني كنت أنساه أيضاً أياماً عديدة. عندما أكون حقاً داخل ذلك الجدار، فإن كل شيء يصبح مفتقراً إلى الوجود الحقيقي. كما أن انشغالي الجديد والجاد – إميلي وحيوانها – غالباً ما كان يبتعد عن ذهني ويصبح جزءاً من حياة أخرى لا تهمني كثيراً. هذه هي الصعوبة التي ألاقيها في وصف ذلك الزمان: إنني عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أجد أن أسلوبين في الحياة، وعالمين مختلفين، يركنان جنباً إلى جنب، ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً. لكن مع هذا، فإن كل حياة كانت تستثني الحياة الأخرى، ولم أتوقع أبداً لهذين العالمين أن يلتقيا. بل لم أفكّر أبداً في إمكانية قدرتهما على مثل هذا الالتقاء. كان في وسعي القول إن ذلك أمر مستحيل، ولا سيما في الوقت الراهن بعد وصول إميلي، وبعد أن أصبحت لديَّ مشكلات كثيرة تتعلق بوجودها معي.

لقد كانت المشكلة الرئيسة تتمثل في أنها مطيعة ومتعاونة إلى أبعد الحدود. ظلت على هذه الحال بعض الوقت، فعندما كنت أستيقظ في الصباح، كنت أجدها قد استيقظت قبلي، وارتدت أحد فساتينها الجميلة التي ترغب أي أم أن ترى ابنتها الطيبة ترتديها، وقد مشّطت شعرها، ونظّفت أسنانها، وجلست في انتظاري في غرفة الجلوس مع هوغو.

ومن ثم كانت تبدأ الحديث، وتعرض عليّ هذا الشيء أو ذاك، أو تخبرني كيف أنها نامت نوماً هنيئاً، أو كيف انتابتها الأحلام، أو كيف مرّت في ذهنها فكرة مدهشة أو سخيفة. كان حديثها هذا يأتي دوماً بأسلوب مثير وسريع يمنعني من طرح أي سؤال أو إبداء أي نقد. بعد ذلك تبدأ الحديث عن طعام الفطور فتعبّر عن رغبتها في إعداده لأن ذلك يعجبها كثيراً، ولأنها بارعة أيضاً في ذلك. هكذا كنا نذهب معاً إلى المطبخ والحيوان يقتفي أثرنا. كنت أجلس قرب هوغو، ونراقبها وهي تعد الطعام، كانت ماهرة وممتازة. ثم كنا نتناول الطعام، أياً كان نوعه، بينما يمدّ هوغو رأسه ليصل إلى مستوى خصرها، ويراقبها بهدوء، أو يراقبني، أو يراقب أيدينا، أو وجهينا. عندما كنا نمنحه قطعة من الطعام كان يأخذها بخفة مثل القطة. بعد ذلك كانت تقترح غسل الأواني: "لا، لا. أنا أعشق غسلها. شيء غير معقول. لكنني أحب ذلك!" عندئذ تبدأ بغسل الأواني وتنظيف المطبخ. أما غرفتها فتكون قد فرغت من ترتيبها تواً باستثناء سريرها الذي كان عبارة عن عش من البطانيات والوسائد المبعثرة. لم أؤنبها أبداً. بل على العكس، كنت مسرورة لأن هناك مكاناً واحداً يخصها، مكاناً تستطيع أن تجعل منه مأوىً لها، وتستطيع فيه التواري بعيداً عن الضرورة المزعجة حقاً في أن تكون طيبة جداً ومتألقة تماماً. في بعض الأحيان كانت تذهب في أثناء النهار وعلى نحو غير متوقع إلى غرفتها. كانت تذهب إلى هناك فجأة وكأنها لم تعد تستطيع احتمال أي شيء آخر. كنت أعلم أنها كانت تُغلق الباب وتزحف إلى فراشها لتستلقي عليه وتستعيد وضعها الطبيعي. ولكن ممّ؟ كانت تتخذ مكانها في غرفة الجلوس فوق أريكتي القديمة، فتلف ساقيها متخذة بذلك وضعاً يدلّ كما هو متوقع منها على طاعتها. كانت تراقبني وكأنما تتوقع بعض الأوامر أو الطلبات، أو قد تجلس لتقرأ. كان ذوقها في القراءة ذوق البالغين. عندما كنت أشاهدها جالسة في ذلك المكان وقد شرعت في قراءة الكتاب الذي اختارته، كنت أجد في سلوكها هذا أمراً

مستحيلاً كأنما هي تتعمد إهانتي بذلك. أو كانت تجلس وقد طوّقت حيوانها الأصفر بذراعيها بينما شرع يلعق يدها أو يضع وجهه فوق ذراعها ويبدأ بالخرخرة التي تملأ جنبات الغرف في شقتي.

هل كانت سجينة من نوع خاص؟

أنا لم أسألها. لم أوجّه لها أي سؤال على الإطلاق. كما أنها لم تتطوع بإعطائي أي معلومات. في هذه الأثناء كنت أتألم من أعماقي لمرآها بعد أن شاهدت تصرفاتها. في الوقت نفسه، وبينما كنت رقيقة جداً معها، وأشعر بالشفقة عليها فإنني كنت أغتاظ جداً بسبب عجزي عن الوصول إلى ما وراء الحاجز الذي وضعته بيننا. كانت تبدو وقورة وجدية وهي ترتدي ثيابها الجميلة وتُظهر كل ما من شأنه أن يوحي بأنها فتاة مستوحدة على درجة كبيرة من الوعي وقوة الملاحظة. لكنها كانت تنطلق فجأة بالحديث والثرثرة وتسعى إلى إثارة *المتعة* فتظهر لي شيئاً قليلاً من البراعة والقدرة كتعويض عن؛ ولكن عن أي شيء؟ أنا لم أشعر أبداً أنني مثيرة للرعب إلى هذا الحدّ. بل غالباً ما فكّرت بنفسي كأنني غير موجودة أساساً. لقد كنت لها بمثابة استمرار للأبوين، أو أحدهما، أو بمثابة الوصي أو الأم التي تبنتها. حين كنا نصل إلى هذه النقطة، كان من المفروض أن أسلمها إلى شخص آخر. فهل في وسع الرجل الذي أناط أمر رعايتها بي أن يأتي ليأخذها؟ هل سيأتي والداها؟ وإذا لم يحدث هذا فما الذي سأفعله بها؟ عندما بدأت رحلاتي صوب الشمال أو الغرب، وانخرطت مع الناس في حركتهم العامة بعيداً عن الأقسام الجنوبية والشرقية، فكّرت: ما الذي سأجده هناك؟ ما هو نمط الحياة هناك؟ لا أدري. لكن لم يخطر ببالي طفلة أو مسؤولية من هذا النوع. أضف إلى ذلك أن إميلي بدأت تتغير حتى في الأيام القليلة التي مضت على وجودها معي. فقد أخذ نهداها يتكوران، مما جعل جسد الفتاة يندفع إلى الأمام. أما وجهها الصغير ذو العينين الجذابتين فكان يحتاج إلى لمسة بسيطة كي يصبح وجه فتاة شابة. إن وجود فتاة

صغيرة، أمر سيئ، والأسوأ من ذلك إذا كانت *طفلة برفقة حيوانها*... أما أن تكون هناك *فتاة شابة* فتلك مسألة أخرى لا سيما في مثل هذه الأوقات.

سيبدو من الأشياء المتناقضة قولي إن شيئاً آخر كان يثير إزعاجي؛ ألا وهو كسلها. صحيح أنه لا توجد أشياء كثيرة تستحق الإنجاز في شقتي، ولكنّها كانت تجلس ساعات طويلة قرب النافذة وتراقب كل ما يجري أمامها. كانت تمتعني بتعليقاتها. كانت محاولتها هذه عرضاً متعمداً ومحسوباً. كان من الواضح أنها معروفة بتعليقاتها *الممتعة*. هنا لم أعرف تماماً ما هو الشيء الذي ينبغي عليّ التفكير فيه، لأن تصوراتها لم تكن تصورات فتاة صغيرة السن حتماً، أو ربما كنت أنا المتخلفة، وكانت هي نموذجاً لهذا الزمان، إذ إن أي إرهاق وتوتر لم يتعين على الأطفال الآن القبول بهما واعتبارهما جزءاً من حياتهم؟

كان الأستاذ وايت يخرج من الردهة، ويتجه صوب السلالم، ثم يتوقف مجيلاً نظره في امتداد الشارع وبطريقة عسكرية تقريباً وكأنه يقول: من هنا؟ وبعد أن يستعيد ثقته، يقف للحظة. يمكن تخيله وهو يرتدي قفازه ويعدّل من وضع قبعته. كان رجلاً ضئيل الحجم، ويبدو أصغر سناً من أن يليق به منصب أستاذ. فقد كان في العقد الثالث من عمره. يتصف بالدقة وشحوب اللون. كان كل شيء في حياته منظماً ودقيقاً، وكانت تلوح على وجه إميلي ابتسامة وهي تراقبه. كانت ابتسامتها ساخرة وصغيرة كأنما تفكّر مع نفسها: لقد أمسكت بك ولن تستطيع الهرب مني! وكانت تردد قرب أذني حيوانها الصفراوين المنتصبتين: "إنه يبدو وكأنه يرتدي قفازاً!" (نعم. كانت هذه هي ملاحظتها). ثم تضيف: "لا بدّ أنه يتمتّع بمزاج حاد!"... "لكن لماذا؟ لماذا تفكّرين هكذا؟"... "لماذا؟ حسناً. أمر طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار رباطة الجأش، والدقة، والنظافة. لا بدّ أنه سينفجر في مكان

ما". ثم تقول مرة أخرى: "إذا كانت لديه عشيقة – لقد كان استخدام هذه الكلمة العتيقة الطراز متعمداً وجزءاً من الفصل التمثيلي – لا بدّ أن هذه العشيقة امرأة ذات سمعة سيئة، امرأة فظيعة أو أنه نفسه سيعتقد كذلك، أو أن الآخرين سيظنون ذلك حتى لو لم يشاطرهم الرأي، لأنه لا بدّ أن يرغب في أن يكون شريراً. ألا تفهمين ذلك؟" حسناً. لقد كانت على صواب.

اختلقت لنفسي الأعذار كي أجلس في ذلك المكان وأسمع ما تتفوه به. إلاّ أنني كنت مترددة في ذلك أيضاً لأنني كنت كمن يرى السكين تخترق الجسد مرات ومرات وعلى نحو دقيق.

كانت تقول عن جانيت وايت وهي فتاة في مثل سنها: "سوف تقضي حياتها وهي تبحث عن شخص ما مثل أبي ولكن أين ستجده؟ أعني الآن. إنه غير موجود". من الطبيعي أنها كانت تعني تحلل الأشياء والأزمنة التي لم تعد تفضي إلى إنتاج أساتذة يرتدون قمصاناً نظيفة بيضاء اللون، ولديهم الرغبة السرية في كل ما هو غير جدير بالاحترام؛ طالما أن صفة الاحترام حكم عليها بالموت. كانت تطلق على الأستاذ لقب *وايت رابيت* أي الأرنب الأبيض. أما ابنته فكانت تسمّيها ابنة الأب. كانت تقصد من وراء ذلك أنها كانت تصف نفسها: "هل هناك شيء آخر بعد هذا؟" عندما اقترحت أن في وسعها أن تعقد صداقة مع جانيت أجابت: "ماذا؟ بيني وبينها؟"

كانت تجلس في ذلك المكان طيلة الوقت متراخية على كرسيّ كبير استخدمته لهذا الغرض: طفلة تقدّم نفسها كما هي. كان في وسع أي شخص مشاهدة الجوربين الأبيضين يلفّان ساقيها المكتنـزتين، وعقصة شعرها. إلاّ أن ما يلاحظه حقاً أي امرئ كان شيئاً مختلفاً. فقد ارتدت بنطال جينـز وقميصاً كوتهما في ذلك الصباح، وأبقت الزرّين العلويين مفتوحين. لقد أصبح شعرها الآن مفروقاً من الوسط. وبلمحة خاطفة أصبحت شابة رائعة. نعم، لقد أصبحت كذلك حقاً.

انطلقت الآن تصدر تعليقاتها على الشبان الذين كانوا يمرون كأنما تريد أن تؤكد اندفاعها في سلوكها: فهذا يسير سيراً يدلّ على عدم ثقته بنفسه كما تعتقد، وذلك يرتدي ثياباً مبهرجة، وهذا شاب آخر ذو بشرة قبيحة أو شعر أشعث، وهؤلاء أشخاص لهم مظهر زري يمثلون قوة ما وحقيقة لا سبيل إلى تجاهلها. لقد كانت أشبه بفتاة تقف فوق أرجوحة عالية وتصرخ بهلع.

كانت الفتاة رهيبة في دقتها، وأثارت القنوط في نفسي. آه. لعدة أسباب. كان ماضيّ الشخصي هو أحد هذه الأسباب. لكنها على الرغم من ذلك لم تشك في هذا، بل اعتقدت حقاً – كما أوحى لي سلوكها اللطيف ونظراتها الواثقة – بأنها كانت لا تترك شيئاً دون أن تعلّق عليه، وذلك بواسطة حدة ذهنها هذه المرة. فهي لم تستطع جعل أي شخص يمر دون أن تبادر فتطلق تعليقاً ما عليه بطريقتها الخاصة، تلك الفتاة الذكية، الفتاة التي لا يمكن أن تُخدع، الفتاة التي لا يمكن أن ينطلي عليها أي شيء، الفتاة التي حظيت بالتشجيع لسلوكها هذا الذي تعلمته.

مع هذا فقد دخلتُ ذات مرة غرفتها ووجدتها تتحدث من النافذة مع جانيت وايت. كانت جادة، ورقيقة، ومخلصة على ما يبدو، ولو لم تكن تشعر بالمودة إزاء جانيت وايت فإنها كانت ترمي إلى جعل جانيت تشعر بالود تجاهها. فقطعت كل فتاة للأخرى الوعود الكثيرة في أثناء ذهابهما إلى الأسواق، أو تبادل الزيارات، أو في أثناء الخروج في نزهات. عندما كانت جانيت تغادرها وهي تبتسم لحرارة مشاعر إميلي إزاءها، كانت الأخيرة تقول: "لقد سمعت والديها يتحدثان عني وستخبرني بما يقولان". كان هذا صحيحاً فعلاً.

المسألة المهمة أن أحداً ما لم يأتِ قربها أو ضمن مدى بصرها دون أن تشعر بالخطر منه، تلك كانت تجربتها التي جُبلت عليها. وجدت أنني أحاول أن أضع نفسي في مكانها، وحاولت أن أكون مثلها لكي أفهم

كيف يتعين انتقاد كل فرد يمر بها. وجدت نفسي أفكّر بأن هذا الشيء يفعله الجميع بمن فيهم أنا نفسي. إلاّ أن سلوكها امتاز بنـــزعة مبالغة. إذ من الطبيعي أن ينتابنا الحذر لدى اقتراب شخص ما منا، فنحسب الحساب لذلك الشخص، وتتواصل الإجراءات والتقويمات السريعة التي تصل إلى الآلاف، فيأخذ كل شخص مكانه المحدد، وينتهي الأمر بالحكم الصامت: نعــم، هذا لي. لا، لا يوجد أي شيء مشترك بيننـــا. لا. إنها – إنه – مصدر خطر. انتباه. خطر... إلخ. لم ندرك طبيعة السجن الذي أصبحنا نعيش في داخله إلاّ بعد أن أوصلت إميلي الأمور إلى حدّ بعيد جداً. فأصبح من المستحيل لأيّ منا السماح باقتراب امرأة ما أو رجل ما أو حتى طفل ما دون أن نكون مستعدتين تماماً لإجراء تحليلنا البارد والسريع والحاد. إلاّ أن ردّ الفعل كان من السرعة بحيث لم ندرك إلى أي حدّ نحن في قبضته.

كانت إميلي تقول "انظري كيف تسير. انظري إلى المرأة العجوز البدينة. (في الواقع، كانت المرأة التي تقصدها في الحديث تبلغ الخامسة والأربعين من العمر أو الخمسين. أو قد تكون في الثلاثين!) عندما كانت شابة، اعتاد الناس على القول إنها كانت تمشي بصورة مغرية!"؛ آه، أي التواءات وثنايا جنسية هذه. كان تقليدها رهيباً بسبب الدقة التي يتضمنها. فقد كانت المرأة زوجة مضارب مالي سابق أصبح سمساراً فيما بعد، وكانت تقطن في الشقة فوقنا. لقد اعتادت هذه المرأة على المئات من حركات الفم، والعينين، والردفين الجذابة. هذا ما كانت تراه إميلي في تلك المرأة. وهو أول شيء ينبغي أن يراه كل فرد. من المحتمل أنه يمكن الحكم عليها من هذه الحركات. لقد كان من المستحيل عدم سماع إميلي دون أن يحس الفرد بأنه ينهار. فقد كان حديثها هجوماً على حيوية المرء، وكان الإصغاء إليها يعني الإقرار بالحدود الضيقة التي نعيش كلنا داخلها.

ذات مرة، قلت لها إنها ربما ترغب في الذهاب إلى المدرسة.

وعندما رأيت نظرتها الاستفهامية، أوضحت لها بعجلة أنها ربما ستجد شيئاً تمارسه هناك. لم تكن هذه النظرة محسوبة. فقد كانت عبارة عن ردّ فعل أصيل. هكذا كنت ألمح ما كنت بحاجة إليه في بعض الأحيان: أن أعرف فكرتها عني وكيف تنظر إليَّ؛ إنه التسامح.

قالت: ولكن لماذا؟

لماذا؟ لو تخلت معظم المدارس عن محاولة التدريس، لأصبحت في نظر الفقراء على الأقل امتداداً للخدمة في صفوف الجيش ووسيلة لإبقاء السكان تحت السيطرة. لا تزال هناك بعض المدارس الخاصة بأولاد الطبقة ذات الامتيازات كأولاد المديرين والمشرفين. التحقت جانيت وايت بإحدى هذه المدارس. كنت أفكّر كثيراً في إميلي بحيث لم أستطع أن أعرض عليها إرسالها إلى إحدى المدارس حتى لو تمكنت من الحصول على مقعد لها. لم يكن السبب من وراء ذلك أن التعليم قد تدهور، بل لأنّه في الواقع عديم الشأن. كان ذلك يستحق النظرة الاستفهامية.

- أنا أتفق معك بأنه لا داعي للمدرسة. وأعتقد أننا لن نبقى فترة طويلة في هذا المكان.

- إلى أين تظنين أنك ستذهبين إذاً؟

آلمني هذا الكلام كثيراً، إذ لم تفصح من قبل عن مثل هذه العزلة اليائسة. تحدثت برفق ورقّة كأنها لا تملك الحق في طرح الأسئلة، أو أنني يجب أن أهتم بها وأحميها، وكأنها لا تلعب دوراً في مستقبلي.

بسبب المشاعر التي اكتنفتني، كنت أكثر وضوحاً بشأن ما رسمته من خطط. لقد فكّرت كثيراً إن كانت إحدى الأسر التي أعرفها والتي تقطن في منطقة شمال ويلز على استعداد لتوفير المأوى لي. كانت تلك الأسر من الفلاحين الطيبين. نعم. هذا هو مقياس تفكيري بها: فلاحون طيبون. هذه هي الطريقة التي تتكون فيها مفاهيم السلامة، والسلام، والملجأ، والعيش المثالي في عقول الكثير من الناس. غير أنني لم

أعرف أن ماري وجورج دولجلي كانا يألفان مزرعتهما ويزوران نزلهما الذي يفتح في فصل الصيف. لو أنني توجهت إلى هناك فهل أستطيع البقاء هناك لفترة وجيزة؟ فأنا امرأة بسيطة، وأحب أن أحيا حياة بسيطة، ولا فرق عندي بين أن أكون معهم أو في المدينة. من الطبيعي أن هذه الصفات تنطبق على أعداد كبيرة من الناس هذه الأيام ولا سيما الشبان الذين في وسعهم القيام بأي عمل يتطلب الإنجاز. لم أتخيل أن هذه الأسرة ستنتظر إليّ وكأنني جائزة. إلاّ أنهم على الأقل لن يجدوا فيّ عبئاً كما ظننت. والطفلة، أو الفتاة الشابة؛ الفتاة الجذابة المتحدّية؟ حسناً. هم أيضاً لديهم أطفال. وكما يبدو، فإن أفكاري عادية تماماً ولا يوجد فيها أي تجديد. تحدثت مع إميلي بهذا الشأن. فوجدت ابتسامتها الصغيرة المريرة تتحول تدريجياً إلى متعة وهي تصغي إليّ. إلاّ أن هذه المتعة كانت تختفي وراء الأدب.

لم أستطع أن أصدق أن ذلك يدلّ على عاطفة ما. فقد عرفت سبب هذه الأحلام الغريبة، ولكنها على الرغم من ذلك استمتعت بها مثلما استمتعت أنا بها، وطلبت مني أن أصف لها المزرعة. فأخبرتها أنني بقيت فيها ذات مرة أسبوعاً واحداً، ونصبت خيمتي فوق الأراضي البور التي كان يجري ماؤها الفضي في قنوات صغيرة تمتد فوق سفح التل البنفسجي، وأنني كنت آخذ قنينة صباح كل يوم للتزود بالحليب الطازج من عند ماري وجورج. كنت أشتري في الوقت نفسه الخبز المُحلّى. إنها قصيدة رعوية طورتها وحشرت فيها التفاصيل. قلت لها إننا سنسكن في غرفتين في النــزل، وإن إميلي ستساعد في بعض الأعمال الخاصة من مثل رعاية الدجاج؛ وكانت هذه عبارة عن قصة من القصص التي تحفل بها الكتب. قلت لها أيضاً إننا سنتناول الطعام جالستين إلى مائدة خشبية طويلة في النــزل. وبأن هناك مدفأة عتيقة الطراز في فجوة الجدار، وأن أنواعاً من الحساء ومن الأطعمة ستطهى هناك؛ طعام حقيقي. وإننا سنأكل قدر استطاعتنا. لا. هذا

شيء غير واقعي. سنأكل بقدر ما نحتاج إليه من الخبز الحقيقي والجبن الأصلي والخضار الطازجة، وربما سنتناول في بعض الأحيان شيئاً من اللحم اللذيذ. ستفوح رائحة الأعشاب من مجموعة من الباقات المعلقة كي تجف. أصغت الفتاة لهذا الحديث كله، ولم أستطع أن أحوّل نظري عن وجهها حيث كانت ابتسامتها الحادة والصغيرة المرتسمة عليه تتناوب في الظهور، وحاجتها لوقايتي من قلة خبرتي ووضع التستر الذي كنت فيه. هناك شيء قوي لا تحس به من شأنه أن يقضي على أي دليـل إذا كانت تعـرف أنها تظهـر شيئاً مـن الضعـف. كان الجـوع، والعوز، والنقاء أقـوى كل الألاعيب، وأقوى من حاجتها لإثارة البهجة والطاعة العمياء. لقد أفقدت هذه الأمور وجهها تألقه، وأزالت عن عينيها وضعهما الدفاعي. باختصار، كانت الفتاة عبارة عن كتلة من المشاعر المتقدة بالحنين. لكن من أجل أي شيء؟ حسناً. هذا ليس أمراً سهلاً أبداً، إلاّ أنني استطعت تمييزه ومعرفته. كما أن حديثين عن المزرعة في تلال ويلز أسهما كثيراً في إبرازه وإضاءته: الخبز اللذيذ، والماء النقي من بئر عميقة، والخضار الطازجة، والحب، والعطف، والحماية الكبيرة التي توفرها الأسرة. هكذا تحدثنا عن المزرعة وعن مستقبلنا، مستقبلي ومستقبلها، حيث نسير معاً متشابكتي اليدين كما في الحكايات المروية على لسان الحيوانات. عندئذ ستبدأ الحياة، الحياة كما ينبغي أن تكون، وكما وُعِدَ بها - لكن من وعد بها؟ ومتى؟ وأين؟ - لكل إنسان على وجه الأرض.

* * *

وصل هذا الزمن الرومانسي إلى نهايته فجأة بعد أن استغرق أياماً قليلة. في الحقيقة، وصل إلى نهايته سريعاً. ففي عصر يوم دافئ ألقيت نظرة إلى الخارج، وشاهدت تحت الأشجار الشامخة فوق الرصيف المقابل نحو ستين شاباً، وأدركت أنهم مجموعة من المسافرين في

طريقهم عبر المدينة. ولم يكن مثل هذا الإدراك سهلاً دوماً ما لم يكن العدد بمثل هذا الحجم. فإذا رأيت شخصين أو ثلاثة أو أربعة وقد انفصلوا عن الآخرين، فقد تظن أنهم من التلاميذ الذين لا نزال نراهم في المدينة على الرغم من أنه لم يعد هناك عدد كبير منهم. أو ربما هم من أبناء وبنات أشخاص عاديين. أما إذا كانوا يسيرون جماعات كهذه الجماعة، فالأمر لا يحتمل أي خطأ. لماذا؟ لا؛ ليس لأن مثل هذا الحشد من الشبّان قد لا يعني شيئاً في مثل هذه الأيام، فلقد تخلى هؤلاء عن فرديتهم. تلك هي القضية. تخلوا عن القرار الفردي والمسؤولية الفردية. وهذا يتضح بمئة طريقة؛ أقلها رد فعل المرء الغريزي عندما يواجههم. فهذا أمر يثير الوجل لأن المرء يدرك أن الحكم أو القرار سيكونان بشكل جماعي إذا ما حدثت مثل هذه المواجهة. فهم لا يستطيعون تحمل بقائهم منفردين فترة طويلة. إذاً الحشد يمثل موطنهم والمكان الذي يحققون فيه ذواتهم. إنهم يشبهون الكلاب التي تحتشد في موقف ما أو مكان مهجور. أما الكلب الصغير اللطيف الموجود هنا فهو ملك صاحبته التي كانت تسريحة شعرها الأنيقة تحميها من مظهر الخوف الذي يبدو عليه والذي يظهر جلده من بين خصلات شعره، غير أن صاحبته غطته بغطاء صوفي أحمر حاكته في البيت؛ الكلب الأفغاني الكبير الذي يسير أربعين ميلاً دون أن يحس بالتعب هو الآن سجين البيت الصغير والحديقة الصغيرة؛ المونغريل، ذلك الحيوان الهجين الذي ينحدر من أنواع تميّزت بقدرتها على البقاء؛ الكلب السّبنيلي وهو كلب صيد بطبيعته، وكل هذه المجموعة من الكلاب العزيزة عند كل أسرة: توغو، وبونزو، وفلاف، ووولف والتي بعد أن شمّ أحدها عجز الآخر، شكلت صفاً حسب أسبقيها، وانطلقت مجتمعة أو منفردة... إن هذا الوصف ينطبق على أي مجموعة من البشر، بغضّ النظر عن العمر والمكان فيما لو لم تحدد أدوارهم مسبقاً في مؤسسة ما. كانت عصابات الأطفال الصغار تتقدّم في الطريق لترشد الأكبر سناً منهم الذين سرعان

ما شرعوا بتقليدهم. كانت مجموعة الصغار تحتوي دوماً تقريباً على أشخاص أكبر سناً، بل على أسر أيضاً، إلاّ أن صفة الصغار تبقى ملتصقة بهم. هكذا تحدث الناس عن القطعان المتحركة. إن كلمة قطعان دقيقة إلى أن وصلت الأمور إلى النهاية عندما بدأ الناس جميعاً بالتقدم إلى أمام.

في عصر هذا اليوم من أيام شهر أيلول، والطقس لا يزال دافئاً، والأشجار ثقيلة وكثيفة، والشمس في أوج احتفالها، استقرت الجماعة فوق الرصيف، وأضرمت ناراً عظيمة، ورتبت أغراضها في كومة، وأقامت عليها الحراسة المتمثلة بشابين مسلحين بعصيّ ثقيلة. وسرعان ما أصبحت المنطقة خالية كما هو مألوف في مثل هذه الحالة. فالشرطة توارت عن الأنظار، والسلطات لا تستطيع معالجة الموقف، بل هي لا تريد أن تفعل ذلك، وكانت سعيدة لأنها تحررت من هذه العصابات التي كانت بصدد نقل المشكلات التي أثارتها إلى مكان آخر. وأُقفلت جميع نوافذ الطوابق الأرضية في المباني المنتشرة على مسافة عدة أميال من تلك المنطقة، وأسدلت الستائر. إلاّ أنه كان في المستطاع رؤية الوجوه المحتشدة أمام النوافذ العليا من المباني المحيطة بنا. وقف الشبان حول النار جماعات، وطوق بعضهم بعضاً بينما عزفت إحدى الفتيات على آلة الغيتار. كانت رائحة اللحم المشوي قوية، ولم يرغب أي واحد بالتفكير في ذلك. فكّرت إن كان هوغو في مأمن من كل ذلك. صحيح أنني لم أقع بعد في هوى هذا الحيوان إلاّ أنني قلقت بسبب إميلي. ثم أدركت أنها غير موجودة في غرفة الجلوس أو في المطبخ. طرقت باب غرفتها ثم فتحته. فوجدت الأغطية التي اتخذت منها ملاذاً لها من العالم الخارجي لكنها لم تكن موجودة. لم يكن هوغو موجوداً هو الآخر. تذكّرت أن ثمة فتاة شابة تشبه إميلي ترتدي بنطالاً من الجينـــز ضيقاً وقميصاً وردياً بين حشود الشبان. فوجدت أنها إميلي حقاً، فبدأت بمراقبتها من مكاني أمام النافذة. كانت تقف بالقرب من النار وهي

تضحك، وفي يدها زجاجة. إنها واحدة من العصابة، من الحشد، من الفريق، من الجماعة. كان الحيوان الأصفر يقف فزعاً بالقرب من قدميها: كان قد توارى وراء ضغط هذا الحشد. ولاحظت أن إميلي تصرخ وتجادل. ثم تراجعت ويدها فوق رأس هوغو، وانسلت خفية عن الحشد، ثم التفتت، وأسرعت تعدو بينما الحيوان يثب قربها: إن مشاهدته على هذا النحو ولو للحظة واحدة تذكّرنا بألم بقوته وطاقته ومقدرته التي ضعفت الآن بسبب وجوده داخل غرف حدَّت من حركاته وحياته. وتناهى إلى سمعي صوت ضحكة مدوية صدرت عن جموع المحتشدين. كان هذا دليلاً على أنهم كانوا يتعمدون إثارتها بشأن هوغو. في الواقع، إنهم ما كانوا يريدون قتل الحيوان، بل تظاهروا بإمكانيتهم على القيام بذلك. وقد صدقتهم. هذا يعني أنهم لم ينظروا إليها بوصفها واحدة منهم، حتى ولو مستقبلاً. لكن بالرغم من ذلك كان هناك أطفال صغار في مثل سنها. ولم تتحداهم بوصفها طفلة، بل بوصفها فتاة شابة تقف على قدم المساواة معهم. لا بدّ أن ذلك هو السبب وأنهم لم يقبلوا بذلك. مرَّ هذا كله في ذهني وأنا أحاول أن أجد له تفسيراً عقلياً. في هذه الأثناء دخلت إميلي غرفة الجلوس شاحبة، ومرتجفة، وفزعة. فجلست على الأرض، وطوقت بذراعها هوغو، ثم قرّبته منها، وأخذت تهزّه قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف وهي تتحدث، أو تنشد، أو تبكي... "آه. لا، لا، لا يا عزيزي هوغو. ما كنت لأسمح لهم. أبداً. أبداً. لا تخف..." لقد كان الحيوان يرتعش مثلها تماماً. فوضع رأسه فوق كتفها كما يفعلان في مثل هذه الأوقات؛ دليلاً على الطمأنينة المشتركة التي يحسان بها.

لكن عندما لاحظتني، واكتشفت أنني أدركت أن مجموعة الشبان البالغين قد رفضوها بعد أن تحدتهم احمرّ وجهها وغضبت. فدفعت هوغو جانباً، وانتصبت واقفة وهي تحاول أن تسيطر على ملامح وجهها. فابتسمت وضحكت وقالت:

– إنهم مجموعة من الشبان اللطيفين ولا أعرف سبباً يجعل الناس

ينعتونهم بأقبح الصفات.

ثم اتجهت نحو النافذة لمراقبتهم وهم يرفعون الزجاجات إلى أفواههم، ويوزعون الطعام فيما بينهم. هدأت إميلي؛ ربما كانت لا تزال خائفة، وتفكّر في السبب الذي جعلها تخرج إليهم. مع هذا، فإن كلاً منا نحن الذين نراقبهم بالمئات من نوافذنا يعرف أننا كنا نتفحّص الاحتمالات القائمة أمامنا، وأننا نتفحص مستقبلنا.

فجأة دفعت إميلي الحيوان هوغو إلى غرفتها دون أن تلقي عليّ نظرة، ثم أغلقت الباب وراءه، واندفعت خارج الشقة، وتوجهت إلى الشارع مرة أخرى. في هذه الأثناء كان الضوء المنبعث من النيران قد كوّن بقعة شديدة اللمعان تحت الأشجار المسفوعة. كانت جميع النوافذ السفلية معتمة إلاّ أنها عكست وهج النيران، أو الضوء الخافت الذي كان ينبعث من القمر المطل من بين بنايتين سكنيتين. كانت النوافذ العليا تحتشد برؤوس أطلت على درجات متفاوتة من الضياء. كان بعض المواطنين العاديين قد انضموا قبل قليل إلى الشبان في محاولة فضولية لمعرفة المكان الذي أتوا منه والجهة التي يقصدونها، ولم تكن إميلي هي الوحيدة في ذلك، ولا بدّ لي من الإقرار أنني زرت أكثر من مرة أحد المعسكرات لقضاء إحدى الأمسيات. لم يكن ذلك في هذا الجزء من المدينة: لا. فأنا أخشى جيراني، وأخشى إدانتهم، لكنني رأيت بعض الوجوه التي أعرفها من بين جيراني. فنحن نتصرّف جميعاً بالأسلوب نفسه وننطلق من نفس الحسابات.

لم أكن أخشى ما قد يحدث لإميلي إذا ما تصرّفت تصرفاً عقلانياً. أما إذا كان سلوكها خلاف ذلك فإنني كنت قد عقدت العزم على عبور الشارع وإنقاذها. واصلت مراقبتي طيلة الليل، وكنت في بعض الأحيان أتمكن من مشاهدتها، وفي أحيان أخرى كانت تغيب عن عينيّ. في جميع الأحوال كانت ترافق مجموعة من الصبيان أصغر سناً من البقية. وكانت الفتاة الوحيدة، وتصرّفت تصرفاً طائشاً، وتحدّتهم في محاولة

لإثبات ذاتها. لكنهم كانوا جميعاً ثملين. كانت تمثل أحد عناصر نشوتهم.

كان هناك بعض الأشخاص الذين افترشوا الرصيف، وغطوا في نوم عميق بعد أن وضعوا أيديهم أو قطعة من ملابسهم تحت رؤوسهم. كانوا يرقدون دون أن يعيروا صخب الآخرين أي أهمية. كان النوم على هذا النحو اللامبالي، والثقة من أن الآخرين لن يدوسوا عليهم بأقدامهم، وأنهم سيكونون في ظل الحماية دليلاً على صلابة العود التي اكتسبها هؤلاء الفتيان والثقة التي كان يوليها بعضهم لبعض. لكن النوم على نحو جماعي لم يكن مخططاً له. فالنار بدأت تذوي وسرعان ما سيحل الصباح. لاحظت أن الجميع بدأوا يتهيأون للرحيل. قضيت نصف ساعة مريرة وأنا أفكّر: هل ستذهب إميلي معهم؟ بعد عناق حار، وبعد أن ركضت إميلي معهم فوق الرصيف مسافة قصيرة عادت مرة أخرى إلى الوراء. أعلم أنها لم تعد بسببي، بل بسبب هوغو. عندما دخلت الغرفة، كان وجهها لا يزال متألقاً بنور الممر، ذلك الوجه الحزين المستوحد ليس وجه طفل أبداً. في الوقت الذي دخلت فيه غرفة الجلوس كان القناع لا يزال يغلف وجهها فعلّقت قائلة:

- أمسية لطيفة. قولي ما تشائين.

لم أقل شيئاً لم أكن أريد أن أقول شيئاً الآن. فأضافت وهي تتثاءب على نحو مبالغ فيه:

- أعتقد أنهم قوم ظرفاء جداً فيما عدا تناولهم لحم البشر.

- وهل يأكلون لحم البشر؟

- حسناً. أنا لم أسأل هذا السؤال. لكنني أتوقع مثل هذا الشيء. ألا تتوقعين هذا أنت؟

فتحت باب غرفتها الصغيرة فخرج هوغو وعيناه الخضراوان ثابتتان على وجهها. فقالت له:

- لا بأس. لن أفعل شيئاً لا تفعله أنت. هذا وعد مني.

بعد أن علّقت بهذه العبارة، وأطلقت ضحكة صغيرة قوية قالت:

– في وسعي أن أفعل ما هو أسوأ من الذهاب معهم في يوم من الأيام. هذا رأيي. على الأقل هم يقضون وقتاً سعيداً.

حسناً. لقد فضلت تحية المساء تلك على غيرها التي كنا نتبادلها عندما تحين الساعة العاشرة فتصيح: "آه. حان وقت نومي. سأذهب الآن". ثم تبقى قبلة منبعثة عن التحسس بالواجب معلقة بيننا، تبقى شبحاً، وتشبه القفاز الأبيض الخفي الذي يرتديه الأستاذ وايت.

في أثناء ذلك الوقت المبكر من فصل الخريف، دخلت عصابات جديدة منطقتنا يوماً إثر يوم. ورافقت إميلي هذه العصابات دون أن تسألني إن كان في وسعها الانضمام إليها. لم أشأ منعها لأنني أدرك أنها لن تطيع أوامري؛ إذ لا سلطة لي عليها. فهي ليست ابنتي. حاولنا تفادي المواجهة. فكانت تخرج إلى الشارع كلما احتشد الرصيف المقابل بالفتيان، وأضرمت النيران. في مناسبتين اثنتين تناولت كثيراً من الشراب حتى ثملت. كما أنها عادت ذات مرة ممزقة القميص وآثار عضة بارزة على عنقها، وكانت تقول: "أعتقد أنك تظنين أنني فقدت عذريتي. حسناً. لم يحصل هذا. على الرغم من أن ذلك كان على وشك أن يحصل. أؤكد لك هذا". ثم كانت تضيف عبارتها المميزة قائلة: "إذا كان ذلك يهم، ولو أنني أشك في ذلك". وعندئذ قلت لها: "بل إنه يهم". فجادلتني: "آه. حقاً؟ حسناً. أنت متفائلة كما أظن. يبدو هذا عليك. ما رأيك أنت يا هوغو؟"

وصل تعاقب العصابات المتجولة إلى نهاية المطاف، وتحول لون الأرصفة على امتداد الشارع إلى لون أسود قاتم، وانتشرت عليها الصدوع بفعل النيران التي أُضرمت فوقها ليالٍ عديدة. وتكسرت الأشجار، ويبست أوراقها، وانتشرت العظام وأجزاء من الزجاج المحطم في كل مكان، وأصبحت الأرض المخصصة للنفايات في

الخلف قذرة جداً. هنا ظهر رجال الشرطة، وانهمكوا في تسجيل الملاحظات، وإجراء المقابلات مع الأشخاص. وجاء الزبالون، وعادت الأرصفة إلى وضعها الطبيعي. عاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي لفترة وجيزة، وعادت الأضواء إلى النوافذ الكائنة في الطوابق الأرضية.

في ذلك الوقت تماماً، أدركت أن الأحداث التي جرت فوق الأرصفة وما جرى بيني وبين إميلي قد تكون لها علاقة بما شاهدته في أثناء زياراتي وراء الجدار.

في أثناء تجوالي بين الجدران البيضاء الهادئة والمرتفعة والمؤقتة مثل جدران خشبة المسرح، ومن خلال معرفتي أن الساكن الحقيقي موجود هنا دوماً وراء الجدار التالي، ويمكن ملاحظته إذا فُتح الباب التالي أو الباب الذي يليه، وصلت إلى غرفة طويلة ذات سقف داكن كانت يوماً ما غرفة جميلة أعرفها (ولكن من أين؟) كانت هذه الغرفة في حالة فوضى رهيبة أصابتني بالغثيان وملأتني بالرعب. بدا المكان كأن المتوحشين قد دخلوا إليه؛ وكأن الجنود قد عسكروا فيه. فالكراسي والأرائك مشقوقة عمداً بالحراب أو السكاكين، وبرزت منها الحشوة الداخلية. أما الستائر فقد خلعت من قضبانها النحاسية وتركت في أكوام. لعل الغرفة استخدمت لتكون دكاناً لقصاب: فقد انتشر فيها الريش، والدم، ونتف من فضلات الذبيحة. بدأتُ عملية التنظيف، وبذلتُ جهوداً جبارة مستخدمة الماء الدّافئ في مسح الغرفة وترتيب الأشياء فيها. فتحت النوافذ العلوية المطلة على حديقة من طراز القرن الثامن عشر تنمو فيها النباتات في مربعات تنتشر بين الأسيجة المنخفضة، دخلت الشمس والريح الغرفة فنظفتاها. كنت وحيدة طيلة ذلك الوقت. لكنني على الرغم من ذلك لم أشعر بأنني وحيدة. ثم انتهى كل شيء. عادت الأرائك والكراسي القديمة إلى وضعها الطبيعي نظيفة، أما الستائر فقد تركتها للغسل. تجولت في الغرفة وقتاً طويلاً إذ كانت غرفة كبيرة

تسمح بالتجوال. وقفت قرب النوافذ، وشاهدت أزهار الخطمي والورود الدمشقية، وشممت رائحة الخزامى وأنواع أخرى من الورود، وأدركت الذكريات التي أخذت تهاجمني. كانت إحدى هذه الذكريات من حياتي الحقيقية؛ إذ إنها كانت تجذبني بقوة مشيرة إلى أن الأرصفة التي اشتعلت فوقها النيران والأشجار التي احترقت إنما هي جزء من مادة هذه الغرفة. لكن هناك قوة جذب الحنين إلى الغرفة ذاتها، إلى الحياة التي كانت موجودة فيها والتي ستستمرّ في اللحظة التي أغادرها، وإلى الحديقة، التي كنت أعرف كل زواياها معرفة وثيقة. وفوق هذا كله، الحنين إلى الساكن الموجود على مقربة من المكان والذي ربما كان يراقبني والذي سيدخل الغرفة إثر خروجي منها، ويومئ برأسه امتناناً لما بذلته من جهد في التنظيف ومن ثم قد يخرج للتنـــزه في الحديقة.

كان الشيء الآخر الذي وجدته يختلف اختلافاً كبيراً ومن جميع الأوجه. إنّه أول تجربة *ذاتية* لي، ويتمثل في الكلمة التي أطلقتها عليها منذ البداية. لم يكن ثمة التباس في الجو أبداً مهما كان المشهد الذي أراه لدى دخولي. أي بين الإحساس بالمشاهد، أو النسيج، أو الحالة التي لم تكن *ذاتية* مثل الغرفة الطويلة الهادئة التي كانت تنتشر فيها الفوضى على سبيل المثال، أو أي من الأحداث مهما كانت صعبة أو متعبة أو مثبطة للهمم، التي رأيتها في هذا الموقف أو ذاك؛ بين هذه الأشياء والمشاهد *الذاتية* ثمة عالم قائم؛ عالم بوجهين: *ذاتي* – رغم أنه ليس لي بالضرورة – وعالم آخر موجود في أماكن مختلفة ومعزولة تماماً. كان العالم *الذاتي* متميزاً بالجو الذي هو سجنه، وبالعواطف التي هي مخلوقاته. أما المشاهد غير الذاتية فقد تسبب الإحباط، أو المشكلات التي ينبغي حلها مثل إصلاح شأن الجدران، وتنظيف الأثاث، وإعادة الأشياء إلى وضعها الطبيعي. لكن كان في ذلك الملكوت شيء من البريق، والحرية، والإحساس بوجود احتمال ما. نعم ذلك هو؛ الفضاء وإدراك احتمال الفعل البديل. في استطاعة المرء

أن يرفض تنظيف تلك الغرفة وذلك الجزء من الأرض. باستطاعة المرء أن يدخل غرفة أخرى مباشرة ويختار مشهداً آخر. أما الدخول في *الذاتي* فيعني الدخول إلى السجن حيث لا شيء يحدث إلاّ ما يراه المرء بنفسه، وحيث الهواء المحصور يقبض الأنفاس، وفوق كل هذا، فإن الزمن يصبح قانوناً محدداً وثابتاً وطويلاً... آه يا إلهي. إن الزمن يمضي ويمضي دقيقة دقيقة دون أن يكون هناك مهرب.

مرة أخرى كانت الغرفة عالية إلاّ أنها قريبة ومربعة الشكل وتفتقر إلى التناسق. كانت تحتوي على نوافذ عالية ثقيلة مغطاة بستائر من المخمل الأحمر الغامق، وكانت النار تشع من المدفأة ذات الحاجز القوي من أسلاك الوقاية. فوق هذا الحاجز، وضعت أغطية موائد سميكة وحفاضات أطفال ذات طراز قديم، وعدد كبير من القمصان الداخلية البيضاء، والفساتين القصيرة والطويلة، والجاكيتات، والجوارب الصغيرة. كانت هناك كسوة طفل مولود تفوح منها تلك الروائح القريبة من الاحتراق. وكان هناك أيضاً حصان خشبي، وكتب الألفباء، ومهد موشى بقماش الموسلين المطرز بورود زرقاء وخضراء... أحسست بالراحة التي تبعثها هذه الألوان. كان الأبيض طاغياً أيضاً. فالأقمشة بيضاء، والمهد أبيض، وكذلك الأغطية والبطانيات والملاءات والسلال. كانت الغرفة مطلية باللون الأبيض، وفيها ساعة صغيرة بيضاء ذات دقات ناعمة.

كانت طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها تجلس فوق سجادة بجانب المدفأة. كانت ترتدي ثوباً من المخمل الأزرق الغامق، ولها شعر أسود اللون مفروق على أحد الجانبين تُثبّت فيه شريط أبيض اللون، ولها عينان بندقيتان تلوح منهما نظرات جادة تتخذ وصفاً دفاعياً دوماً.

كان ثمة طفل رضيع في السرير ملفوف استعداداً لليل. وكانت تصدر عنه الضحكات الخافتة بينما لازمته ممرضة أو مربية لم يكن يبدو منها شيء سوى ظهر عريض بثياب بيضاء. كانت نظرة الطفلة

الصغيرة وهي تراقب المربية الحنون وقد انحنت فوق شقيقها كافية، بل معبرة تماماً. لكن ثمة أشياء أخرى. فقد دخل الغرفة شخص آخر طويل القامة، ضخم الجثة، قوي البنية. تبيّن أن هذا الشخص ليس سوى امرأة أخرى تضج بالحيوية، فانحنت بدورها فوق سرير الطفل، وبدأت المرأتان تداعبان الطفل الذي كان يستجيب لهما بحبور. واصلت الطفلة الصغيرة مراقبتها. كان كل شيء من حولها يتسم بالضخامة. فالغرفة ضخمة جداً، ودافئة، وعالية. والمرأتان طويلتان جداً، وقويتان، وكريهتان، والأثاث مروّع، والساعة التي تدور برفق وتخبر الجميع بما يجب عليهم أن يفعلوه تلقى الإقدام من كل فرد.

إن الدعوة لدخول مثل هذا المشهد تعني الولوج إلى عالم الطفل. فقد شاهدت المشهد مثلما يشاهده أي طفل. فهو مشهد ضخم لا سبيل إلى تغييره. ولكنني في الوقت نفسه أدركت أن هذا العالم صغير ولا سبيل إلى تغييره لأنه ضئيل الشأن وعديم الأهمية. هذا هو طغيان من لا شأن له ومن لا عقل له. المكان مغلق، ويفتقر إلى الهواء النقي، يخنق الدماغ، ويقضي على التنفس، وكل شيء فيه لا نهاية له. فهذا الزمن هو زمن الطفل، إذ لا يمكن للمرء ملاحظة نهاية اليوم أو بدايته الذي كانت تعلن عنه الساعة البيضاء. فكل يوم يشبه تسلق شيء ما، مثل كراسٍ صلبة، أو سرير يرتفع فوق هامة المرء. العقبات والتحديات لا يمكن التغلب عليها إلاّ بواسطة الأيدي الكبيرة التي تقبض وتجذب وتدفع؛ الأيدي التي تبدو رقيقة ولطيفة عندما نشاهدها وهي تربّت على الطفل الرضيع. كان الطفل يرتفع عالياً في الهواء محمولاً بين يدي الممرضة. كان يضحك. أرادت الأم أن تأخذ الطفل من الممرضة لكن الممرضة تشبثت به بقوة وقالت: "لا، لا. إنه طفلي. إنه طفلي". فقالت الأم الضخمة الطويلة جداً، والأطول من أي شيء موجود في الغرفة، والأطول من الممرضة الضخمة، والتي تكاد قامتها تصل السقف: "آه، لا أيتها الممرضة". ابتسمت، وأردفت بعد أن

أحكمت شفتيها: "آه لا. إنه طفلي أنا". فقالت الممرضة وهي تهدهد الطفل: "لا، إنه طفلي. طفلي الحبيب أما هذه الأخرى فهي طفلتك إميلي هي طفلتك يا سيدتي". ثم أدارت ظهرها إلى الأم على نحو يظهر استقلالها العاطفي، وأخذت تهدهد الطفل وتقبله. عندئذ ابتسمت الأم ابتسامة تختلف عن ابتسامتها السابقة، ولم تفهمها الطفلة الصغيرة التي وجدت نفسها قد جذبت من قبل أمها بخشونة وقالت لها: "لماذا لا تخلعين ثيابك؟ قلت لك اخلعي ثوبك". ثم تلت ذلك فوضى الاندفاع ومحاولة الطفلة الاحتفاظ بتوازنها وهي واقفة على قدميها بينما أخذت الأم تخلع عنها الثياب التي كانت ترتديها. فنــزعت عنها أولاً الثوب المخملي الأزرق الذي كانت تفخر به لأنه كان يناسبها، وقد وجدت الطفلة نفسها أمام أصوات مختلفة تأمرها بنــزعه إلاّ أن الثوب كان بعدة أزرار صغيرة داخل الذراع وأسفل الظهر. كان فتح كل زر يتطلب وقتاً طويلاً جداً مما جعل الطفلة تؤذي أصابعها. ثم جاء دور التنورة التي نُزعت عنها بسرعة بعد أن آذت ذقنها، كما نُزِع عنها جورباها الطويلان الأبيضان والواسعان اللذان نشرا رائحة طيبة في الهواء. لاحظت الأم ذلك وكشرت وقالت: "والآن هيا إلى سريرك". ثم جذبت رداء نوم أبيض اللون فوق رأس الطفلة.

زحفت إميلي إلى سريرها قرب النافذة متسلقة الحاجز الحديدي العالي؛ إذ كان السرير كبير الحجم. ثم رفعت جانباً من المخمل الأحمر الثقيل كي تنظر إلى النجوم. في الوقت نفسه، واصلت مراقبة المرأتين الضخمتين: الأم والممرضة وهما توليان عنايتهما للطفل. كان وجهها متعباً، وبدت وكأنها تفهم اللعبة كلها، بل توقعتها، وعاشتها لأنها كانت مرغمة على ذلك، وشعرت بذلك وكأن ثمة شيئاً ثقيلاً يخيم عليها: إنه الزمن الذي يتعيّن عليها اختراقه حتى تتحرر منه. ولم يستطع أي من هؤلاء الذين من حولها تمالك أنفسهم: فالأم الجبارة تثير الرعب في النفوس، والممرضة سيئة الطبع بسبب نمط حياتها، والطفل

الذي تكن له الحب الشديد زاد من عذابها وجعلها يائسة. لم تتمكن الطفلة منع نفسها هي الأخرى. لم تتمكن أبداً. وعندما قالت الأم بلهجتها الفظة: "ينبغي لك أن تضطجعي يا إميلي. هيا اذهبي ونامي". اضطجعت إميلي، وبدأت تراقب المرأتين وهما تأخذان الطفل إلى غرفة أخرى حيث تناهى إلى السمع صوت رجل، صوت الأب. بعد أن قالت لها المرأتان: "طابت ليلتك". نسيتا أخذ الطفلة إلى أبيها لتقول له: "طابت ليلتك". تقلبت في سريرها، وأصبح ظهرها باتجاه الغرفة البيضاء الدافئة. أرسل اللهب الأحمر حرارة قوية، وملأ الملابس البيضاء السميكة المعلقة فوق القضبان برائحة حادة. كما أخذت الظلال الحمراء تنتشر في الفجوات وراء حافات الستائر الحمراء مما جعلها تشعر بوخز الحرارة وهي راقدة تحت الأغطية الثقيلة. أمسكت بالشراريب المتدلية من الستائر، وجذبتها قريباً منها، واستمرّت في ذلك وهي مضطجعة.

كانت هذه الطفلة هي حقاً إميلي التي عهد إليّ أمر رعايتها. غير أنني لم أفهم ولبضعة أيام أنني كنت أراقب مشهداً من أيام طفولتها (لكن ذلك مستحيل طالما أن مثل تلك الطفلة لم تكن موجودة في تلك الأيام إذ كانت نسياً منسياً)، مشهداً من ذكرياتها أو من تاريخها الذي كوّنها. وفي ذات صباح، كنت أجلس معها، ودلتني حركة بدرت منها عن شيء كان ينبغي ملاحظته. واصلت النظر إلى ذلك الوجه الشاب الذي كان مزيجاً من وجه طفلة ووجه فتاة شابة، وتمكنت من رؤية ذاتها المنعزلة البالغة أربعة أعوام. إميلي. فكّرت إن كانت تتذكّر شيئاً عن ماضيها أو تجاربها التي كانت تسرع مثل شريط سينمائي يعرض وراء جدار غرفة الجلوس، والتي أصبحت في تلك اللحظة مثل شاشة شفافة بعد أن تسللت إليها حزمة من ضوء الشمس بينما احتفظ الطلاء الأبيض القريب من ورق الجدران المطرز بالورود بوجوده وثباته. كانت تلك اللحظة هي إحدى اللحظات التي يقترب فيها العالمان من بعضهما، والتي يصبح

فيها من السهل التذكر بأنه من الممكن جداً اختراقهما. جلست ونظرت إلى الجدار، وتخيلت أنني أسمع أصواتاً لم تكن حقاً جزءاً من *عالمي* أبداً. إنها أصوات منكي النار عند المدفأة وأقدام صغيرة تهرب وصوت طفل.

فكّرت إن كان ينبغي لي أن أقول شيئاً ما لإميلي أو أن أطرح عليها أي أسئلة. لكنني لم أجرؤ على ذلك. تلك هي الحقيقة. فقد كنت أخاف منها. كان الشيء الذي أخشاه هو عجزي معها.

كانت ترتدي بنطال الجينــز القديم والضيق جداً، وقميصاً وردياً صغيراً. فقلت لها:

- أعتقد أنك بحاجة إلى ملابس جديدة.

- لماذا؟ ألا تعتقدين أنني أبدو جميلة؟

قالت ذلك على نحو متألق. إلاّ أن بعض الفزع كان يبدو عليها. استجمعت رباطة جأشها، وتهيأت لمقاومة أي نقد يوجه إليها.

- مظهرك جميل حقاً. لكن ثيابك أصبحت ضيقة عليك.

- آه يا عزيزتي. لم أكن أتصور أنها سيئة إلى هذا الحدّ.

ثم ابتعدت عني، واضطجعت فوق الأريكة البنية الطويلة بينما جلس هوغو قربها. لم تكن تمصّ إبهامها، لكن بدا عليها وكأنها كانت تفعل ذلك.

هل ينبغي لي أن أصف موقفها نحوي؟ أمر صعب. فأنا لا أعتقد أنها شاهدتني كثيراً. فعندما جاء بها ذلك الرجل الذي لا أعرف عنه شيئاً إليّ، رأت فيّ امرأة عجوزاً حادة ودقيقة في التفاصيل. ولكن منذ ذلك الوقت، لا أعتقد أنها رأت فيّ ولو للحظة واحدة خلال كل تلك الأسابيع التي قضتها معي أكثر من امرأة عجوز ذات خصائص يتوقع المرء أن يجدها في شخص بمثل هذه السن. لم تكن لديها أي فكرة عن الرعب الذي أحسست به من أجلها أو القلق عليها أو ضرورة حمايتها.

لم تكن تعرف أن أمر رعايتها قد ملأ حياتي مثل قطعة من الإسفنج مشبعة بالماء. لكن هل أملك أي حق في الشكوى؟ ألم يكن شأني شأن جميع البالغين أتحدث فيما مضى عن *الشباب واليافعين والأطفال* وهلمَّ جرّا؟ ألم أزل كذلك إلاّ في الحالات التي أبذل فيها جهداً فأمتنع عن الحديث عن مثل هذه الشؤون؟ يضاف إلى ذلك، لا يوجد أمام الكبار إلاّ عذر واهٍ لدفع الفتيان بعيداً عنهم قائلين لهم: "أنا لا أفهم هذا" أو "لن أفهم هذا" لأن كل واحد منهم كان شاباً يوماً ما. فهل يتعين عليَّ أن أشعر بالخجل وأنا أكتب هذه الأشياء العادية، وفي الوقت الذي يستطيع فيه عدد قليل جداً من الأشخاص الكبار في السن والذين هم في أواسط العمر من بعث الحيوية والنشاط فيها بالممارسة، في الوقت الذي يستطيع فيه عدد قليل جداً من الناس التصريح بذكرياتهم؟ لقد كان الأشخاص كبار السن شباناً يوماً ما؛ أما الشبان فلم يكونوا كباراً أبداً. إن مثل هذه التعليقات واردة في آلاف المذكرات والكتب ذات المفاهيم الأخلاقية، والكتب العامة، والأمثال، وغيرها. فما هو الاختلاف الذي أظهرته؟ حسناً. أعتقد أنه ليس ثمة اختلاف كبير. لقد رأت إميلي امرأة عجوزاً رابطة الجأش تفتقر إلى الحيوية. لقد أفزعتها عندما كشفت لها عن ذلك الشيء الذي لا يمكن تخيله: الشيخوخة. لكنها كانت من ناحيتي أنا قريبة جداً مني؛ تماماً مثل ذكرياتي.

عندما ذهبت لتضطجع فوق الأريكة وظهرها إليَّ، كانت مقطّبة الحاجبين. كانت تستخدمني لتتأكد من دافعها للتقدم إلى الأمام بعيداً عن عالم الطفولة لتتجه إلى عالم الفتيات، لتصبح فتاة شابة ترتدي الملابس وتتصرّف وتتحدث وفق تلك الحالة تماماً.

كانت معاناتها عظيمة، وكذلك طريقة استخدامها لي، فقد كان ذلك مرهقاً ومتطرفاً. واستمرّ ذلك بضعة أسابيع بينما شكت من أنني أنتقد مظهرها، وأن الخطأ هو خطئي عندما ستجد نفسها مضطرة إلى إنفاق النقود على الملابس، وأنها كانت تحب أو لا تحب المظهر الذي كانت

تظهر به، وأنها لم ترغب في ارتداء أي شيء باستثناء السراويل، والقمصان، والكنزات طيلة حياتها، وأنها أرادت (أن ترتدي ثياباً لائقة أخيراً). لكن طالما أن جيلي قد صنع مثل هذه الفوضى في كل شيء فإن جيلها لم يجد أفضل مما يرتديه: وأن الناس في مثل سنها يقتنون مجلات أزياء قديمة وتراودهم أحلام الماضي الميت واللذيذ... إلخ.

لـــم تعـــد المسألة الآن أنها أخذت تكبر وأن جسدها أخذ ينمو: فقد أخـــذ وزنها يزداد، وصارت تقضي النهار كله مضطجعة فوق الأريكة ومعهـــا قطـــتها الصـــفراء التي تشبه الكلب أو الكلب الذي يشبه القطة. كانـــت تضطجع وتطوّقه بذراعها وتهدهده وتمسّد عليه، وتمصّ الحلوى وتتـــناول الخـــبز والمربى وتداعب الحيوان وتواصل أحلام يقظتها، أو تجلـــس قـــرب النافذة وتصدر تعليقاتها الصغيرة واللاذعة وهي تتناول الطعـــام، أو تزوّد نفسها بكميات من الخبز، والمربى، والكيك، والتفاح وتـــنظّم مشـــهداً فـــي وســـط الغرفة يتكوّن من صف الكتب والمجلات القديمـــة، ثـــم تضـــطجع علـــى بطنها بينما يتمدّد هوغو فوق فخذيها. وتواصل القراءة والحلم وتناول الطعام وطيلة الصباح، طيلة النهار، بل وتستمرّ عدة أيام في بعض الأحيان.

أثـــار تصـــرفها هذا حنقي. لكنني على الرغم من ذلك أستطيع أن أتذكّر أنني كنت أفعل الشيء نفسه.

فجـــأة كانت تقفز، وتذهب صوب المرآة وتصيح: "آه يا عزيزتي. سيزداد وزني وستفكّرين أنني أقبح مما ترينني الآن!" أو: "لن أتمكن من ارتـــداء ملابسي حتى عندما تسمحين لي بشراء بعض الملابس الجديدة. أنـــا أعـــرف أنـــك لا تريدين حقاً أن أحصل على ملابس جديدة. فأنت تقوليـــن هذا لا أكثر. تظنين أنني طائشة وقاسية الفؤاد بينما هناك أعداد كبيرة من الناس لا يستطيعون حتى تناول الطعام".

لم يكن في وسعي إلاّ أن أردّد أنني سأكون سعيدة لو اشترت

بعض الملابس لنفسها. ففي وسعها الذهاب إلى سوق الملابس المستعملة كما يفعل معظم الناس، أو في وسعها الذهاب إلى المحلات الجيدة حتى ولو مرة واحدة. لقد أصبح شراء الملابس أو الأغراض من تلك المحلات في ذلك الوقت دليلاً على مكانة الشخص. فالمحلات لم يعد يرتادها غير أفراد الطبقة المتنفّذة، أي أصحاب الكلمة، على حدّ تعبير معظم الناس. أنا أعرف أنها مولعة حقاً بفكرة الذهاب إلى أحد المحلات التي تبيع الملابس الجديدة. إلاّ أنها تجاهلت النقود التي تركتها لها في الدرج، وواصلت تناول الغداء واجترار الأحلام.

كنت أخرج غالباً لقضاء بعض المشاغل والاهتمامات ولتقصي الأخبار. ففي الوقت الذي كنت فيه أملك جهاز راديو مثل أي شخص آخر ولديّ اشتراك بإحدى الصحف، فإن شح الصحف جعل من الضروري اشتراك جماعات من الناس في شرائها، ومن ثم توزيعها فيما بينهم. بحثت، -أسوة بأي شخص- عن الأخبار؛ الأخبار الحقيقية، حيث الناس يتوافدون إلى الشوارع ويجلسون في المشارب والمقاهي. كان هؤلاء الناس يملأون المدينة فينتقلون من مكان إلى آخر، من مشرب إلى مقهى، ومن مشرب إلى المحلات التي لا تزال تبيع أجهزة التلفزيون. كانت هذه المجموعات من الناس مثل جهاز إضافي يتبرعم فوق أجهزة الأخبار الرسمية. كانت مجموعات جديدة أو أفراد مستقلون يتوافـدون طيلة الوقت إلى المشهد فيقفـون مصغين، ويقدّمـون ما لديهم من أخبار سمعوها وأصبحت عملة رائجة، إذ يتبادلون الأحاديث والإشاعات. تحركنا إلى أمام وتوقفنا. تحركنا مرة أخرى وتوقفنا، كأن الحركة نفسها تخفّف القلق الدائم الذي استحوذ علينا. كانت الأخبار الواردة على هذا النحو موضوعاً لحديث عام يستغرق أياماً، بل أسابيع قبل أن يصبح مادة رسمية تُذاع في نشرات الأخبار. من الطبيعي أن هذه المادة تصبح في الغالب غير دقيقة. لكن على كل حال، تفتقر كل الأخبار إلى الدقة. لقد حاول الناس استخلاص الحقائق من الإشاعات في

تنقلهم المستمر وبحثهم عن الأخبار والحصول على المعلومات. كانت ثمة حقائق دوماً في هذه الإشاعات. كنا نشعر أنه ينبغي علينا الحصول على هذه الحقائق الثمينة، بل كان ذلك واجبنا وحقنا. إنه يمنحنا الإحساس بأمان أكثر ويمنحنا هويتنا. أما إذا لم نحصل على ذلك، أو إذا لم نحصل على قدرٍ كافٍ منه، فإنه يعني حرماننا وإثارة قلقنا.

هكذا كنا ننظر إلى المسألة. أما الآن فأعتقد أن هناك شيئاً من الاختلاف: إن ما كنا نقوم به ليس سوى الحديث. كنا نتحدث تماماً مثل أولئك الناس الذين يسكنون الشقة فوقنا، ويقضون حياتهم في مؤتمرات لا تنتهي يتحدثون فيها عمّا حدث، وعمّا يجب أن يحدث، وعمّا يرغبون في أن يحدث. إلاّ أن ذلك لم يحدث أبداً. وكنا نطلق عليهم اسم: *المتحدثون*. وكنا نحن أيضاً نقضي ساعات من كل يوم في الحديث والإصغاء إلى الحديث.

لقد كنا نريد معرفة ما يحدث في الأراضي الواقعة إلى الشرق والشمال لأننا كنا نعلم أن ما يحدث هناك إنما سيؤثر فينا عاجلاً أم آجلاً. كان ينبغي علينا أن نعرف ما هي العصابات التي ستأتي إلينا أو التي قيل إنها ستأتي؛ تلك العصابات التي- كما ذكرت- لم تتكوّن كلها من *الفتيان* أو اليافعين الآن بل من أشخاص من كل الأعمار وكانت أشبه بالقبائل، وهي الوحدة الاجتماعية الجديدة؛ كان ينبغي علينا أن نعرف ما هي النواقص التي ستحدث أو المواد التي ستقل، وهل هناك ضاحية، قرّرت أن تتخلى تماماً عن استعمال الغاز والكهرباء والزيت واستخدام الشمعة بدلاً من ذلك؛ وإن كان قد عُثر على ركام جديد من النفايات، وإذا كان الأمر كذلك فهل يستطيع الناس الحصول على ما فيه من مواد غنية؛ وهل هناك محلات فيها مخابئ أو بطانيات قديمة أو ورود تستخدم في صنع شراب الفيتامينات، أو مواد بلاستيكية أعيد تصنيعها، أو مواد معدنية مثل المنخل وأواني الطبخ أو أي شيء آخر، أي شيء يمكن العثور عليه من عصر الغنى المنقرض.

لقد أصبحت أساليب الاستنباط والترقيع هذه ملازمة لحياتنا اليومية الاعتيادية ولرفاهياتنا وفضلاتنا وتخمتنا منذ مرحلة بعيدة، بل قبل وقت طويل من زمن البدء في كتابتي هذه. لقد كنا جميعاً خبراء في صنع أشياء كثيرة من أشياء قليلة حتى عندما كنا لا نزال نملك الكثير، وعندما كنا لا نزال خاضعين لسطوة الإعلانات الاستهلاكية التي تدعو إلى الصرف والاستهلاك والرمي.

في بعض الأوقات كنت أترك إميلي وأنا في رعب من أن شيئاً ما قــد يحــدث لها في أثناء غيابي عندما أذهب بعيداً خارج المدينة لزيارة القرى أو المزارع أو المدن الأخرى. كانت مثل هذه الزيارات تستغرق يوميــن أو ثلاثــة وذلــك لأن القطارات أو الحافلات لا يمكن الاعتماد علــيها؛ بينما كانت السيارات مخصصة للمسؤولين الذين كانوا يترددون فــي إيصــال الــناس إلــى وجهاتهم بسبب الخوف الذي كان يحسّ به المســؤولون من عامة الناس. هكذا كنت أسير أسوة ببقية الناس بعد أن اكتشفت فوائد القدمين.

ذات يوم عدت إلى الشقة وإلى إميلي ومعي عدد من الملابس المصنوعة من جلد الأغنام. كانت معي أشياء أخرى وضعتها في الخزانة، وفي أماكن خفية مع مواد أخرى قد أحتاج إليها مستقبلاً وفي أوقات الطوارئ التي لم تراود مخيلتي إلاّ قليلاً. كانت الملابس المصنوعة من جلد الأغنام هي المهمة، إذ جعلت إميلي على أعتاب مرحلة جديدة من تطورها. ففي البداية تجاهلت أمرها، ثم وجدتها بعد ذلك تقف أمام مرآة طويلة في الردهة وهي تحاول أن تضعها على جسدها. كانت تريد أن تضفي على نفسها صفة أميرة متوحشة. إلاّ أنها عادت إلى مكانها فوق الأريكة، ومع هوغو، عادت إلى أحلام اليقظة التي كانت تأخذها بعيداً عن الظروف التي كنا نمر بها، وذلك بعد أن علمت أنني قد لاحظتها وأنني كنت مسرورة. لكنني بالرغم من ذلك، أؤمن أنها كانت مأخوذة بمسألة البقاء على قيد الحياة، وكل ما

تنطوي عليه من إمكانيات وحيل وسبل لتحقيق ذلك. أتذكّر أنها في ذلك الوقت أبدت اهتماماً بصنع طبق من الفطائر الدائرية والمرق مستخدمة بعض البصل العتيق والبطاطا الذابلة والأعشاب، ومقدمة كل ذلك الطعام بحركة رشيقة تشبه حركة رئيس الطباخين. كانت إميلي تحب الأسواق التي تستطيع فيها البحث عن أشياء لم أكلّف نفسي عناء البحث عنها. كانت تجد متعة فائقة في إضرام النار لتسخن الماء لأغراض الغسيل والطبخ. لقد وجدت في هذا العمل ما يثير إزعاجي ولم أستطع منع نفسي من مقارنته ببساطة الماضي وفعاليته. ولامتني بسبب استعدادي لاستعمال ما لديّ من مخزون الخشب، وأصرّت على الذهاب إلى خارج الشقة وجلب بعض الألواح من بعض المباني المهجورة. ثم بدأت تكسرها مستخدمة في ذلك الفأس بمهارة، وعلى السجادة التي كستها ببساط قديم أتت به من مخازن قديمة. نعم. كانت بارعة جداً مما يعطي الانطباع عن تجاربها قبل مجيئها إليّ. كانت تعلم أنني أراقبها وأستخلص النتائج عنها، مما جعلها تتجه إلى الأريكة وذلك لأن حاجتها إلى السرية وحاجتها إلى أن تكون مستعصية على الفهم والاكتشاف كانت أقوى من أي شيء آخر الآن. شعرت بالراحة عندما اكتشفت براعتها وتمكنها، كما أن العبء الكبير الذي حملته معي بسبب خشيتي على مستقبلها قد خفّ كثيراً. كيف تستطيع هذه الطفلة الكئيبة والحالمة والشاردة والمنهمكة في ذاتها وأهوائها وماضيها أن تنجو من كل ما نريد نحن أن ننجو منه؟ وبدأت أدرك قتامة الهاجس الذي انتابني، وكيف أنني بدأت أراقبها وأعاني بسببها؛ وبدأت أدرك حدة قلقي عندما كانت تخرج إلى المباني المهجورة ومناطق النفايات. كانت تصيح بغضب: "لماذا تظنين أنني لا أقدر على الاهتمام بنفسي؟" إلاّ أنها كانت سرعان ما تبتسم وتحاول إخفاء غضبها لأنها ترعرعت على إثارة البهجة. لذا كان لا بدّ من أن تخفي قلقها وعواطفها الحقيقية وتدفنها، بينما كان تظاهرها يثير الغضب

والعبوس. أما التمثيل الضروري في فترة المراهقة فكان بادياً طيلة الوقت.

مما يبعث على امتناني أن هوغو موجود هنا. فهو ليس حيواناً (كدت أقول شخصاً) يصعب وجوده معي في البيت. فهو لم يظهر عليه أنه ينام كثيراً: إذ كان يظلّ مستيقظاً وأعتقد أنه كان ينظر إلى وجوده وفق هذا المنظار؛ إذ يجب عليه أن يهتم بإميلي التي كان يفضل أن تطعمه هي بنفسها. وكان من شأنه أن يتناول طعامه إذا ما وضعته له فوق الأرض. لقد كان يرغب في أن يكون صديقها وحبها الوحيد. إلاّ أنه على الرغم من ذلك كان يجاملني؛ وأخشى أن تكون هذه الكلمة هي الوحيدة التي أجدها لوصف علاقته معي. لقد كان يتطلع دوماً إلى النــزهة خارج الشقة في الأمسيات، والسلسلة الثقيلة تطوق رقبته. إلاّ أنه كان يصاب بخيبة الأمل إذا لم تتمكن إميلي من أخذه، فيخرج عندئذ معي مضطراً. كان يتناول الأطعمة الكريهة التي يبيعونها على أنها للكلاب. لكنه كان يفضل أن يتناول بقايا الطعام الذي نتركه في أطباقنا وكان هذا ظاهراً عليه.

لم يكن هناك طعام كثير ليبقى في الأطباق. فقد كانت إميلي تأكل كثيراً، واعتادت الآن أن ترتدي قمصانها الصغيرة فوق سراويلها الضيقة جداً التي تكاد تتمزق فوق جسدها. كانت تقف مفكرة أمام المرآة وهي تطبق فكيها على قطعة من الحلوى أو من الخبز. لم أقل شيئاً. لقد تعوّدت ألاّ أقول شيئاً حتى إذا ما حدثتني قائلة: "يناسبني أن أسمن. ألا تظنين ذلك؟" أو "سآكل على نحو أحسن عندما نعدّ الطعام للوليمة". ولكن مهما قالت، ومهما كان نوع مزاحها، فإنها كانت تواصل الأكل. كانت تضطجع على الأرض، ويدها تمتد على نحو آلي إلى قطع الخبز والكيك ومزيج البطاطا والفواكه لتضعها في فمها، بينما تتابع عيناها الأسطر المطبوعة في كتاب قديم اختارت أن تقرأه، ساعة بعد ساعة، ويوماً إثر يوم. في بعض الأحيان كانت تثب من مكانها لتناول بعض

الشراب فتعرض عليّ قدحاً، ولكنها كانت تتساني بعد ذلك. كان فمها دائم الحركة، فهي إمّا تمضغ اللبان أو تتذوق شيئاً ما وهي منهمكة مع نفسها بحيث لا يبدو منها سوى الفم، وكل ما عدا ذلك يخضع له. كانت الكلمات التي تتلقاها بعينيها تبدو شكلاً آخر من أشكال تناول الطعام، بينما كانت أحلام يقظتها استهلاكاً مادياً يساعد في نفخها مثلما يفعل الطعام.

ثم فجأة انقلب كل شيء إلى عكس ما كان عليه تماماً. في الواقع ذلك لم يبدُ مفاجئاً في ذلك الوقت. لكن التأمل في ما حدث الآن يجعل كل شيء يبدو واضحاً.

فقد اعتاد بعض الشبان الساكنين في بنايتنا السكنية التسكع على الرصيف المقابل، وقطعة الأرض الخاصة بالنفايات، وتحت الأشجار المسفوعة. كان يجمع هؤلاء الشبان المجد الضائع والمغامرة؛ وذكريات الزمن الذي كانت فيه القبائل المهاجرة تضرم النيران، وتحتفل في هذا المكان. كانوا يشيرون إلى الأجزاء المسودّة من الرصيف، ويعيدون سرد أجزاء من الملحمة. كان عدد الشبان في البداية قليلاً: اثنان، ثلاثة، ستة ثم... أخذت إميلي تراقبهم بعد أن نسيت أحلام يقظتها. ولم تكن تعابير وجهها تدل على شيء سوى احتقار هؤلاء الشبان. أتذكّر أنني شعرت بالأسى على هؤلاء الشبان المراهقين الخشنين الذين كانوا يتحرقون إلى شخص ينظر إليهم أو يلاحظ تصرفاتهم. كانوا بائسين يفتقرون إلى الجاذبية بأجسادهم المترهلة تلك. شعرت بالشفقة على الفتاة البدينة وهي تنظر خارج النافذة؛ تلك الأميرة المتنكرة. كنت أعجب أن فترة وجيزة من الزمن أو بضع سنوات تحول الشخص من مظهر زري إلى مظهر رائع. لكنني كنت مخطئة. فالزمن يجري سريعاً بحيث انتفت معه الحاجة إلى السنوات... ذات أمسية، خرجت إميلي تمشي الهوينى، ووقفت أمام البناية، وفي عينيها نظرة سخرية بينما كان جسدها في وضع

يغوي الفتيان. غير أن هؤلاء تجاهلوا أمرها، ثم علّقوا ببضع كلمات تخص قوامها، فعادت إلى الشقة، وجلست على الأريكة وهي تفكّر بضع ساعات، ثم توقفت عن الأكل.

فقدت إميلي من وزنها بسرعة. وأصبحت تعيش على الشاي ومستخلصات الخميرة. شرعت الآن أراقب الأمور وهي تجري بعكس السابق، إذ أخذ قوامها يبدو واضحاً بينما ذابت طبقات الشحم من حوله.

بدأت أعترض: لا بدّ لك أن تأكلي شيئاً ما. لا بدّ لك من نهج خاص للحمية. إلاّ أنها لم تصغِ إليّ. فقد كنت بعيدة عن حاجتها في جعل نفسها جديرة بالأبطال المتسكعين فوق الرصيف؛ الذين ازداد عددهم الآن. وأصبح النهار طويلاً وأخذ الربيع يَشفي الأشجار المجروحة.

كنا نراقب ولادة عصابة أو شلّة أو قبيلة على الرغم من أنني لم أكن أدرك ذلك. مما يسعدني أن أقول الآن إنني كنت أدرك العمليات التي كانت تجري أمامي. عندما أحكم على نفسي الآن، فإنني أعتقد أنني كنت عمياء: إذاً كيف تسير الأمور من غير التقليد الذي تغذيه الرغبة في أن نكون مثل غيرنا؟ إن جميع العمليات التي تجري في المجتمع ترتكز على ذلك وكذلك هي الحال بالنسبة إلى التطور الفردي. لسبب ما، كان هذا مثل شيء يبدو أننا كنا نتآمر على تجاهله أو عدم ذكره حتى عندما يشترك فيه أكثر الناس عناداً. هناك نوع من المؤامرة في الاعتقاد أن الناس – أطفال وبالغون وكل واحد – ينمون من خلال اكتساب عادات غير متصلة، وأجزاء منفصلة من المعرفة؛ مثل اختيار الأشياء من على النضد: "نعم. سآخذ ذلك". أو "لا، لا أريد ذلك!" غير أن الناس في الحقيقة يتطورون نحو الأحسن أو نحو الأسوأ بتقبلهم الناس الآخرين، والأجواء، والأحداث، والأمكنة. إنهم يتطورون بالإعجاب. وغالباً ما يكون ذلك لاشعورياً.

كان في وسعي أن أرى بعيني وعلى الرصيف، ولأسابيع أو أشهر نمــو وحــدة المجــتمع الجديدة، وازدهارها تماماً كما يحدث في كتاب منهجي أو في المختبر. غير أنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل. إذ كانت إميلــي قــد اســتحوذت عليّ، وأصبحت اهتمامي الأول. استمرّت هذه العملــيات، ولاحظتها بعينيّ: كانت التفاصيل واضحة جداً. راقبت تأثير هــذه الحادثة أو تلك على إميلي. عندما أنظر الآن إلى الوراء وأتذكّر، أدرك الفرصة المؤاتية التي فاتتني.

لم تكن إميلي الفتاة الشابة الوحيدة التي تريد أن تأخذ موقعها كامرأة بين أقرانها. على سبيل المثال هناك جانيت وايت. فقبل أن يمنعها والداها، كانت جانيت تمر كثيراً أمام الفتيان الساخرين الواقفين خارج نوافذنا. مرّت فترات كان فيها الفتيان والفتيات على جانبي الطريق يتخذون مواقف عدائية، ويتبادلون الشتائم وعبارات التوبيخ.

لوحــظ بعد ذلك أن سخريتهم قلّت، وأخذوا يقفون بصمت غالباً أو يــتحدثون بهــدوء فــيما بينهم على الرغم من أن كل فريق كان يراقب الفريق الآخر دون أن يبدو ذلك عليه.

تذكّــرت إميلــي فــي داخل الشقة الملابس المصنوعة من جلود الأغــنام. فما كان منها إلاّ أن وضعت هذه الملابس من حولها، وشدّت حزامها، وأرخت شعرها، وجاءت إليّ وقالت:

- لقد رأيت ماكنة الخياطة تلك. هل في وسعي استخدامها؟

- نعــم. ولكن ألا ترغبين في شراء الملابس. فتلك الماكنة قديمة جداً. لا بدّ أن عمرها الآن خمسة وثلاثون عاماً.

- لا بأس بها.

كانــت النقود التي أعطيتها إياها ما تزال في الدرج. فما كان منها إلاّ أن أخذتها بسرعة وسرية، وسارت خمسة أو ستة أميال في طريقها

إلـــى مركـــز المدينة حيث المتاجر الكبيرة عامرة بالملابس المخصصة لطــبقة المسؤولين أو أي شخص آخر يقدر على شرائها. كان شأنها في كــل مرة لا يتغير تقريباً، إذ تعود ومعها أقمشة جيدة تعود إلى زمن ما قــبل الأزمـــة. عــادت ومعها خيوط قطنية وشريط قياس ومقص. لقد زارت أيضـــاً محــلات الملابــس المســتعملة والسوق المكشوفة حتى أصـــبحت أرضية غرفتها تحتشد بركام الغنائم. دعت جانيت وايت التي كانـــت تقــف فــوق الرصيف بعد أن استأذنتني في ذلك بأدب. حشرت الحوريــتان نفســيهما في الغرفة الصغيرة، وواصلتا الثرثرة والمنافسة ورتبــتا نفســيهما أمـــام المرآة الطويلة؛ وكان هذا الطقس يتكرّر عندما كانـــت جانيـــت وايـــت تذهـــب بدورها للاستيلاء على الثياب القديمة والمـــواد... يـــتكرّر في غرفة جانيت على امتداد الممر. أدى هذا إلى مـــنعها من الخروج إلى الشارع والاستمتاع بصحبة القبيلة، كما حُذرت من عدم اصطحاب إميلي كصديقة. لقد كانت جانيت مختلفة. في الواقع، إننـــي لم أعرف موقع أسرة وايت وتسلسلها في الدوائر الإدارية. لكنني عرفـــت أنهـــا لم تكن الأسرة المسؤولة الوحيدة التي كانت تخفي نفسها بهـــذه الطـــريقة فتحيا حياة هادئة في شقة متواضعة شأنها في ذلك شأن الآخريـــن فـــيما عـــدا أنها كانت تتمتّع بامتيازات الحصول على المواد الغذائـــية، والبضـــائع، والملابس، والنقل التي كان الآخرون محرومين منها.

لم يبدُ على إميلي أنها كانت تعير اهتماماً لتخلّي جانيت عنها. وبعد مضيّ أسابيع ظهر عليها الإنهاك الشديد تماماً مثلما كان شأنها عندما كانت تتناول الطعام، وتحلم، وتستلقي بكسل. إلاّ أنها أصبحت الآن شديدة الحيوية، وتتصف بنكران الذات؛ هذا على الأقل في ما يخص الغذاء. واصلت مراقبتها إلى ما لا نهاية، إذ لم يسبق لي أن شاهدت تركيزاً كهذا الذي أبدته. فلو كانت إميلي متقوقعة في داخلها

تماماً مثلما كانت متقوقعة عندما كانت تحلم وتتكاسل، فإن ما تشعر به الآن على الأقل يبدو واضحاً عليها، ويتلخص في شكل ثيابها الفنطازية.

صورتها الأولى... وجدت ثوباً قديماً أبيض اللون مطرزاً بأزهار وردية. كانت بعض أجزاء الثوب مبقعة وبالية، فما كان منها إلاّ أن قصتها، وأضافت بعض القطع من التول، والمخرمات، والخرز إلى رداء غريب اللون كان يتغير وفق حاجاتها. كان هذا الرداء يشبه ثوب عروس فأصبح ثوب فتاة شابة. وكان ثوب نوم - إذا أرادت له أن يكون كذلك - فيبدو جسدها متألقاً بين طياته. وهو أيضاً ثوب سهرة، وثوب عمل إن شاءت. لقد كان ثوبها هذا أشبه بتجربة عاطفية لي. لقد أثار خوفي. وهذا يكشف، بدوره، عن مدى عجزي وإياها. لقد آمنت بقدرتها على الخروج إلى الرصيف وهي مرتدية إياه. أما الآن فإنني أحكم على نفسي بالغباء. فالكبار في السن يميلون إلى غضّ النظر - بل ينسون حقاً ذلك - عن الشخص الكامن في هذا المخلوق الشاب، ذلك الفرد الأقوى والأعظم في مجموعة الممثلين الذين يسكنون الجسد المراهق، تلك النفس التي تعلم وتختار التجربة وتوفّر الحماية.

في هذا الوقت، فإن رؤية هذه المخلوقة في هذا العصر المليء بالفوضى والوحشية، ورؤية هذا الطراز من الثوب - أو هذا المزيج من عدة أنماط- ورؤية الأسلوب الذي عثرت به هذه الطفلة، هذه الشابة الصغيرة على مواد أحلامها في أكوام القاذورات في حضارتنا القديمة، لقد عثرت على هذه المواد، واشتغلت بها، واستطاعت تحقيق صورها الذاتية على الرغم من كل شيء... إلاّ أن هذه الصور القديمة التي لا يمكن القضاء عليها والعديمة الشأن، كانت عبئاً لا يطاق في نظري، فانسحبت من المشهد، وقرّرت ألاّ أقول شيئاً، وألاّ أظهر أي علامة، وألاّ أبدي أي شيء. ولحسن الحظ أنني فعلت ذلك. فقد ارتدت ذلك الثوب داخل الشقة؛ فتاة عارية لا يسترها شيء؛ ارتدته بتباهٍ، وعلى

استحياء، وبجرأة، وبخوف؛ لم تكن تجرّب ارتداء ثوب، بل صوراً ذاتية، وكان وجودي لا يعني شيئاً بالنسبة إليها، فهي لم تهتم لأمري. حسناً. إن الضغوط القائمة على خصوصية كل فرد علمتنا كيف نغيّب ذواتنا في عزلاتنا الداخلية. فنحن جميعاً نعرف جيداً كيف نكون مع الآخرين وفي عزلة عنهم في نفس الوقت.

غير أنني لم أعرف ما ينبغي لي أن أفعله، هل أضحك أم أبكي؟ لهذا فقد ضحكت قليلاً، وبكيت قليلاً عندما لم تتمكن من مشاهدتي لأنها كانت ساخرة جداً إضافة إلى أنها شجاعة وبارعة بنظراتها الثابتة والمخلصة التي تشبه نظرات الصديق الإنكليزي الطيبة والمتعبة، وبمحاولاتها في تجميل وجهها الصغير النضر المتأسي خلف ملابس الحريم، وجسدها الذي تصلّب جراء الأوضاع *المغرية التي تتخذها*. لقد استحوذ عليها هذا الثوب أسابيع طويلة، وذات يوم تناولت المقص وقصّته من الأسفل على نحو يوحي بنفاد صبر باعث على السخرية. ثمة خطأ ما، أو أنها استنفدت أغراضها منه، وانتهى كل شيء، ولم تعد في حاجة إليه. ثم وضعته في أحد الأدراج وبدأت في ابتكار شيء جديد لها.

جاءت موجة متأخرة وطويلة من البرد تخللتها بعض الثلوج. كان الدفء في شقتي زائراً نتملق له كثيراً، وكنا شأننا شأن أي شخص آخر نرتدي أكثر عدد ممكن من الملابس داخل الشقة وخارجها. أخذت إميلي جلود الأغنام وصنعت منها رداءً طويلاً مثيراً. وصنعت له حزاماً من قماش الشيفون الأحمر، وارتدته فوق قميص قديم سبق لها أن أخذته من خزانتي بلا استئذان. ولا أستطيع أن أعبّر عن فرحتي عندما أقدمت على ذلك. فقد أظهر تصرفها أن لديها بعض الحقوق؛ معي على الأقل. حق الطفل في أن يكون مشاكساً. لكن المسألة أكبر من ذلك. شخص مسن أو ناضج يجد شخصاً شاباً يأخذ شيئاً ما، شيئاً شخصياً ولا سيما إذا كان تعبيراً قوياً عن فترة من فترات الحياة (مثلما هو الثوب الأبيض

المطرّز باللون الوردي عند فتاة شابة) ويا لها من راحة، صدمة، أو ماء بارد سُكب فوق جسد إذا شئت، إلاّ أن ذلك كله هو بمثابة عملية تحرير. يقول فعل السرقة: هذا لي أكثر مما هو لك، إنه لي أكثر مما هو لك لأنني في حاجة أشد، فهو يناسب هذه المرحلة من حياتي أكثر مما يناسبك. لقد فات أوانه بالنسبة إليك... ولعل حالة الانتعاش التي يوجدها قد تكون أيضاً إيحاءً لحادث لا يزال طي المستقبل، تلك اللحظة حين يرى فيها المرء بأعين الناس البيان؛ الذي ربما لا يزال في اللاوعي: في وسعك أن تسلّم حياتك الآن، فأنت لن تحتاج إليها بعد اليوم، وسوف نعيش نحن حياتك. فنرجو منك أن تذهب.

كان القميص موجوداً بين ملابسي منذ ثلاثين سنة، وكان في يوم ما أحد أشيائي العزيزة، فهو مصنوع من الحرير الأخضر الناعم. أما الآن فقد أصبح لإميلي ترتديه بزهو تحت جلد الأغنام. بينما كنت أكابد من أجل القول: أنت لا تستطيعين بحق السماء ارتداء ثوب اللصوص هذا خارج الشقة، إنه بمثابة دعوة لمهاجمتك. سمحت للبدعة أن تسقط على الأرض، إذ لم تكن مثبتة إلاّ بصورة مستعجلة، ولم تكن لتستمرّ أكثر من حلم من أحلام يقظتها.

هكذا عشنا معاً. فلم تخرج من الشقة ولم تراودها أي من أوهامها، ولاحظت أن هذه الأمور أصبحت أكثر تسلطاً.

كانت ثيابها تصغر عليها يوماً بعد آخر. وسألتني فجأة ذات يوم – بعد أن شعرت بالحياء لأنها بذّرت نقوداً كثيرة – بأسلوب مؤدب جداً أن أعطيها بعض المال، ثم خرجت وحدها إلى السوق. ولمّا عادت كان معها عدد من الملابس المستعملة التي جعلتها تبدو بسرعة فتاة شابة؛ امرأة بعد أن كانت طفلة. كانت تبلغ الثالثة عشرة من العمر في ذلك الوقت. وهي لم تصل إلى سن الرابعة عشرة بعد. لكنها كانت تبدو في السابعة عشرة. أو حتى في الثامنة عشرة. حدث هذا كله بسرعة كبيرة. فكّرت الآن أن أبطال الرصيف ربما سيكونون موجودين في مواقعهم

على الرصيف، وأنها بصفتها فتاة شابة ستطلب ما اختارته الطبيعة لها من دور سواء أكانت تريد شاباً في السابعة عشرة أم الثامنة عشرة أم حتى أكبر من ذلك.

بيد أن الحشد الكبير، المجموعة، العصابة – التي لم تصبح قبيلة بعد، ولكنها على وشك أن تغدو كذلك – وجدت نفسها تنمو رغماً عنها كما حدث لإميلي. لقد حدث ذلك في أسابيع قليلة. ففي الوقت الذي اكتست فيه الأرصفة بلون الثلوج، وازدادت قتامة أغصان الأشجار المزخرفة بالخضرة اليانعة، واستغرقت إميلي في أحلام اليقظة متخيلة نفسها زوجة أحد الأبطال الرومانسيين أو أحد الموظفين المتنفذين أو زير نساء، فإن عدداً من الشباب خرجوا من المخابئ وبدوا أجلاف ومغفلين، ووقفوا في أوقات المساء تحت الأشجار يتباهون بملابسهم الزاهية، بينما خرجت الفتيات من المناطق المجاورة للانضمام إليهم. في هذه الأثناء أصبح عدد الفتيان يبلغ الثلاثين أو أكثر من ذلك، وكانوا يُشاهدون في أوقات العصر من فصل الربيع الذي حلّ مبكراً. كانت العيون تراقبهم من مئات النوافذ. هنا، فكّر الجيران أن الظاهرة التي آمنّا بوجودها والتي لا يمكن أن نعزوها إلاّ إلى أماكن موجودة هناك في الخارج، أصبحت تولد الآن أمام أعيننا، وفي شوارعنا، حيث كان يبدو أن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو مرور بعض المهاجرين الغرباء.

سمعنا أن الشيء نفسه يجري في أجزاء أخرى من المدينة. ولم يكن الشبان يجتمعون فوق أرصفتنا وهم يحملون الإعجاب بالقبائل المهاجرة ويحاولون تقليدها، بل خلال عملية التقليد هذه تحول الشباب أنفسهم إلى قبائل مهاجرة. لقد كنا نعلم جميعاً، كنا نفهم، وكان الحديث يدور في المقاهي والمشارب ومختلف الأماكن التي تشهد التجمعات: كان النقاش يدور فتصنع الأخبار وتصنع الأحداث. كنا نعلم أن شباننا سيرحلون فوراً. وصدرت عنا أصوات طقوسية تدل على الدهشة

والذعر. لكن كل شيء يحدث الآن. وكان كل واحد يعلم أن ذلك لا بدّ أن يحدث. ودهشنا بسبب قصر نظرنا، وقصر نظر الآخرين الذين كان جيرانهم لا يعانون من مثل هذه الظاهرة، والذين كانوا يظنون أنهم بمنأى عنها.

بدأت علامات الغرور تظهر على إميلي. فكانت تظهر أولاً أمام النافذة بعد أن تتأكد من أن هناك من ينظر إليها، ثم كانت تخرج إلى الرصيف فتسير متجاهلة الشبان في الطريق. لقد استغرقت منها هذه المرحلة وقتاً أطول مما توقعتُ أو أطول من الفترة اللازمة لتقبل الشباب لها. أعتقد أنها وصلت الآن إلى المرحلة التي تخشى فيها من الإقدام على هذه الخطوة الكبيرة البعيدة عن الحماية، والبعيدة عن الطفولة، والبعيدة عن حرية الأهواء؛ فلقد أصبحت الآن مثل بقية الفتيات ولا بدّ لها من أن تفكّر وتتصرّف مثلهن. فكيف كان مظهرهن؟ حسناً، إن المفتاح الرئيس لملابس هؤلاء المهاجرين هو الواقعية. وهو أمر لا بدّ منه. فقد أخذت الحاجة طابعاً معيناً. السراويل والسترات والكنزات واللفافات وغيرها كلها سميكة وقوية ودافئة. بدت الأسواق، وأكوام النفايات، ومخازن البضائع القديمة تضخ كميات لا تنتهي من الملابس القديمة التي اتسمت بالعصرية وقتئذ، وأصبح من الممكن تعديلها أو تحويرها بأي شكل من الأشكال لتغدو قطعاً من أشياء كثيرة. لهذا كانوا يبدون مثل الغجر القدامى، كان يتحتم عليهم أن يكونوا دافئين وأحراراً في حركاتهم. كان على أقدامهم أن تنقلهم إلى مسافات طويلة. إلاّ أن خصب خيالهم جعلهم يشعرون بالبهجة والحبور، كما أن الطقس الدافئ جعلهم يخرجون إلى الهواء الطلق كما تخرج الفراشات.

ثم حلّ ذلك اليوم الذي خرجت فيه إميلي، وعبرت الشارع، وانضمت إلى جوقة المحتشدين، كأن المسألة سهلة إلى هذه الدرجة. وسرعان ما قبلت تدخين إحدى السجائر التي قدّمها لها أحد الشبان، وكان يبدو عليه أنه يتمتّع بأقوى شخصية بين الموجودين. وسمحت له

بإشعالها لها وشرعت تدخّن بارتياح. أنا لم أشاهدها تدخّن أبداً. كانت واقفة هناك معهم عندما أخذ النور ينحسر عن السماء ومن حول البنايات السكنية ذات النوافذ المنيرة قليلاً. أخيراً، أصبحت هناك معهم. كان الشبان يُكوّنون كتلة نصف مرئية تحت أغصان الأشجار. كانوا يتحدثون برفق، ويدخنون ويشربون من زجاجات احتفظوا بها في جيوب ستراتهم، أو كانوا يجلسون على الحاجز الصغير الذي كان يحيط بالرصيف القائم عند أقرب بناية سكنية. كانت تلك المساحة من الأرصفة، والمكان المخصص للنفايات والأشجار والحشائش التي كان يحيط بها من جانب الحاجز الصغير ومن الجانب الآخر الجدار العتيق قد أصبحت واضحة المعالم مثل ميدان أو مسرح. لقد قام الحشد بالاستيلاء عليها وإعادة تنظيمها: ولم يعد في وسعنا أن نرى ثانية تلك البقعة تشبه أي شيء سوى مكان لتشكيل القبائل.

بيد أن هوغو لم يكن موجوداً هناك. كانت إميلي قد احتضنته، وقبلته، وتحدثت إليه، وهمست في أذنيه الصفراوين الكريهتين، ثم تركته.

كان يجلس فوق أحد الكراسي عند النافذة ويراقبها وهو متأكد من أن الستائر تخفيه عن الأنظار.

من شأن أي شخص غريب يفد فجأة إلى الغرفة أن يقول: "إنه كلب أصفر جداً!" ثم يضيف: "لكن هل هو كلب؟" كنت أرى فيه كلباً أصفر اللون يجلس، وقد أدار ظهره إلى الغرفة، وبدا عليه السكون ساعات طويلة بينما برز ذنبه من خلال قضبان الكرسي، وتلوح عليه سيماء الحزن والصبر المترقب. كنت أرى هذه الأشياء التي لم تكن إميلي تراها لأنه كان يواجه دخولها في اللحظة التي تعبر فيها الشارع وتعود إلى الشقة. كلب. عواطف كلب؛ الإخلاص، الجلَدْ، والطاعة. كان هوغو بجلسته تلك يجعل العواطف كلها مُستثارة شأنه في ذلك شأن معظم الكلاب: الرحمة، القلق الموجّه نحو سجين ما أو عبد من العبيد.

إلاّ أنه كان يدير رأسه بعد ذلك، ويختفي متوقعاً أن يرى الحب الدافئ في عيني أي كلب. لم يكن هذا كلباً، بل نصف إنسان. كانت عيناه الخضراوان القويتان متقدتين، لاإنسانيتين، كانتا عيني قطة، عيني جنس غريب على الإنسان، لا يشعر بالأسى أو التوسل. كانتا عيني قطة في جسد كلب، كان لديه عينا قطة ووجهها. كان هذا حيواناً تجذب قباحته الأنظار، مثلما يجذب الجمال الأنظار، حتى إنني وجدت نفسي دوماً أحدّق إليه، وأحاول أن أتأقلم معه، وأفهم الحق الذي يفترضه في وجوده في حياتي. استمرّ هذا الشاذ، هذا العجيب في مراقبة إميلي بلهفة تساوي لهفتي. كان هوغو هو الذي يحظى بالعناق والقبلات والحب عندما تعود في الليل، ورائحة الدخان والمشروب تفوح منها، وهي تضج بالحيوية الخطيرة التي استمدتها من الحشد الهائج الذي كانت جزءاً منه ساعات طويلة.

أصبحت إميلي ترافق الحشد كل يوم منذ العصر وحتى منتصف الليل، بل وإلى ما بعد منتصف الليل. كنت أجلس مع الحيوان وراء الستائر نحدّق إلى الظلمة لأن الشارع لم يكن فيه سوى مصباح واحد ولم يكن في الإمكان مشاهدة الكثير من ممارسات الحشد في ذلك المكان باستثناء امتقاع لون الوجوه، والتألق، والومضات التي تظهر عند إشعال السجائر. فلم يكن ممكناً سماع ما يدور من أحاديث باستثناء انطلاق الضحكات أو الأغاني أو عندما كانت الأصوات ترتفع عالياً إثر احتدام الشجار. كنت في مثل هذه الأوقات أشعر أن هوغو أخذ يرتعش ويرتجف. إلاّ أن المشاجرات سرعان ما كانت تنتهي إثر اتفاق جماعي.

عندما كنا نعلم أن إميلي عائدة إلى الشقة، كنا نغادر مكانينا ونسرع إلى المكان الذي يدلّ على أننا كنا مستغرقين بالنوم، أو على الأقل أننا لا نتجسس عليها.

* * *

خلال تلك الفترة، وفي كل مرة كنت أجد فيها نفسي قد توغلت بين

الأزهار، وبين الأوراق المغمورة تحت طلاء أبيض نصف شفاف، كنت أجد أن الغرف في حالة فوضى، أو أن ضرراً ما قد لحق بها. ولم أشاهد أبداً الشخص الذي أقدم على ذلك، كما لم أعرف السبب. كنت أجد دوماً أنني قد كُلِّفت بمهمة ما مرة أخرى بعد أن ورثت هذا الامتداد لحياتي العادية، وهي مهمة لم أكن قادرة على القيام بها. كنت في حياتي الحقيقية كلما دخلت الغرف بعد انقضاء فترة وجدت أنها تحتاج إلى بذل المجهود مرة أخرى على الرغم من أنني كنستها، وعدّلت من وضع الكراسي والمناضد المقلوبة، ومسحت الأرضية، ونظّفت الجدران. كان كل شيء يبدو مثل قراءة حيلة من حيل الأشباح الشريرة. كان دخولي ذلك المكان تصحبه حيوية قليلة، وإحساس بالهاجس والنذير بدلاً من الأمل الحي الذي راودني أول مرة استطعت فيها التحرك هناك. والواقع أنه ينبغي لي أن أوضّح هنا أن شعور الإحباط هذا لم يكن أبداً يشبه البؤس الذي رافق المشاهد *الشخصية*. لا، بل أسوأ من ذلك. لقد كانت فوضى الغرف واضطرابها أسوأ من الرائحة النتنة التي تنبعث من الغرف المغلقة. لقد كان دخول هذا المكان يمثّل عندي تحرراً يبعدني عن حياتي *الحقيقية* فهو مكان يحتشد بالاحتمالات والبدائل. عندما أتحدث عن الحيوية القليلة هنا فإنني لا أقصد ذلك إلاّ وفق مفهوم هواء هذه المنطقة الذي يتحرك بحرية أكبر. أنا لا أستطيع مقارنته بقيود الزمان أو المكان الذي عاشت فيه تلك العائلة حياتها التي تشبه المسرحية الساخرة.

لكن ما هي القوانين أو الضرورات التي يطيعها المدمر المجهول؟ لقد كنت أجد نفسي في الممر الطويل وغير المنتظم الذي يشبه رواقاً عريضاً يمتد إلى ما لا نهاية، وتكثر فيه الأبواب والزوايا التي يمكن أن تحتوي على مناضد وضعت فوقها الورود أو أحد التماثيل أو الصور أو مختلف الأشياء الأخرى. كل شيء في مكانه. وما إن تفتح أحد هذه الأبواب التي تؤدي إلى إحدى الغرف حتى تجد أن كل شيء في وضعه

غير الصحيح. كانت الريح القوية تضرب الستائر وتدفعها إلى داخل الغرفة. فتنقلب بعض الموائد الصغيرة، أو تسقط الكتب من فوق أذرع الكراسي، ويتناثر رماد السجائر فوق السجادة بعد أن يسقط من منفضة تدحرجت على الأرض وهي على وشك أن تنقلب. عند فتح باب آخر تجد كل شيء كما ينبغي له أن يكون: فهناك حالة من النظام، وغرفة ليست مهيأة لاستقبال من سيحتلها وحسب، بل تعطي أيضاً شعوراً بوجود أحد ما قد غادرها للتو. إذ من السهل الإحساس بوجود شخص ما في غرفة يمكن رؤيتها من باب نصف مفتوح. وإذا ما دخلت من هذا الباب بعد لحظات قصيرة، فإنني قد أجد الغرفة في حالة فوضى، وكأنها غرفة في مخزن للدمى، وأن يد فتاة صغيرة دخلت من السقف وعبثت بكل شيء بدافع من مزاج سيئ.

قرّرت أن ما ينبغي لي أن أفعله هو إعادة طلاء الغرف. إنني أتحدث عن هذه الغرف وكأنها مجموعة غرف ثابتة ومتميزة ومستقرة، وكأنها في أحد البيوت أو الشقق، وليست مكاناً يتغير في كل مرة أراه. أولاً: الطلاء. ما هي فائدة ترتيب الغرفة أو تنظيف الأثاث الذي سيقف بين مثل هذه الجدران الكئيبة المهلهلة؟ وجدت الطلاء. ثمة علب من أحجام وألوان مختلفة تقف في انتظاري على جريدة مفروشة على الأرض في إحدى الغرف التي كانت فارغة مؤقتاً؛ لقد رأيت هذه الغرفة مؤثثة قبل لحظات قليلة ليس إلا. فقد كانت هناك مجموعة من الفراشي، وقناني زيت التربنتينة، وسلم الصباغ الذي سبق لي أن رأيته في أثناء إحدى زياراتي الأولى لهذا المكان. بدأت عملي في إحدى الغرف التي أعرفها معرفة وثيقة. كانت هذه غرفة استقبال ذات ستائر مطرزة وتحتوي على حرير أخضر ووردي وخشب عتيق. جمعت كل الأشياء عديمة النفع في وسط الغرفة بعد أن وضعت فوقها غطاء يقيها الغبار. مسحت السقف والجدران بالماء الدافيء، والصابون، ومساحيق الغسيل فتساقطت طبقات الطلاء الأبيض الذي كان لونه قاتماً في البداية ويبعث

على الكآبة، فأصبح بعدئذ نظيفاً لامعاً مثل طبقة المينا البراقة وأبيض مثل ثلج تساقط تواً أو مثل الخزف الصيني الصافي. كنت أقف في الغرفة كأنني داخل قشر بيضة نظيفة. شعرت أن طبقات السخام قد زالت بعد أن كانت تمنع أي كائن حي من التنفس. وتركت الأثاث في وسط الغرفة كما هو، إذ بدا لي الآن أنه لم يعد يناسب الغرفة بسبب شكله المهلهل. كما أنني شعرت أنه لا يوجد سبب يدفعني إلى رميه في الخارج. إذ ما إن أعود مرة أخرى إلى الغرفة حتى أجد الشبح قد قذف كل شيء في أرجاء الغرفة أو أنه رمى بالروث على الجدران. لكن الأمر ليس كذلك. فلم يحدث هذا الشيء. أو أعتقد أنه لم يحدث؛ لأنني لم أشاهد تلك الغرفة مرة أخرى إطلاقاً. في الحقيقة، لم أبحث عن تلك الغرفة لكي لا أجدها، ولكن هل من المناسب القول إنني نسيتها؟ هذا يعني أنني أتحدث عن ذلك المكان في ظل مفهوم حياتنا العادية. فعندما كنت في تلك الغرفة بدت المهمة معقولة لي. هناك استمرارية لما فعلت، هناك مستقبل، وكنت مرتبطة دوماً بذلك المخلوق أو تلك القوة الخفية والمدمرة مثلما أرتبط بوجود آخر مفيد. إلاّ أن هذا الإحساس بالارتباط، والصلة، والسياق يعود إلى تلك الزيارة الخاصة التي قمت بها إلى الغرفة. في الزيارة التالية لم تكن الغرفة هي نفسها كما أن اهتمامي بها تبدل؛ وينطبق الشيء عينه على اهتمامي ببقية الغرف وبقية المشاهد التي كانت روائحها ونكهتها تحمل طابع الزمن الذي مرّت به وليس غير ذلك.

واصلت الكتابة، دون أدنى تردد أو افتقار إلى المتعة، في معرض وصفي لعالم الفوضى، والتبدل، والزوال. لا بدّ لي الآن من العودة إلى العالم *الذاتي*، وهي عودة تثير الحزن وتفتقر إلى الرغبة.

اقتربت من أحد الأبواب متوجسةً، وحب الاستطلاع مستحوذ عليّ: هل سأجد الفوضى التي صنعها الشبح عندما أفتح الباب؟ إلاّ أن المشهد كان خلاف ذلك، فكل شيء مرتّب وأنيق في تلك الغرفة التي

تثير الإحباط والضيق بسبب مظهرها الذي يدلّ على أن كل شيء فيها له مكانه وزمانه، وأن ما من شيء فيها يستطيع الخروج عن نظامه. كانت الجدران قاسيةً والأثاث ثقيلاً لامعاً وبراقاً، وكانت الأرائك والكراسي مثل عمالقة يتحدثون. أما قوائم المنضدة الكبيرة فكانت غائرة في السجادة.

كان هناك ناس. ناس حقيقيون لا قوات أو أطياف. كانت تبرز من بينهم إحدى النساء، وكنت قد شاهدت هذه المرأة من قبل وعرفتها معرفة وثيقة. إنها امرأة طويلة القامة ضخمة الجثة، وتتمتّع بحيوية بالغة ولها عينان زرقاوان، وخدان متوردان، وفم يبعث على البهجة يشبه فم تلميذة في مدرسة. كان شعرها بني اللون يتجمع معظمه فوق قمة رأسها. بدت أنيقة في مظهرها. فملابسها جيدة، وغالية الثمن، وعصرية." كان جسدها يبدو من تحت هذه الملابس وكأنه يريد أن يؤكد وجوده؛ على استحياء، ولكن بقدر من الشجاعة والكياسة أيضاً. كانت ذراعاها وساقاها تبدو في وضع غير مريح. وبدا أنها لم ترغب في ارتداء هذه الثياب لكنها شعرت أنه ينبغي لها أن ترتديها. كان من شأنها أن ترميها جانباً وهي تضحك وتطلق حسرة وتقول: "أحمد الله على ذلك. يا لها من راحة!"

كانت تتحدث إلى امرأة أخرى، إلى زائرة، وكان ظهرها باتجاهي. كان في وسعي مراقبة عينيها ووجهها. كانت عيناها تخلوان من النقد الذاتي، وتشبهان السماء التي ظلّت زرقاء عدة أسابيع، وستظل كذلك أسابيع أخرى قادمة، إذ لم يحن فصل التقلبات بعد. كانت عيناها مشدوهتين، لا تريان المرأة التي تتحدث إليها أو الطفل الصغير الساكن في حضنها والذي كانت تهدهده مستخدمة كعب حذائها مثل النابض. لم تشاهد الفتاة الصغيرة التي كانت تقف على مقربة من أمها وهي تراقب أو تصغي أو تنتبه؛ كأن كل نظرة تفسّر المعلومات على نحو تحذيرات أو تهديدات أو رسائل تعبّر عن الكراهية. كانت تنطلق من هذا الطفل

الصغير موجات قوية من المشاعر المؤلمة. إنه الذنب. لقد أُدينت. وعندما لاحظت هذه المشاعر، ومجموعات الناس في تلك الغرفة المريحة، أصبح المشهد مألوفاً لديّ مثل صورةٍ معضلة من العهد الفيكتوري أو صورة من مسرحية قديمة الطراز كُتب عليها بخط كبير: ذنب.

إلى الخلف، كان ثمة رجل يبدو عليه القلق. وهو جندي أو كان كذلك فيما مضى: طويل القامة، قوي البنية، إلاّ أنه كان على الرغم من كل مظهره قد تمالك نفسه كأن من الصعب عليه أن يحتفظ بالهدف أو احترام الذات. كان وجهه الوسيم حساساً ومن السهل إحراجه، وكان أكثر من نصفه مخفياً وراء شاربه.

أما المرأة، الزوجة والأم، فكانت تتحدث. واصلت الحديث واستمرّت على هذه الحال كأنه لا يوجد شخص آخر في الغرفة سواها، وكأنها وحيدة، ولا يستطيع زوجها وطفلتها – الفتاة الصغيرة خاصة التي كانت تعلم أنها كبش الفداء الرئيس وسبب الشكوى – سماعها:

– لكنني لم أتوقع ذلك. ولم يحذّرني أحدٌ أحداً من الوضع الذي ستؤول إليه الأمور. إنه فوق طاقتي. عندما يشرف النهار على نهايته أجد نفسي عاجزة عن عمل أي شيء سوى النوم. إن ذهني يشبه الضباب؛ مشوّش. أما القراءة أو عمل أي شيء جاد فهذا غير وارد الآن. سوف تستيقظ إميلي عند الساعة السادسة، وقد علمتها أن ترقد بسلام حتى السابعة. أما بعد ذلك، فإنني مشغولة جداً طيلة النهار. فالطلبات لا تنتهي. وإذا كنت تعتقد أنني كنت مشهورة يوماً ما بذكائي فذلك ليس إلاّ مزحة.

جلس الرجل على كرسيه بسكون تام وهو يدخّن. وازداد طول رماد سيجارته حتى سقط. قطّب حاجبيه، ونظر إلى زوجته باضطراب، وجذب منفضة سجائر بسرعة نحوه وبطريقة توحي أنه كان ينبغي له أن يتذكّر المنفضة قبل الآن، وأنه في الوقت نفسه إذا رغب في رمي

الرماد وجعله يسقط، فما عليه إلاّ أن يفعل ذلك. واصل تدخين سيجارته. أما الفتاة التي كانت تبلغ الخامسة أو السادسة من العمر فقد وضعت إبهامها في فمها. وكان وجهها مكتئباً بسبب النقد الذي كان ينصبّ عليها وعلى وجودها.

كانت طفلة ذات شعر أسود وعينين تشبهان عيني والدها؛ فهما مليئتان بالألم والشعور بالذنب.

– ليس لأحد فكرة ما عن الأطفال ما لم ينجبهم. وهذا ما أفعله أنا كي أتمكن من ملاحقة الأشياء ومتابعتها: وجبات الطعام المتتالية، الغذاء، ناهيك عن منح الأطفال الاهتمام الذي يستحقونه. أنا أعلم أن إميلي مستعدّة لأخذ وقت أكبر مما أمنحها إيّاه الآن. لكنها طفلة كثيرة الطلبات، وصعبة المراس وهي تستنــزفني دوماً. إنها تريد مني أن أقرأ لها وأن ألعب معها طيلة الوقت. لكنني مشغولة بأعمال الطبخ. فأنا أعد الطعام وهذا يأخذ مني وقتاً طويلاً. أنت تدرك ذلك جيداً. لم يعد هناك وقتٌ كافٍ لما ينبغي عمله. ببساطة لا وقت لديَّ للطفلة. لقد تمكنت من الحصول على فتاة لبعض الوقت في العام الماضي. لكن الأمور تفاقمت أكثر. فقد حصلت مشكلات وأزمات وما عليك إلاّ أن تعالجها كلها. فقد أخذت الفتاة مني وقتاً بقدر الوقت الذي تأخذه إميلي. لكنني كنت أسرق لنفسي ساعة من الوقت بعد الغداء لأستريح قليلاً. لكنني لم أجد في نفسي القوة اللازمة للقراءة ناهيك عن الدراسة. لا أحد يعرف كيف يحدث هذا، أو ما هو معناه. ربما يعني الأطفال شيئاً لك. أما لي، فلا يعنون شيئاً.

في هذه الأثناء أخذت تهزّ الطفل الجالس على ركبتيها بقوة أكبر مما مضى. كان هذا الطفل في الثانية أو الثالثة من العمر، ثقيل الوزن لا يحرك ساكناً ويرتدي ملابس صوفية بيضاء اللون ومبللة. كانت عيناه تلمعان وهو يرى العالم يتراقص أمامه، وفمه مفتوح ومتهدل قليلاً. أما خداه الممتلئان فكانا يرتعشان.

استمرّ الزوج بتدخين سيجارته، وبالإصغاء وتقطيب حاجبيه وهو جالس في مكانه وقد بدا عليه التوتر والانزعاج والإحساس بالذنب رغم هدوئه.

– لكن ما الذي تستطيع أن تقدّمه إذا لم تأخذ أي شيء. إنني خالية الوفاض، لم يبق لديّ شيء. إن قواي تنهار مع حلول موعد تناول الغداء. وكل ما أريده في ذلك الوقت هو الحصول على قسط من النوم. فكّر كيف كنت في السابق، وفكّر في الأشياء التي كان في استطاعتي إنجازها. لم أفكّر يوماً ما أبداً أن التعب سيتغلب عليّ. لم أكن أتخيل أبداً أن أصبح امرأة لا تجد لديها الوقت الكافي للقراءة في كتاب ما. ولكن هذا ما حدث فعلاً.

أطلقت حسرة على نحوٍ لاواعٍ وظهرت مثل طفلة. تلك المرأة الطويلة، والقوية، والواثقة من نفسها. كانت في أمس الحاجة إلى التفهّم مثل الأطفال تماماً. فجلست وهي تفكّر في متطلبات نهاراتها ولياليها. لم يكن هناك أحد ليواسيها. كانت تشعر أنها تتحدث إلى نفسها. فهما لا يسمعانها أو لا يريدان أن يسمعا. ظهرت وكأنها قد سقطت في فخ. غير أنها لم تدرك سبب هذا الإحساس ولا سيما أنها كانت هي نفسها تسعى وراء الزواج وإنجاب الأطفال. فذلك هو هدفها الذي حدده لها المجتمع. ولم تسعفها ثقافتها أو تجربتها في إعدادها لما تحس به الآن حقاً، إذ باتت معزولة في محنتها وحيرتها. في بعض الأحيان كانت تظن أنها ربما كانت مريضة بمرض ما.

تركت الفتاة الصغيرة *إميلي* الكرسي الذي كانت تقف بالقرب منه وتقبض على ذراعه بقوة كي تقي نفسها عاصفة الغضب والانتقاد، وتوجهت الآن إلى أبيها، ووقفت إلى جوار ركبتيه، وشرعت تراقب أمها؛ تلك المرأة القوية الضخمة ذات اليدين المؤنبتين. ازداد اقترابها من أبيها حتى كادت تلتصق به، إلاّ أنه لم يكن مبالياً على ما يبدو. وبدرت منه حركة خرقاء سقطت معها منفضة السجائر. ولما تحرك

على نحو غريزي لاستعادتها، دفع إميلي جانباً فسقطت على الأرض كأنها شيء خلّفه تيار ماء أو هواء. سقطت على الأرض، وظلّت هناك يلامس وجهها الأرض وإصبعها في فمها.

استمرّ صوت الأم قوياً وهي ترسل الاتهامات كما استمرّ سابقاً وسيستمرّ في المستقبل. لا شيء يستطيع منعه. لا شيء يستطيع أن يوقف دفق هذه العواطف، وهذا الألم، وهذا الإحساس بالذنب من أنها ولدت لتكون السبب في كل هذا الإزعاج والألم. سيستمرّ الصوت في إثارة النكد إلى ما لا نهاية، ولا يمكن كبته. عندما يصبح ضعيفاً في الذاكرة لا بدّ أن يستمرّ ضغط الإحساس بالكراهية والنفور. إنني غالباً ما أسمع في حياتي العادية صوتاً ما، ومرارة وشكوى خفيضة على الطرف الآخر من الإحساس: إنه أحد الأصوات الموجودة هناك، في إحدى الغرف وراء الجدار. لا يزال هناك. دائماً هناك. وفي أثناء وقوفي بجوار النافذة واصلت مراقبة إميلي، تلك الفتاة الجذابة اللامعة التي غالباً ما كان الناس يحيطون بها، ويصغون لحديثها وضحكتها وحيلها الصغيرة. كانت تفهم دوماً ما يجري من حولها ولا يمكن أن يغيب عن عينيها أي شيء في تحركات ذلك الجمع المحتشد من الناس أو في الأشياء التي يفعلونها. فبينما هي تتحدث إلى إحدى المجموعات، كانت تبدو وكأنها تتلقى المعلومات من مجموعة أخرى. إلاّ أنها على الرغم من كل ذلك، كانت معزولة ووحيدة. لقد كانت جاذبيتها بمثابة قوقعة بيضاء اللون تصغي وتراقب من داخلها. كانت تشعر بالوحدة لفرط إحساسها بذاتها. لم يفارقها هذا الإحساس حتى في أشد أوقاتها اهتياجاً، عندما تكون ثملة أو مترنحة من شدة السكر أو لدى انهماكها بالغناء مع الآخرين. كانت تبدو وكأنها تعاني من عاهة خفية، حدبة على ظهرها، لا يراها أحد غيري وغيرها. كنت أقف وأراقبها بأسلوب لم أستطع أن أكرّره عندما تكون قريبة جداً مني في الشقة.

لعل إميلي لا تراني أبداً. فهي لا تنظر إلى أي مكان آخر عندما تكون منشغلة بما يجري حولها مع أصدقائها. إلاّ أنها رأتني مرة أو مرتين، وبدا من الغريب جداً أن ألاحظها وهي تنظر إليَّ كأنني لا أتصور أن في استطاعتها أن تنظر إليَّ. بدا أن نظرتها إليَّ وهي في وسط ذلك الحشد من الناس الذين يوفرون لها الحماية هي التي تمنحها الحصانة اللازمة. كانت تلك النظرة مختلفة عن النظرة التي تلقيها إلى شخص موجود داخل ذلك الحشد، وتتطلب شيفرة أخرى. كما أن نظرتها الطويلة، والهادئة، والمتأملة، والخالية من المشاعر العدوانية، والمتجردة كانت تجعل نفسها الحقيقية واضحة للعيان. ثم تلوح بعد ذلك الابتسامة المشرقة القوية وتأشيرة اليد المسالمة قدر ما يسمح به زملاؤها. وما إن أتوارى عن أنظارها حتى يتلاشى وجودي لديها، فتعود مرة أخرى، وقد أحاط بها الجميع. إنها سجينة موقفها.

فيما وقفت بجوار النافذة، وإلى جانبي هوغو يتطلع إليها، شاهدت ازدياد أعداد الناس المتجمهرين فوق ذلك الرصيف: أصبح عددهم الآن خمسين فرداً أو أكثر من ذلك. عندما نظرت إلى الأعلى، وتطلعت إلى النوافذ التي لا تحصى وقد احتشدت أمامها وجوه الناس الذين أطلوا على المشهد، أدركت أن شعوراً واحداً ينتابنا جميعاً: إذ كنا نتساءل متى سيتحرك هذا الحشد أو جزء منه حتى يغيب عن الأنظار، متى سيتحرك هؤلاء اليافعون؟ لن يمضي وقت طويل حتى يذهبوا. وماذا عن إميلي؟ هل سترافقهم؟ وقفت أراقب قرب الحيوان الأصفر اللون الذي لم يسمح لي بمداعبته بل آثر أن يظل قريباً مني أنا صديقة خليلته وحبه. وقفت هناك، وفكّرت أنني ربما أقترب يوماً ما من تلك النافذة فأجد الرصيف المقابل وقد خلا من الناس وأن الزبالين يرشون الماء والمطهرات ويزيلون كل معالم ذكرى القبيلة. سنظل عندئذ أنا وهوغو وحيدين، وعندئذ سأكون قد خنت أمانتي.

جلست مع حيوانها الأصفر في أوقات الصباح وأطعمته شيئاً من

الخضراوات وبدائل اللحوم وداعبته، وتحدثت إليه، ثم أخذته في الليل إلى غرفتها حيث يضطجع قرب سريرها بينما تخلد هي إلى النوم. لم يكن ثمة شك في أنها كانت تحبه حباً جماً كعهدها سابقاً. إلاّ أنها لم تستطع أن تجعله يشاركها حياتها الحقيقية على الرصيف.

في وقت مبكر من مساء أحد الأيام عادت إلى الشقة بينما كانت الحياة في الخارج في أوج حيويتها وصخبها، وبينما كانت الأضواء قد بدأت تواً بالظهور على ارتفاعات مختلفة في الظلمة الحالكة. دخلت إميلي الشقة تبدو عليها نظرة ذعر وارتعاش حاولت أن تخفيها عني. ثم قالت لهوغو:

هيا. هيا معي لأعرّفك إلى الناس.

هل نسيت تجربتها السابقة؟ لا، أبداً، إلاّ أنها تصورت أن الأمور ربما تغيرت. فهي معروفة الآن جيداً خارج الشقة، بل لا بدّ أنها شعرت أنها عضو مؤسس في هذه القبيلة: فهي ساعدت في تكوينها.

لم يرغب هوغو في الذهاب. آه. لا. إنه لا يريد أبداً الذهاب معها. كان وقوفه على هذا النحو أمامها يعني أنه يلقي المسؤولية عليها إذا حدث شيء ما، مشيراً إلى استعداده أو على الأقل موافقته على مرافقتها.

سارت أمامه فلحق بها. لم تضع السلسلة الثقيلة حول رقبته، بل تركته دون حماية مما يعني أنها تحمل المجموعة مسؤولية التصرفات التي يمارسونها.

راقبت الفتاة الشابة وهي تبدو رشيقة ورقيقة حتى وهي ترتدي سروالها السميك، وسترتها، وتنتعل حذاءها، وتضع لفاعها ثم تعبر الشارع ومن ورائها حيوانها يتبعها بوقار. بدا واضحاً أنها كانت وجلة عندما وقفت على مقربة من إحدى الجماعات الصّاخبة المثرثرة التي كان يبدو عليها أنها تتقد بعنفوان الإثارة أو الاستعداد للإثارة. ظلّت يدها فوق رأس الحيوان لتبعث فيه الطمأنينة. التفت الناس إليها وشاهدوها مع

هوغو. كنت في مكاني قرب النافذة لا أرى سوى ظهر الفتاة والحيوان. تمكنت من مشاهدة الوجوه المحتشدة بينما كانت إميلي وهوغو يتطلعان إليها. لم يعجبني المشهد... ولو أنني كنت آنئذ في ذلك المكان لأسرعت بالفرار... إلاّ أن إميلي لبثت في مكانها برهة من الوقت ويدها إلى الأسفل قريبة من رأس هوغو، تداعب أذنيه، وتربّت عليه في محاولة لتهدئته. سارت بهدوء في وسط هذه القبائل وهي مصممة على إجراء الاختبار ومعرفة مكانتها بينهم، ظلّت إميلي مع هوغو بينما أخذ الظلام يحل تدريجياً ويبتلع الحشود المنتشية. فكانت الضحكة - أو أي صوت آخر - ترتفع في الهواء، وتسير في اتجاهات مختلفة؛ صوب المراقبين الذين أصبحوا الآن غير مرئيين وهم يقفون وراء نوافذهم فتحمل إليهم رسائل ذعر أو إثارة.

لما عادت معه إلى الشقة بدت مرهقة وحزينة. كانت قريبة جداً من المستوى العام الذي كنت أعيش أنا فيه كإحدى النساء المتقدمات في السن. لمحتني وأنا أنظر إليها عندما كانت تتناول السلطة وقطعة الخبز. بدت عيناها تطوفان في أرجاء الغرفة التي كنا نجلس فيها. أما أنا فقد كنت متوجسة جداً. إذ كنت متأكدة من أن حزنها سببه قرارها أن هوغو لا يستطيع السفر مع القبيلة بأمان - وفكّرتُ أنّه من الجنون أن تفكّر في مجرد ذلك الشيء - وأنها عزمت على الرحيل مع الشبان والتخلي عن هوغو.

بعد تناول الطعام، جلست فترة طويلة قرب النافذة، وحدّقت إلى المشهد الذي أصبحت جزءاً منه. لم يجلس الحيوان بالقرب منها، بل في أحد أركان الغرفة. في وسعك أن تتصور أنه كان يبكي أو أنه يمكن أن يبكي لو عرف إلى ذلك سبيلاً. لقد بدا حزيناً في أعماقه إذ خفض من جفنيه بينما استحوذت عليه نوبة من الألم وانتابته رعشة شديدة.

عندما ذهبت إميلي إلى غرفتها كي تنام اضطرت إلى النداء عليه عدة مرات. أخيراً، سار إليها ببطء وهدوء واعتزاز. إلاّ أنه كان

معزولاً تماماً عنها في أعماقه: وكان يسعى إلى حماية نفسه.

في اليوم التالي عرضت الخروج من الشقة سعياً وراء المؤونة، الأمر الذي لم تكن تفعله منذ مدة طويلة نسبياً. شعرت مرة أخرى أن هذا ليس إلاّ بمثابة اعتذار رمزي لأنها كانت تريد الرحيل.

جلسنا منفردتين بهدوء في الغرفة الطويلة، وكانت أشعة الشمس قد غادرتها بعد أن انتصف النهار. اتخذت مكاني في أحد جوانب الغرفة بينما اضطجع هوغو ورأسه فوق مخالبه على امتداد الجدار الخارجي للغرفة بحيث لا يمكن مشاهدته من النوافذ القائمة من فوقه.

سمعنا صوت وقع أقدام ما لبثت أن توقفت، ثم عادت خافتة من جديد. سمعنا أصواتاً عالية تحولت فجأة إلى أصوات رقيقة: هل هو صوت فتاة شابة؟ لا. أهو صوت شاب؟ يصعب الحكم على ذلك. ولاح رأسان عند النافذة وهما يحاولان إمعان النظر في ظلمة الغرفة: أما في الخارج فكان الضوء ساطعاً.

قال أحد شبان ميهتا الساكنين في الطابق العلوي:

– إنه هنا.

فقال شاب من السود:

– لقد شاهدته قرب النافذة.

كنت قد رأيت هذا الشاب كثيراً مع غيره من اليافعين فوق الرصيف. كان صبياً رشيقاً، ضعيف الحركة ومحبوباً. ظهر رأس ثالث بين هذين الرأسين: فتاة بيضاء تسكن إحدى البنايات السكنية. وقالت بلذة:

– كلب مطبوخ. حسناً. لن أتناول شيئاً منه.

فقال الشاب الأسود:

– آه. هيا. لقد شاهدت الطعام الذي تأكلينه.

سمعت صوتاً قوياً. كان صوت هوغو. كان يرتجف ومخالبه

تخربش أرضية الغرفة الخشبية.

شاهدتني الفتاة جالسة هناك وعرفتني، ثم قالت وهي تبتسم الابتسامة التي تسمح بها المجموعة للغرباء.

- آه. لقد تُهنا.

فقلت:

- لا. أنا أسكن هنا، ولم أرحل.

التفت الثلاثة إلى بعضهم بعضاً، وكان وجه أحدهم أسمر والآخر أسود أما وجه الفتاة فكان أبيض. ثم اختفوا عن الأنظار تاركين النافذة خاوية.

صدرت عن هوغو آهة حزينة. فقلت له:

- لا بأس. لقد رحلوا.

فارتفع صوته. ثم رفع الحيوان جسده، وزحف صوب الباب، واتجه نحو المطبخ وهو أقصى مكان يقيه شر الخطر القادم من النافذة. لم يرغب في أن ألاحظ فقدانه هدوءه ورباطة جأشه. كان يشعر بالأسى لأنه فقدهما. كانت آهاته التي سمعتها دليلاً على خوفه وذعره.

لما عادت إميلي الفتاة الطيبة وابنة البيت كان الوقت مساءً. بدت متعبة إذ اضطرت إلى التردد على محلات كثيرة كي تعثر على المؤن. إلاّ أنها كانت سعيدة في أعماقها. كانت الحصص المقررة في ذلك الوقت شحيحة بسبب فصل الشتاء حيث قاربت على النفاد: البطاطا والكرنب والبصل. هذا كل شيء. غير أنها تمكنت من العثور على بعض البيض والقليل من السمك بل والليمون أيضاً الذي يعد بمثابة مكافأة. بعد أن عرضت كل ما حصلت عليه من مواد أخبرتها بما حدث. وسرعان ما اكتأبت، وجلست هادئة، وخفضت رأسها، وأخفت عينيها بجفنيها البيضاوين وأهدابها الطويلة. ثم استدارت، وخرجت دون أن تنظر إليَّ، وشرعت تبحث عن هوغو لتطمئنه.

بعد مرور وقت قصير خرجت إلى الرصيف، ولبثت هناك حتى وقت متأخر.

أتذكّــر كــيف جلست طويلاً في الظلام. كنت أؤجل لحظة إشعال الشــموع وأنا أفكّر أن مربعِ الضوء الواهن الذي يشير إلى مكان نافذتي من الشارع من شأنه أن يذكر آكلي لحوم البشر الموجودين في الخارج بهوغــو الــذي عاد الآن إلى مكانه الأول قرب الجدار فلا يمكن رؤيته بســهولة. ظــلّ ســاكناً كأنــه يغط في نوم عميق. غير أن عينيه ظلتا مفتوحتين. وحين أشعلت الشموع لم يتحرّك أو تطرف له عين.

عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، أجد نفسي جالسة في الغرفة الطويلة بما فيها من أثاث عتيق مريح وأشياء تعود لإميلي وضعتها في مكان صغير إضافة إلى الحيوان الأصفر الذي اضطجع بهدوء وهو يعاني. إلى الخلف من ذلك المكان، كان الجدار الغامض الذي يسهل ذوبانه فيذيب معه كل هذه الحياة الغريبة وقلق هذا الزمان وضغوطه ليوجد حياة أخرى بديلة عنها. كانت الغرفة موجودة على نحو وهمي بما فيها من نماذج الفواكه والأوراق والأزهار التي ظللها الضوء الخافت. هكذا كنت أراها، وأرى نفسينا، وأرى ذلك الزمان: الغرفة الطويلة يضيئها نور خافت، أجلس فيها مع هوغو، وأفكّر في إميلي الموجودة في الخارج، عند الجهة الأخرى من الشارع وبين الحشود التي كانت تتحرّك، وينقص عددها، ويتضاءل، وتغادر المكان. إلى ورائنا تمتد تلك المنطقة الأخرى غير المحددة التي تتغير وتذوب وحيث تعيد الجدران، والأبواب، والغرف، والحدائق، والناس تكوين نفسها من جديد باستمرار مثلما تفعل السحب.

في تلك الليلة كان القمر منيراً، وظهر أن ثمة ضوءاً في الخارج أكبر مما في داخل شقتي. وغصّت الأرصفة بالناس وعلا الضجيج.

بدا من الواضح أن الحشد قد انقسم إلى نصفين: وكان أحد النصفين على وشك الخروج إلى الشوارع.

بحثت عن إميلي وسط هؤلاء الناس بيد أنني لم أستطع رؤيتها. ثم وجدتها بعد حين مع النصف الثاني من الحشد الذي آثر البقاء في مكانه. انهمكنا جميعاً – أنا، وهوغو، والنصف الثاني من الحشد الذي لم يغادر مكانه بعد، ومئات الناس الذين أطلوا من نوافذهم على الرصيف – في مراقبة الناس المهاجرين وهم يشكلون فرقاً تتكوّن من أربعة أو خمسة أشخاص يمشون جنباً إلى جنب. لم يبدُ على هؤلاء أنهم يرحلون ومعهم أشياء كثيرة. كان فصل الصيف على الأبواب. أما المقاطعة التي من المقرر أن يتجهوا إليها فلم تتعرّض إلى السلب والنهب بعد كما يعتقد. كان معظم هؤلاء الشبان من اليافعين، ولم يبلغ أي واحد منهم العشرين من عمره بعد. إلاّ أنهم كانوا يضمون عائلة تتكوّن من أب وأم وثلاثة أطفال. كان الطفل الصغير يحمله أحد الأصدقاء أما الأم فحملت الطفل الرضيع على ظهرها بينما حمل الأب أكبر الأولاد على كتفيه. كان ثمة قادة يتقدّمون الحشد وهم يتكونون من ثلاثة رجال: ولم يكن هؤلاء في أواسط العمر أو من كبار السن، بل كانوا أكبر الشبان سناً. لقد سار اثنان من هؤلاء الرجال مع زوجتيهما في مقدمة الحشد بينما سار الثالث مع زوجته في النهاية. كانت معه فتاتان أخريان. أما الحشد نفسه فكان يضم نحو أربعين شخصاً.

كانت هناك عربة يد كالتي يستخدمها المرء في المطارات ومحطات سكك الحديد تحتوي على الخضراوات والحبوب وبعض ممتلكات المسافرين. في اللحظة الأخيرة دفع اثنان من الشبان، وهما يضحكان، على الرغم من الإحساس بالخجل الذي كان يبدو عليهما، رزمة رخوة ينضح منها الدم ووضعاها في العربة.

وكان هناك ثلاث رزم صغيرة من القصب تحملها ثلاث فتيات كمشاعل متوهجة فتسير إحداهن في المقدمة والأخرى في الوسط أما الثالثة فتسير في المؤخرة. كانت المشاعل هذه تبعث نوراً أقوى من نور

الشارع الذي غالباً ما يكون باهتاً إن لم يكن خابياً تماماً. تقدّموا في سيرهم صوب الشمال الغربي وأنوار المشاعل تنير لهم الطريق، وهي مرفوعة قريباً من رؤوسهم بينما النيران تتساقط منها. كانوا يغنون أغنية *دلّني على الطريق إلى البيت* دون أدنى اهتمام بما تحمله من أسىً يبعث على الضحك. غنوا أيضاً *لن نتحرك وهناك قرب النهر*.

رحلوا عن الرصيف الذي لبث فيه عدد لا بأس به من الناس الذين بدا أنهم تمالكوا أنفسهم وسرعان ما تفرقوا. فعادت إميلي صامتة، وبحثت عن هوغو الذي كان قد عاد إلى مكانه قرب الجدار، فجلست بالقرب منه، ورفعت الجزء الأمامي من جسده فوق حضنها. جلست في مكانها وهي تحتضنه وتنحني فوقه. كان في استطاعتي أن أشاهد الرأس الأصفر الكبير وقد اتكأ على ذراعها. كما كان في وسعي أن أسمع صوت حشرجاته أخيراً.

أدركت الآن أنها بينما كانت تريد أن تربط نفسها بمستقبل أولئك المقامرين المتوحشين، فإنها لم تكن مستعدّة للتضحية بهوغو. أو أنها كانت في حالة صراع على الأقل. استطعت أن أتشبّث بالأمل. لكن حتى في الأوقات التي راودني فيها الأمل، تساءلت مع نفسي عن السبب الذي يجعل بقاءها معي يهمني. تبقى مع من؟ معي أنا؟ هل ظننت أنه من المهم أن تبقى في المكان حيث تركها ذلك الرجل؟ حسناً. إن إيماني بذلك أخذ يفتر. إلاّ أن بقاءها على قيد الحياة كان يهمني على ما أعتقد. إذ من يستطيع أن يحدّد المكان الذي يمكن أن تتمتّع فيه بأعلى درجات الأمان؟ هل فكّرت أنه ينبغي لها أن تظل مع حيوانها؟ نعم. وهذا أمر غير معقول لأن هذا المخلوق ليس سوى حيوان. إلاّ أنه ملكها، فهي تحبه ولا بدّ لها من أن ترعاه. لم يكن في استطاعتها تركه دون إلحاق الأذى بنفسها. هذا ما قلته لنفسي، وتحدثت إليها، وطمأنتها، وتحدثت أيضاً إلى ذلك المعلم الخفي، الرجل الذي ترك إميلي تحت رعايتي واختفى: كيف لي أن أعرف ماذا أفعل؟ أو كيف أفكّر؟ وإذا ارتكبتُ أي

هفوة فمن هو المسؤول؟ إنه لم يخبرني بأي شيء، ولم يترك أي تعليمات. ولم تكن عندي أي وسيلة أعرف بها نمط الحياة التي سأعيشها، أو كيف ستعيش إميلي.

عثرت وراء الجدار على غرفة عالية إلاّ أنها لم تكن واسعة جداً. لم تكن تحتوي على أي أثاث سوى مسند قرب جانبين اثنين منها، وكانت ثمة سجادة مفروشة على الأرض إلاّ أنها كانت تفتقر إلى الحياة. كانت مطرّزة بنقوش بديعة إلاّ أن ألوانها باهتة. وكان ثمة معرض أو سوق هنا في هذا المكان، وفيه عدد من السجاد، والملابس، وقطع من نقوش شرقية، وملابس قديمة، وكل شيء يمكن أن يخطر على البال. كان بعض الأشخاص يقفون في الغرفة. وبدا الأمر لأول وهلة أنهم لا يفعلون شيئاً. لكن أحدهم أخذ قطعة من القماش من فوق المسند، وانحنى كي يلائمها مع السجادة. انظر. إنها تناسبها تماماً. ووضعت القطعة فوق النقش فعادت إليها الحياة من جديد.

كان ذلك أشبه بلعبة من لعب الأطفال كبيرة الحجم. إلاّ أنها لم تكن لعبة بأي حال من الأحوال، بل كانت شيئاً مهماً للجميع، لا لأولئك المعنيين بهذا العمل. ثم انحنى شخص آخر ومعه قطعة أخرى اختارها من الكومة ذات الألوان المختلفة والموضوعة فوق المسند، فلاءمها، واعتدل مرة أخرى لكي يحدّق إلى أسفل. وقفوا جميعاً بصمت وعددهم يزيد عن العشرة، وحوّلوا أنظارهم من نقوش السجادة إلى كومة الأقمشة على المسند. كانت نظراتهم تنمُّ عن العرفان والتقدير، وتشوبها ابتسامة الإحساس بالسعادة أو الارتياح. لا توجد أي منافسة هنا، بل تعاون مفيد. دخلت الغرفة، ووقفت على السجادة، أنظر إليها كما فعلوا هم أنفسهم لأشاهد النقص الذي يشوبها: نقش بلا لون، ما عدا الأماكن التي وضعت فيها القطع. لهذا أصبحت أجزاء من السجادة ذات بريق خافت كأنها مغسولة بينما كانت أجزاء أخرى لامعة جداً وكاملة. بحثت عن قطع قد تعيد الحياة إلى السجادة، وعثرت على واحدة، فانحنيت إلى الأسفل كي

ألائمها قبل أن يدفعني ضغط ما إلى الحركة مرة أخرى. فأدركت أن المكان من حولي يعج بالناس الذين سيأتون إلى هذه الغرفة لمشاهدة هذه الفعالية الرئيسة وليعثروا على القطعة المناسبة لوضعها في المكان الملائم قبل أن ينطلقوا في مهمة جديدة. تركت تلك الغرفة الطويلة التي اختفى سقفها في لجة الظلام حيث تصورت أنني شاهدت بريق نجمة، تلك الغرفة التي كان جزؤها المنخفض يسبح في نور ساطع لفّ الأشباح الصامتة وكأننا تحت أضواء المسرح. تركتهم وتقدّمت إلى أمام فاختفت الغرفة. لم أتمكن من العثور عليها عندما التفت لرؤيتها ثانية ولتحديد موقعها. إلاّ أنني عرفت أنها كانت موجودة في انتظاري. عرفت أنها لم تختف وأن العمل فيها استمرّ على قدم وساق ولا بدّ له أن يستمرّ وأنه سيستمرّ دائماً.

* * *

يبدو أن هذا الزمان استمرّ طويلاً، إلاّ أنه في الحقيقة كان قصيراً ولم يتجاوز بضعة أشهر. فهناك أحداث كثيرة حصلت وكل ساعة تبدو مليئة بالتجارب. أما من الناحية الظاهرية، فكل ما فعلته هو أنني عشت هناك بهدوء، عشت في تلك الغرفة مع هوغو وإميلي. كانت الفوضى تضرب أطنابها في الداخل. فالشعور ينتاب المرء في بعض فترات الحياة عندما يكون كل شيء في حالة تحوّل وحركة ودمار – أو إعادة بناء، وهو ما لم يكن واضحاً في ذلك الوقت – إنه الشعور بالعجز وكأن المرء يدور في دوامة.

غير أنني لم أكن أملك بديلاً سوى الاستمرار بالعمل الذي قمت به: المراقبة والانتظار. مراقبة إميلي طيلة الوقت تقريباً، تلك الفتاة التي كانت غريبة على ما يبدو سنوات عدة. غير أن الأمر ليس كذلك. إذ إن الشعور بالقلق عليها هو الذي جعل الساعات تمضي بطيئة. أما الحيوان الأصفر فقد جلس بهدوء وهو يداري حزنه – وأقسم أنه كان يفعل ذلك رغم أنه حيوان – حتى يظهر بمظهر الرزين، ولا يكشف عن جروحه.

فلقد جلس بهدوء قرب النافذة في مكان يقع وراء الستائر يتحرك إلى الأمام أو الخلف أو يضطجع قرب الحائط متخذاً وضعاً حزيناً، رأسه فوق قائمتيه الأماميتين وعيناه الخضراوان ثابتتان. ظلّ في مكانه ساعة إثر الأخرى متأملاً؛ أفكاره. ولم لا؟ فلقد فكّر وحكّم تماماً مثلما تفعل الحيوانات إذا ما شاهدها المرء وراقبها بلا تميّز. ينبغي لي أن أقول هنا – طالما أنه لا بدّ من قول شيء ما عن هوغو في مكان ما – إن سلسلة التعليقات التي كان يثيرها مثل هذا الإعلان لا صلة لها بالموضوع. فحياتنا العاطفية تشاركنا فيها الحيوانات. نحن نخدع أنفسنا بأن العواطف البشرية أكثر تعقيداً من عواطف الحيوانات. ولعل العاطفة الوحيدة التي لا تعرفها قطة أو كلب هي عاطفة الحب الرومانسي. لكن حتى في مثل تلك الحالة لا بدّ لنا أن نتساءل. أليس تعلّق الكلب العاطفي بسيده أو سيدته يشبه ذلك الحب؟ أليس حب هوغو لإميلي هو شيء من هذا القبيل. أما عن أفكارنا، ووسائلنا الثقافية، وعقلانيتنا، ومنطقنا، واستنتاجاتنا وغيرها، فمن الممكن القول بثقة تامة إن الكلاب، والقطط، والقرود لا تستطيع صنع صاروخ كي تطير به إلى القمر أو تحوك مواد أقمشة صناعية من مخلفات النفط. لكننا في الوقت الذي نجلس فيه بين حطام العقل هذا، فمن الصعب إعطاؤه قيمة عالية: أعتقد أننا نبخس قيمته الآن تماماً مثلما بالغنا في قيمته فيما مضى. ولا بدّ أن يجد مكانته؛ وأعتقد أن مكانته ستكون منخفضة عند ذلك الحدّ.

أعتقد أن الكائنات البشرية كانت تراقبها طيلة هذا الوقت؛ فهي مخلوقات فهمها ومداركها متقدمة جداً أكثر من أي مخلوق آخر عرفناه، ذلك لأن غرورنا سيجعلنا نصاب بالذعر إذا علمنا بذلك، وسنشعر بالهوان. لقد عشنا مع هذه المخلوقات مثل قتلة شرسين لا يعرفون الرحمة وقد راقبتنا هذه المخلوقات وعرفتنا. هذا هو السبب الذي يجعلنا نرفض الاعتراف بذكاء المخلوقات التي تحاصرنا. إذ سيكون ذلك صدمة لكرامتنا، كما أن الحكم الذي يتعيّن علينا إصداره بحق أنفسنا

فظيع جداً. وهو يشبه بهذا تلك العملية التي تضطر شخصاً ما أن يواصل اقتراف الجرائم أو يتصرّف بقسوة عن سابق معرفة. إن التوقف لرؤية ما اقترفه المرء من شأنه أن يغدو مؤلماً جداً، وليس في وسع المرء مواجهته.

إن الناس يحتاجون إلى عبيد، وضحايا، وتابعين. تمثل الحيوانات الأليفة شيئاً من هذا لأنها خلقت من أجل القيام بالعمل الذي نتوقعه منها، تماماً مثلما تكون الكائنات البشرية على النحو الذي يجب أن تكون عليه. لكن ليست كل الحيوانات هكذا. إن الأمر ليس كذلك أبداً. فنحن على امتداد سنوات عمرنا نجد أنفسنا وقد رافقتنا، حيثما نذهب، مخلوقات تحكم علينا وتتصرّف في بعض الأوقات تصرفاً نبيلاً نطلق عليه... تصرفاً إنسانياً.

كان هوغو هذا المخلوق الأخرق في علاقته مع إميلي رقيقاً مثل عاشق راضٍ بالشيء القليل طالما أنه في حضرة المحبوب. هذا هو الشيء الذي فرضه على نفسه: فهو لن يسأل، ولن يطالب، ولن يثير القلاقل. إنه ينتظر مثلي تماماً. كان منشغلاً بالمراقبة مثلي أيضاً.

كنت أقضي الساعات الطويلة معه. أو أنني رحت أجلس في الأوقات التي كانت فيها أشعة الشمس تسقط على الجدار، وأنتظره كي ينفتح، أو أنني أطوف في الشوارع وأصغي إلى الأخبار والإشاعات والمعلومات شأني في ذلك شأن بقية الناس وكنت أسأل نفسي: ما الذي يمكنني أن أفعله في أفضل الأحوال؟ علماً أنني قرّرت عدم القيام بأي عمل في ذلك الوقت. وسألت: إلى متى ستظل هذه المدينة صامدة بعد أن تآكلت من كل النواحي؟ فخدماتها اختفت، وسكانها يهربون، وموادها الغذائية في تناقص مستمر، وقانونها ونظامها هما مما يفرضه المواطنون على أنفسهم، ويتمثل في الانضباط الغريزي، بل حتى في الاهتمام بالآخرين الذين يعانون من الأزمة نفسها.

بدا أن التوتر الناجم عن الانتظار تصحبه حدّة جديدة. لعل هناك

سبباً واحداً وهو الطقس. فقد حلّ فصل الصيف حاراً وجافاً، والشمس تبدو مغبرة. لقد امتلأ الرصيف المقابل لنافذتي بالناس مرة أخرى. إلاّ أنني فقدت الاهتمام بما يدور هناك في الخارج. كما أن عدد الرؤوس المطلة من النوافذ أخذ يتضاءل بعد أن أصبح المشهد مألوفاً لدى الناس. فكل شخص كان يعرف أن نصف الرصيف سيفرغ تقريباً عندما تنطلق قبيلة أخرى. حمدنا الصدفة التي اختارت شارعنا كي يكون نقطة التجمع للرحيل عن الجزء الذي نسكنه من المدينة. فالآباء يعرفون ما يفعله أبناؤهم حتى وإن لم يرق لهم ذلك. لقد أصبح من عادتنا أن نراقب خليطاً عجيباً من الناس يحتشدون على امتداد الرصيف، ومعهم حاجياتهم الصغيرة، ومن ثم يرحلون وهم يغنون أغاني الحرب القديمة أو أغاني ثورية بدت غير ملائمة في تلك المناسبة تماماً مثلما هي أغاني الجنس غير ملائمة لكبار السن. لم ترحل إميلي، بل كانت تعدو مسافة قصيرة برفقة بعض الفتيات الأخريات، ثم لا تلبث أن تعود أدراجها إلى البيت مغلوبة على أمرها فتطوّق هوغو بذراعيها، وتضع رأسها فوق جلده الأصفر. كان يخيل لمن يشاهدهما أنهما يبكيان وهما يربضان معاً حزينين يهدّئ أحدهما الآخر.

الشيء الآخر هو أن إميلي أصبحت عاشقة. إنني أدرك تماماً أن هذه العبارة قد لا تكون مناسبة للأزمنة التي أتحدث عنها. فقد أحبت شاباً بدا من المحتمل أنه سيقود الدفعة التالية من المهاجرين عن المدينة. ولكن، على الرغم من ملابسه الغريبة، كان رجلاً عميق التفكير أو على الأقل من أولئك الذين يتخذون القرارات ببطء. فهل كان مراقباً بمزاجه إلاّ أنه دفع دفعاً إلى العمل في ذلك الزمان؟ على أي حال، كان مرشداً طبيعياً لليافعين، واليائسين، والحزينين. هذا ما عرف به بين الجميع مما جعله عرضة للمناكدة بل والنقد في بعض الأحيان؛ إذ إنّ مثل هذه الرقة تعدّ أمراً غير ضروري لمتطلبات البقاء على قيد الحياة. ولعل هذه الصفة هي التي جذبت إميلي إليه.

اعتقد أن ثقتها فيه كانت كبيرة جداً، حتى أنها فكّرت أن تأخذ هوغو إلى حشود الدهماء في محاولة ثانية، غير أن الأمر بدا وكأنه قد خرج من يديها وأصبح رهن إشارة هوغو الذي كان يشعر به؛ إذ ارتجف واقشعر بدنه مما اضطرها إلى تطويقه بذراعيها وهي تقول: "لا يا هوغو. لن أفعلها ثانية. إنه وعد. هل سمعتني؟ لقد وعدتك. أليس كذلك؟"

حسناً، ها هي أخيراً مفتونة. إنه الحب الأول كما يُعرف، وهو حب المراهقة الذي سرعان ما يزول. وهو مثل كل حب يتسم بالمعاناة، وكل لحظة فيه يسودها التوتر الشديد والجدية تماماً مثل حب البالغين. يعد هذا الحب *أول وأخطر* حب لأنه كان حباً متبادلاً أو على الأقل معترفاً به.

أتذكّر أنني كنت أفكّر دوماً إذا كان هؤلاء الشبان يقول أحدهم للآخر: أحبك. هل تحبني؟ وهل سيدوم حبنا... إلخ، وهم لا يملكون ما يسدون به رمقهم، والذين لا يفكّر زوجان اثنان منهم بالخلو إلى بعضهما وراء الكواليس إلاّ إذا كان ذلك لن يأخذ منهم سوى ساعات أو أيام قليلة، وفي أحد البيوت المهجورة في مكان ما، أو في ملجأ ما في أحد الحقول. إن هذه العبارات التي يتفوهون بها تبدو مثل أدلة أو وثائق على امتلاك حالات وأوضاع أصبحت الآن نسياً منسياً.

غير أن إميلي كانت تتعذب وتشعر بالألم مثل أي شخص في مثل عمرها. فهي رخوة مثل قطعة طازجة من الخبز بعد أن أحبّت شاباً في الثانية والعشرين من عمره اختارها على نحو غريب لا سبيل إلى توضيحه. فأصبحت فتاته التي اختارها من بين فتيات كثيرات. كانت تقف معه على الرصيف، وتذهب معه في بعض المهمات، بينما كان الناس يشعرون بالبهجة، بل والأهمية عندما كانوا يقولون لها: "يقول جيرالد..." و"يريد منك جيرالد أن...".

وكانت من الألم تحلّق صوب النشوة فوراً عندما تقف بجانبه

متألقة وجميلة بعينيها الناعستين، أو كانت تطرح نفسها فوق الأريكة في ركن الغرفة كي تتفرد بنفسها لبرهة وجيزة، أو لتصبح بعيدة عنه لأن ذلك أصبح فوق طاقتها وهي بحاجة إلى فترة راحة. لقد أعمتها الدهشة فلم تعد تبصرني أو تبصر ما يحيط بها. كنت أعلم أنها تحدث نفسها وتقول: "إنه اختارني أنا، أنا. وهذا لا يعني أنني في الثالثة عشرة فقط. الناس الذين في مثل سني يفكّرون هكذا. إن الفتاة مستعدّة لمصاحبة الرجل عندما يكون جسدها مستعداً أيضاً".

بيد أن حياة هؤلاء الشبان مشاعة للجميع. كما أن المصاحبة أبعد ما تكون محوراً للعلاقة عندما يختار كل واحد رفيقته. لا. إن أي تحقق فردي لا يمثّل أي شيء بجانب عملية الاختلاط الدائمة هذه مع الآخرين. المسألة تشبه طقوس أكل عملاقة تجري أمامنا. فكل واحد يذوق الآخر، ويلعقه، ويقذف عليه، ويتعرّف إليه في هذه العملية. يحدّقون ببعضهم بعضاً ويحكّون أكتافهم وأجسادهم ويتبادلون الأحاديث.

لكن بينما كانت إميلي جزءاً من هذا العمل الجماعي، والاحتفال الجماعي، فإنها كانت في الوقت نفسه تشعر مثلما شعرت بقية الفتيات في السابق. أنا أعلم أنها كانت تريد أن تتفرد بجيرالد. كانت تحب أن تخوض غمار تلك التجربة العريقة.

إلا أنها لم تتفرد به أبداً.

ما تريده غير صحيح. كانت تشعر أنها مخطئة، بل ومجرمة، أو على الأقل يجب أن تُلام. باختصار كانت مفارقة تاريخية.

لم أقل شيئاً لأن مستوى علاقتنا لم يكن يسمح لي أن أسأل أو أن يجعلها تتطوع بالكلام.

كل ما عرفته إنما كان من خلال مشاهدتي. كانت تمتلئ بعنفوان الرغبة التي تتفجر في أعماقها، فتغشي عينيها، وتهزّ جسدها، فتصيبها بالدهشة؛ تلك الرغبة التي لا سبيل إلى إيقافها أو الحد منها بعناق على الأرض في إحدى الغرف الخاوية أو في ركن حقل ما. كانت الحياة

تجري من حولها، وكان جيرالد في خضمّ ذلك كله. فحيثما توجهت لقضاء بعض الأشغال أو المهمات، تجده هناك كفؤاً، وواقعياً، ومشغولاً بأمور مهمة. أما هي فكانت أسيرة عدو متوحش، تنتابها رغبة عارمة من الفرح والحزن. لو أظهرت ما تشعر به جراء نظرة أو كلمة غير صحيحة فما الذي يحصل عندئذ؟ من شأنها أن تضيّع بيتها هنا بين هؤلاء الناس، بين قبيلتها... وهذا هو السبب الذي طالما دفعها إلى أن تتوارى وراء الأبواب، وأن تُزحف قرب صديقها هوغو فتطوقه بذراعيها. إذا فعلت ذلك، كان هوغو يطلق آهة حيث إنه يعرف جيداً سبب مصاحبتها له.

هناك موقفان متناقضان: فقد استلقت إميلي وخدها فوق الشعر الأصفر الخشن، وإحدى يديها الطفوليتين تطوق أذناً مخشوشنة، وجسدها المتوتر يعبّر عن الفراغ والحنين. أما الجدار المجاور لي فقد ذكّرني مرة أخرى بسهولة فتحه المفاجئ. وجدت نفسي أسير صوب أحد الأبواب، وكانت الأصوات تنبعث من ورائه: ضحكة هستيرية، وصراخ، واحتجاج. فتحت الباب على ذلك العالم الذي يثير هواؤه الإزعاج، وانقباض النفس، والإحساس بالضآلة فوجدته عالماً يضجّ بالحياة. فالألوان باردة وصارخة مثل تقويم قديم. كان المكان مغلقاً، وحاراً، وكل ما فيه كبير الحجم، بل أكبر من الحجم الطبيعي. مرة أخرى هذه هي نظرتي الطفولية التي ما زلت سجينتها. الضخامة والضآلة؛ عنفوان العواطف وعدم أهميتها؛ تناقضات ومستحيلات راسخة شكّلت جزءاً من مادة أي شيء يراه المرء عندما يدخل ذلك الجو الخاص. كان المكان عبارة عن غرفة نوم. مرة أخرى، هناك نار مشتعلة في الجدار وراء حاجز حديدي طويل. كانت الغرفة ثقيلة، وكثيفة، ومشبعة، وهواؤها هو الزمان نفسه. كانت دقات الساعة تُسمع بمثابة شرط لكل لحظة من لحظات الإنسان وأفكاره. وكان الضوء الساطع يغمر الغرفة بلونه الأحمر الذي كانت الظلال فيه تتقاطع فوق

الجدران وعلى السقف والستائر البيضاء الرقيقة والطويلة جداً والتي كانت تمتد على طول جدار يواجه سريرين اثنين هما سرير الأب وسرير الأم، سرير الزوج وسرير الزوجة.

لسبب ما، شعرت أن الستائر أثارت شجوني ولا سيما رقتها ونعومتها إذ كانت مصنوعة من موسلين أبيض اللون وفيه حياكة بارزة بينما كانت الخطوط تملأه. كان اللون الأبيض يرمي إلى الخفة، والشفافية، والسماح للشمس بالدخول، بينما كان هواء الليل يتعثر في دخوله فيزداد ثقله، ويظل معلقاً في الأقمشة التي كانت تعزل الهواء والضوء فتعكس النور المتوهج في مدفأة الجدار ذات الحاجز المعدني.

جلست الأم في أحد جوانب الغرفة مع طفلها الرضيع الذي يرتدي ملابس صوفية مبللة دوماً. كانت تطوقه بذراعيها، بل كانت مستغرقة في التأمل فيه بينما جلس رجل يشبه الجنود على كرسي تجاه الستائر، وركبتاه متباعدتان، وتطبقان على الطفلة الصغيرة التي وقفت وهي تصرخ. كانت تلوح على وجهه وتحت شاربيه ابتسامة صغيرة وهو يداعب الطفلة الصغيرة. فقد كانت هذه المداعبة *لعبته ولعبة* ساعة الذهاب للنوم وطقساً من الطقوس. كانت الطفلة الكبرى هذه تحظى بقسط من اللعب، والإرهاق، والاهتمام قبل أن تذهب إلى النوم. كان الأب يؤدي هذه المهمة عوضاً عن الأم التي لم تستطع أن تلبي احتياجات يومها، واحتياجات إميلي. كانت الطفلة ترتدي ثوب نوم طويل ذا كشاكش على الرسغين والرقبة. كان شعرها ممشطاً ومربوطاً بشريط. قبل بضع دقائق، كانت الطفلة نظيفة، وأنيقة، وجميلة وهي ترتدي ملابس النوم البيضاء وتضع على رأسها شريطاً أبيض. أما الآن فقد باتت تشعر بالحرارة، وأخذت تنــز عرقاً بينما جسدها يتلوى في محاولة للهرب من قبضتي الرجل الكبيرتين اللتين كانتا تطبقان على صدرها فتعصره عصراً شديداً، في محاولة للهرب من الوجه الكبير القاسي الذي انحنى فوقها، ودنا منها بنظراته التي تنمُّ عن

الرضا الخاص. كانت الغرفة تبدو مثقلة بحزن عظيم، والخوف من أن تظل الفتاة أسيرة في ذلك الوضع فترة طويلة، وضرورة أن تبقى خاضعة للتعذيب هكذا طالما أن هذا كان يروق لمن أسرها. وصرخت: "لا، لا، لا، لا". لكن دون فائدة فقد ظلت على ذلك الوضع والرجل يتفحصها ويعريها.

لم تكترث الأم لذلك. بل لم تكن تعرف ما يجري أو ما كانت الفتاة تعاني منه. لأن ذلك كله ليس إلاّ *لعبة*، وأن الصراخ والاحتجاج كانا صادرين عن طفولتها هي ولهذا السبب فهما أمران صحّيان ومقبولان. بدت دون أي انفعال، وكان عدم مبالاتها دليلاً على جهلها بينما استمرّت في حديثها مع طفلها الرضيع ذي الفم المفتوح والخامل. أما الأب، فواصل مهمته وهو ينظر بين الفينة والفينة إلى زوجته نظرة تنمُّ عن الغموض: إنها نظرة تعبّر عن الشعور بالذنب، إلاّ أنه غير مهتم بذلك. نظرة توسل لأنه شعر أن ما يفعله خطأ ولا بدّ من وضع حدٍّ له. ونظرة دهشة لأن هذا الأمر مسموح به ومنها بالذات لأنها ليست فقط لم تحتج بل شجعته على مواصلة (اللعبة). كانت تمتزج بكل هذه النظرات نظرة أخرى لم تفارق وجهه أبداً في أي وقت من الأوقات؛ نظرة تعبّر عن عدم تصديقه لما يجري والذي يكاد يستحيل حدوثه. أرخى ركبتيه، وتظاهر بأنه سيطلق سراح الفتاة التي أوشكت على السقوط. ولما أمسكت إحدى ركبتيه كي تقف على قدميها وتحاول الهرب وجدت أن ركبتيه عادتا لتطبقا من جديد على جانبيها. بدأ العذاب من جديد، وقال الرجل الضخم: "هيا، هيا، هيا يا إميلي". وملأها برائحة التبغ والملابس الوسخة. ثم واصل كلامه: "والآن هيا. حسناً، ها أنت هنا. أرأيت؟" وأطبقت أصابعه السميكة والأضخم من أي عظم من عظام صدرها على جانبيها مما جعلها تصرخ وتستغيث.

تلاشى هذا المشهد مثل شرارة أو كابوس، وكان الرجل نفسه يجلس في الغرفة نفسها ولكن على كرسي قريب من السرير. كان

يرتدي ملابس نوم بنية اللون مصنوعة من نسيج صوفي ثخين يشبه القماش الذي تصنع منه ثياب الجنود. استمرّ يدخّن وهو يراقب زوجته الضخمة والمتعافية التي كانت تنــزع ملابسها على نحو سريع وبارع وترميها على الجزء المجاور لها من السرير والقريب من مدفأة الجدار. لقد حلّ الصيف الآن، وفي المدفأة زهور حمراء. أما الستائر فكانت ساكنة بيضاء، إلاّ أنها مفتوحة مما جعل زجاج النافذة يبدو أسود اللون وهو يعكس صورة الرجل، والغرفة، وحركات المرأة. لم تكن تشعر بوجود زوجها الذي جلس في مكانه يراقبها وهي تتعرى أمامه، وتتحدث عن متاعبها، وعن اليوم الذي قضته؛ من أجله ومن أجلها: "في الساعة الرابعة أصل حدّ الإعياء، فالفتاة ظلت نصف النهار فقط، والطفل ظلّ صاحياً طيلة الصباح، ولم ينم إطلاقاً. كما أن إميلي كانت كثيرة الطلبات هذا اليوم... و.. و..." استمرّت الشكوى وهي تقف عارية تبحث عن بيجامتها. بدت امرأة قوية البنية رائعة ذات بشرة بيضاء صافية ونهدين صغيرين مكورين. أما الحلمتان فعذريتان لا تتاسبان امرأة أنجبت طفلين؛ فهما صغيرتان وتحتويان على هالتين صغيرتين ورديتين. أما شعرها الكثيف فتهدل على كتفيها. ثم حكّت فروة رأسها وتحت إبطها حيث رفعت ذراعها قليلاً فبانت آثار شعر طويل بني اللون. أما على وجهها فقد لاحت أمارات الرضا المتوتر التي كان من شأنها أن تثير رعبها لو قدّر لها أن تراها. ثم انتقلت إلى تحت إبطها الثاني فحكّته، وأخذت بعد هذا تحك جسدها كله بلذة مستخدمة كلتا يديها، مبتدئة بصدرها، وردفيها، وبطنها. إلاّ أن يديها لم تصلا إلى أبعد من ذلك، بل ظلتا تحكان تلك المناطق من جسدها مدة دقيقتين اثنتين. فظهرت العلامات الحمراء على الجسد الأبيض القوي، وكانت تصدر عنها ارتعاشة اللذة بين الفينة والفينة. أما زوجها فقد ظلّ جالساً يراقبها وعلى وجهه ابتسامة صغيرة. وبعد أن رفع سيجارته إلى فمه أخذ منها نفساً عميقاً ما لبث أن نفثه من فمه ومنخريه.

انتهت زوجته من الحك، وتكوّرت داخل بيجامة قطنية ذات بقع وردية، وبدت فيها مثل تلميذة مرحة. أما وجهها فبدا متعطشاً للنوم. وسرعان ما استغرقت في الخيال متناسية كل شيء بعد أن دخلت سريرها وكأن زوجها غير موجود. بحركة واحدة اضطجعت فوق السرير، وأدارت ظهرها له. تثاءبت. ثم تذكّرته: هناك شيء تريد أن تفعله قبل أن تسمح لنفسها بهذه المتعة الفائقة. فانقلبت إلى الجهة الأخرى وقالت: "طابت ليلتك أيها العجوز". ثم نامت ووجهها نحوه. اعتدل في جلسته، وواصل التدخين بينما شرع يتفحصها على نحو واضح. كانت المتعة متوفرة، وعدم التصديق، وفي الوقت نفسه الصرامة التي بدأت بالنظر إليها كنوع من الإفلاس المعنوي وحتى كنقص في الحيوية والتي أصبحت منذ عهد طويل حكماً على نفسه وعلى الآخرين.

أطفأ سيجارته، ونهض من على كرسيه برفق كأنه يخشى أن يوقظ طفلاً ما وذهب إلى الغرفة المجاورة وهي غرفة الطفلين وتحتوي على ستائر من المخمل الأحمر، وكل ما عدا ذلك أبيض اللون. هناك سريران للطفلين أحدهما صغير والآخر كبير. سار برقة، فهو رجل كبير بين آلاف الأشياء الصغيرة جداً التي يستعملها الأطفال ومرَّ من أمام السرير الصغير، وتوجه صوب السرير الكبير، ووقف عند نهايته، ونظر إلى الفتاة الصغيرة التي غطّت الآن في النوم. كان خداها يتألقان بلون قرمزي بينما علت حبات العرق جبينها. بينما هي نائمة دفعت عنها الأغطية، وكان الأب لا يزال يراقبها. ثم انقلبت في نومها فتكوّم ثوبها عند خصرها، وبانت مؤخرتها الصغيرة ومؤخرة ساقيها الجميلتين. انحنى الرجل إلى الأسفل واستمرّ يحدّق إليها، وسمع صوتاً من غرفة النوم. كانت زوجته تتقلب في سريرها، وربما كانت تتحدث في نومها مما جعله يقف على قدميه، وينظر وهو يشعر أنّه مذنب. لكنه يتحدّى والأكثر من هذا فهو غاضب. ما سبب غضبه؟ كل شيء. تلك

هي الإجابة. ثم ران الصمت مرة أخرى. ودقت ساعة معلّقة على نحو منخفض في هذه الغرفة العالية معلنة تمام الحادية عشرة. انقلبت الفتاة مرة أخرى، واضطجعت على ظهرها، وبرزت معدتها إلى الأعلى. فجأة جذب الرجل أحد الأغطية، وغطّى به الفتاة، وثبّته بإحكام في السرير. سرعان ما بدأت تتلوى وتتذمر. فأوشك أن يفتح النافذة إلاّ أنه تذكّر أن ذلك ممنوع. فاستدار، وعاد أدراجه دون أن يلقي نظرة أخرى على السريرين حيث كان الطفل الصغير ينام بصمت وفمه مفتوح بينما الفتاة تكابد من أجل الخروج، من أجل الخروج، من أجل الخروج.

كانت هناك فتاة ترقد في سرير صغير في غرفة ذات نوافذ تطل على حديقة. غرفة ذات نكهة تشعرك بأنك في بلد آخر، غرفة تختلف عن بقية غرف هذا المنــزل. كانت الفتاة أكبر سناً، ومريضة، ومشاكسة. كانت أشد شحوباً ونحافة من أي وقت آخر رأيتها فيه. أما شعرها الداكن فكان رطباً ولزجاً تفوح منه رائحة العرق، وانتشرت فيما حولها الكتب، والألعاب، والمجلات الهزلية. كانت تتحرك بقلق باستمرار وتفرك أطرافها ببعضها بعضاً، فتقذف الأغطية، وتتقلب، وتدندن، وتغمغم ببعض الشكوى والأوامر مع شخص آخر. لقد انتابتها نوبة من حمى هائلة، ورغبات، وغضب. دخلت المرأة الضخمة الطويلة وهي مشغولة بقدح كانت تمسك به. وما إن رأت الفتاة القدح حتى أشرق وجهها. ها هو التحول أخيراً واعتدلت قليلاً في سريرها إلاّ أن الأم سرعان ما تركت القدح، واستدارت لتؤدي عملاً آخر.

توسلت الطفلة قائلة:

– ابقَيْ معي.

– لا أستطيع يجب أن أرعى الطفل.

– لماذا تسمّينه دائماً طفلاً؟

– لا أدري حقاً. من الطبيعي أن الوقت قد حان، لقد كبر الآن ولكنني أنسى دائماً.

- أرجوك. أرجوك.

- آه. حسناً جداً. دقيقة واحدة.

جلست المرأة في نهاية السرير وبدت متضايقة، بل وجزعة ومرهقة كعهدها دوماً، إلاّ أنها كانت مبتهجة أيضاً.

- اشربي عصير الليمون.

- لا أريده يا أمي. خذيني بين ذراعيك. خذيني بين ذراعيك.

- آه يا إميلي.

انحنت الأم إلى أمام، وضحكت بتملق، وقدّمت نفسها للطفلة التي سرعان ما طوّقتها بذراعيها وتعلقت بها. إلاّ أنها لم تلق أي تشجيع، وظلت تدندن وكأنها تخاطب نفسها: "خذيني بين ذراعيك". ولعلها كانت لا تخاطب إلاّ نفسها طالما أن المرأة أظهرت الدهشة لما كانت تتفوه به الطفلة. تحملت الذراعين الحارتين والصغيرتين برهة من الزمن إلاّ أنها لم تستطع منع نفسها من كراهية الجسد البشري، فرفعت يديها كي تبعد ذراعي الطفلة وقالت: "كفى الآن". إلاّ أنها مكثت قليلاً فالواجب استدعى بقاءها. لكن أي واجب هذا؟ لعله المرض. "إن الطفل المريض بحاجة إلى أمه". شيء من هذا القبيل. كان هناك شيء من اللامبالاة وعدم الاهتمام بين جسد الفتاة الصغيرة المتقد، والضروري، والمتلهف - والذي كان يريد أن يهدأ بعناق حار ويريد أن يضطجع قريباً من جسد قوي وضخم كالجدار، جسد مأمون لا يبغي التعذيب والعصر، ويريد الأمان والثقة - وبين جسدها وجسد أمها الهادئ الذي يتنفس بانتظام والمنهمك في العمل. لم يكن بينهما أي اتصال ولا طمأنينة مشتركة.

اعتدلت الفتاة الصغيرة قليلاً، ومدّت يدها، وتناولت القدح، وشربت ما فيه بلهفة. وفي اللحظة التي فرغ فيها القدح، نهضت الأم، وقالت:

- سأعد لك قدحاً آخر.

- آه، ابقي معي. ابقي معي.

– لا أستطيع يا إميلي. ها أنت صعبة المراس مرة أخرى.

– هل في وسع أبي الحضور؟

– إنه مشغول.

– ألا يستطيع أن يقرأ لي؟

– في وسعك أن تقرئي لنفسك. لقد أصبحت فتاة كبيرة.

خرجت الأم وهي تحمل القدح الفارغ، بينما أخرجت الفتاة قطعة بسكويت – سبق لها أن أكلت نصفها – من تحت الوسادة، والتقطت كتاباً، وشرعت تقرأ فيه وهي تأكل، تأكل وتقرأ، بينما أطرافها في حركة دائبة، تندفع لتعود كما كانت من جديد. أما يدها الأخرى فكانت تلمس بها خدها، وشعرها، وكتفيها، وجسدها كله. ثم مسّدت فخذيها ووضعت أحدهما فوق الآخر، وواصلت القراءة والأكل، الأكل والقراءة.

هناك كانت إميلي ترقد فوق أرضية غرفة الجلوس في شقتي.

– يا عزيزي هوغو... يا عزيزي، يا عزيزي هوغو. أنت ملكي، أنت حبيبي يا هوغو...

هنا امتلأت بنفاد صبر سخيف، وبعجز ينتاب الشخص البالغ وهو يراقب مراهقاً ينمو. كانت إميلي محاصرة بسنها، ولكن مشدودة بسلسلة إلى هذه المشاهد وراء الجدار، إلى الأرض التي أوجدتها، إلاّ أنها لم تكن تستطيع رؤية هذه المشاهد أو معرفتها، وكان يبدو من العبث أن أخبرها بها. فلو أقدمت على ذلك فإنها ستسمع كلمات لا غير. ومن تلك المنطقة المبهمة جاءها الأمر: "أنت كيت وكيت وكيت. وهكذا ينبغي أن تكوني ولا شيء آخر". كانت متطلبات سنها البيولوجية تراهن مراهنة دقيقة ومتوقعة على حياتها، فتجعلها وفق النمط الصحيح. ولسوف تستمرّ على هذا المنوال. ولا بدّ لها من ذلك، ولا بدّ لي من أن أراقبها. في الوقت المحدد ستجدها وقد امتلأت مثل وعاء بالخبرات والتجارب، وستخرج إلى العالم بعد أن تولد على أيدي بعض القابلات المدركات

والمعـــروفات من الجميع. وستبلغ النضوج وهي حالة مثالية ينظر إليها بوصفها تبريراً لكل التجارب السابقة وقمة الإنجازات الأخيرة والخاصة بهـــا. هـــذه القمة هي كيفية رؤيتنا للأشياء، وهي قمة بيولوجية: النمو والإنجـــاز الـــذي تحققـــه في قمة منحنى حياتها بصفتها كائناً، ومن ثم الانحـــدار نحـــو المـــوت. كلام فارغ، حقاً. لا معقول. إلاّ أنه كان من الصـــعب علـــيَّ أن أكتم وجهة نظري هذه تجاهها، وأن أنبذ التلهف في أثـــناء مراقبتـــي إياها وهي تتدحرج بجانب كلبها الأصفر وتتودد إليه، وأرغـــم نفسي على الإقرار بأن هذه المرحلة من حياتها مفيدة مثلما هي المـــراحل التالـــية؛ والتـــي من الممكن تلخيصها أو وضعها في صورة ابتسامة مقتدرة ولكنها هادئة. ذلك هو الشيء الذي كنت أنتظره حقاً (ولا بـــدّ أنها تترقب ذلك في داخلها)، وتلك هي اللحظة التي تترجل فيها عن دوامـــة الخـــيل التي تركبها ومن هذا المصعد الذي ينقلها من ظلام إلى آخر، عليها أن تترجل عنه نهائياً... ثم ماذا؟

* * *

حدث تطور جديد في الحياة على الرصيف. وارتبط هذا التطور بجيرالد وخاصة في حاجته إلى حماية الضعفاء وربط مصيره بمصيرهم؛ وهي حالة لا يمكن إدراجها ضمن ميزانية البقاء على قيد الحياة. على حين غرة، ظهرت مجموعة من الأطفال في التاسعة والعاشرة والحادية عشرة من العمر، ولم يكونوا مرتبطين بأي أسرة بل كانوا وحيدين. كان لبعضهم آباء، هربوا منهم أو لم يروهم إلاّ مصادفة. ولم يكن لبعضهم الآخر آباء فما الذي حدث لهم؟ الإجابة صعبة. فمن وجهة النظر الرسمية كان لا يزال لهؤلاء الأطفال آباء وبيوت وما شابه، وإلا فإنهم كانوا سيلقون الرعاية أو يوضعون تحت الوصاية. كانت وجهة النظر الرسمية تقول إن الأطفال يذهبون إلى المدارس بانتظام. غير أن المسألة تختلف عن ذلك في حقيقة الأمر. ففي بعض الأحيان كان بعض الأطفال يربطون أنفسهم بأسر أخرى إذا لم يعد في

وسع آبائهم التعامل مع الضغوط الكثيرة وإذا عجزوا عن تدبير الطعام والمؤن، أو إذا فقد الوالدان الاهتمام بهم فرمياهم خارجاً ليعيلوا أنفسهم بأنفسهم كما يفعل بعض الناس بالقطط والكلاب التي لم تعد تثير الاهتمام. كما أن بعض الآباء ماتوا بسبب أعمال العنف أو انتشار الأوبئة أو رحلوا عن المدينة وتركوا أطفالهم فيها. لقد مالت السلطات إلى تجاهل أمر هؤلاء الأطفال المشردين ما لم يلفت الانتباه لهم بصورة خاصة. غير أن الناس كان في وسعهم إطعامهم أو اصطحابهم إلى منازلهم. كانوا لا يزالون جزءاً من المجتمع، وهم يرغبون في ذلك. كانوا يتسكعون في المناطق المأهولة بالسكان، ويختلفون تماماً عن أولئك الأطفال الذين سأتطرق إلى وصفهم عمّا قريب والذين وضعوا أنفسهم خارج المجتمع تماماً وأصبحوا أعداءنا.

لاحظ جيرالد أن حوالى عشرة أطفال يعيشون فوق الرصيف، مما جعله يعتني بهم وفق طريقة منظمة. وهذا ما جعل إميلي تهيم به، وتدافع عنه ضد الانتقادات. إذ غالباً ما يقال بأنه يجب أن يسمح لكبار السن بالموت- وقد أضاف ذلك بعداً جديداً من الرعب إلى حياة هؤلاء الكبار المتوترة أصلاً والذين باتوا لا حول لهم ولا قوة - وإن الضعاف من هؤلاء ينبغي أن ينبذوا: وهذا ما كان يحدث حقاً، ولم يكن ذلك مثل عملية ينبغي التحكم بها بواسطة العواطف المريضة. غير أن جيرالد التزم بموقفه فبدأ يدافع عنهم عندما شرع الناس بمطاردتهم. كانوا ينامون فوق قطعة الأرض الخاصة بالنفايات والواقعة وراء الرصيف وسرعان ما صدرت الشكاوى بسبب انتشار الروائح والفضلات. والآن، سيحصل ما كنا جميعاً نخشاه أكثر من أي شيء آخر؛ وهو أن السلطة لا بدّ أن تتدخل.

كانت هناك بيوت وشقق خالية في المنطقة المحيطة بنا. وعلى بعد نصف ميل تقريباً كان ثمة بيت كبير فارغ وفي حالة جيدة. فأخذ جيرالد الأطفال إليه. كان التيار الكهربائي مقطوعاً عن البيت منذ فترة طويلة، ولم

يكن الناس يدفعون ثمن الكهرباء، بينما كان الماء لا يزال موجوداً فيه. أما النوافذ فكانت محطمة، لذا ثُبّتت مصاريع في نوافذ الطابق السفلي، بينما استخدمت قطع قديمة من مادة النايلون في نوافذ الطابق العلوي.

بات جيرالد أباً وأخاً لهؤلاء الأطفال، إذ كان يحضر لهم بالطعام بعد أن يحصل عليه متوسلاً من المحلات. وكان الناس كرماء جداً. تلك مسألة قديمة. فالمساعدة المتبادلة والتضحية بالنفس غالباً ما ترافقان الشدائد. كان غالباً ما يذهب إلى الريف للحصول على المؤونة إما عن طريق الشراء أو السرقة. والأفضل من ذلك كله أنه كانت توجد حديقة خلفية في المنـزل فعلمهم كيف يزرعونها. كان الكبار من الأطفال يحرسونها ليلاً ونهاراً وهم مسلحون بالبنادق، أو العصي، أو الأقواس والسهام، أو المنجنيق.

فأصبح هناك الدفء، والرعاية، والعائلة.

اعتقدت إميلي أنها حصلت على أسرة جاهزة.

ثم بدأ عصر جديد غريب. لقد كانت إميلي تعيش معي (في رعايتي) فرحة، إلاّ أن ذلك لا يزال سبباً لوجودنا معاً. أما هي فمن المؤكد أنها كانت تعيش مع هوغو الذي لم تكن تستطيع مفارقته. إلاّ أنها كانت تقول في كل مساء وبعد عشاء مبكر - وكنت أعد الطعام في وقت يناسب حياتها الجديدة - "أعتقد أنني سأخرج الآن، وأرجو ألاّ تمانعي في ذلك". كانت تذهب دون أن تنتظر سماع إجابتي، بعد أن تبتسم وتنظر إليّ وكأنني مذنبة، وتقبل هوغو في احتفال صغير خاص يشبه الوعد. إلاّ أنها كانت ترجع عادة وقت الضحى.

انتابني القلق حقاً بسبب الحمل. غير أن أعراف علاقتنا جعلت من المستحيل بالنسبة لي طرح الأسئلة. في جميع الأحوال فإن الشكوك راودتني في أن ما أعدّه أنا مسؤولية مستحيلة يمكن أن تقعدها وتدمرها من شأنه أن يجعلها تجيب قائلة: "وماذا في الأمر؟ الناس عندهم أطفال واستطاعوا تدبير أمورهم. أليس كذلك". قلقت أيضاً لأن

ارتباطها بهذه الأسرة الجديدة من شأنه أن يغدو ارتباطاً قوياً جداً يجعلها بالتالي تذهب بعيداً عنا، بعيداً عن هوغو وبعيداً عني. فكنا كلانا نجلس وننتظر، وأصبح الانتظار شغلنا الشاغل. ورافق أحدنا الآخر. إلا أنه ليس ملكي. ليس حيواني أنا. هذا شيء أكيد. فقد ظلّ ينتظر ويصغي إلى إميلي: كانت عيناه الخضراوان ثابتتين ويقظتين. وكان مستعدّاً دوماً للنهوض واستقبالها عند الباب. كنت أعلم أنها قادمة قبل أن تظهر للعيان لأن هوغو كان يشم رائحتها، أو يسمعها، أو يفطن لحضورها بغريزته، بينما لا تزال هي تبعد عنه مسافة بضعة شوارع. وعند الباب كانت العينان الخضراوان والعينان البنيتان تشتبك في شعلة من العواطف، فتطوّقه بذراعيها، وتطعمه، ثم تستحم، إذ لم يكن في بيت جيرالد حمام. ثم ترتدي ملابسها بعدئذ وسرعان ما تخرج إلى الرصيف.

بدت تلك الفترة كأن لا نهاية لها. كان فصل الصيف طويلاً، أما الطقس فلم يتغير يوماً واحداً وظلّ كما هو حاراً، وخانقاً، ومزعجاً، ومغبراً مما جعل إميلي، أسوة ببقية الفتيات، تعود إلى ارتداء الثياب ذات الأزياء القديمة، واستخدمت آلة الخياطة القديمة مرة أخرى لخياطة بعض الثياب الغريبة الشكل من ثياب أخرى قديمة اختارتها من السوق، أو أنها لجأت إلى ارتداء ملابسها القديمة نفسها. كانت الأرصفة هذه تبدو لامرأة في مثل سني غريبة جداً لما يعرض عليها من ملابس تشير إلى عقود من الزمان مختلفة فتمحو سلسلة الذكريات التي تقول: "ذلك هو العام الذي كنا نرتدي فيه...".

حرص جيرالد ومعه الأطفال الذين يرعاهم على الظهور يومياً وفي وقت مبكر من عصر كل يوم على الرصيف. هكذا فإن إميلي كانت تنفصل عن عائلتها ساعتين اثنتين يومياً عندما تزور البيت لتغيير ثيابها بعد أن تستحم، وكذلك ساعة واحدة تقريباً في المساء لتناول وجبة الطعام معي، أو بالأحرى مع هوغو. اعتقدت أن مجيئها إلى البيت

لقضاء مثل ذلك الوقت القصير إنما كان أمراً ضرورياً لها على الصعيد العاطفي: فهي بحاجة إلى فترة راحة من عواطفها ومن سعادتها. ففي ذلك البيت الكبير يطغى الفرح الغامر والنجاح والبهجة على كل شيء. كانت تعود من ذلك البيت مثل شخص يهرب وهو يضحك من زوبعة ثقيلة أو من موسيقى صاخبة جداً. فتستريح فوق أريكتي وهي تبتسم وترفرف كأنها مستعدّة للتحليق في الجو والاستمتاع بدفء الشمس والتودد إلى العالم كله. لم تكن تستطيع منع نفسها من الابتسام طيلة الوقت وحيثما حلّت، مما جعل الناس ينظرون إليها دوماً ومن ثم يتقدّمون منها للحديث معها، ولمسها ومشاركتها في حيويتها التي كانت تتدفق منها. وكان لا يزال في وسعنا أن نلاحظ في ذلك الوجه المتألق الشيء الذي لا يمكن تصديقه: لكن لماذا أنا نفسي؟ لماذا يحدث هذا لي؟

حسناً. من الطبيعي أن مثل هذه الشدة لا تستغرق زمناً طويلاً. وأصبحت هذه الشدة مهددة وهي في أوجها، إذ بدأت إميلي تنهار وتتعرّض لحالات من الإحباط والتعب والانزعاج عندما تبدو النشوة التي كانت تعيش في ظلها قبل ساعة واحدة أو ما يقارب من ذلك مستحيلة الآن. عندئذ تنهض على قدميها لتنطلق وتواصل متعتها مجدداً.

سرعان ما لاحظت أن إميلي ليست الفتاة الوحيدة التي يفضلها جيرالد. ولم تكن بأي حال من الأحوال الفتاة الوحيدة التي تقدّم له يد العون في ذلك المنــزل. ولاحظت أنها غير واثقة من موقعها عنده. ففي بعض الأحيان لم تكن تذهب إلى بيته بل تمكث معي في الشقة. أعتقد أن سبب ذلك يرجع إلى أنها كانت تحاول أن تظهر له أو حتى أنها تؤكد لنفسها أنها لا تزال تتمتّع بشيء من استقلال الإرادة. ومن الإشاعات التي سمعتها: أن جيرالد الشاب الذي كان يغوي كل أولئك الفتيات الصغيرات. شيء مقرف. ومن المضحك سماع كل هذه الكلمات القديمة: إغواء، لاأخلاقي، مقرف وغيرها. ويبدو أن هذه الكلمات لم يكن لها أي تأثير. وهذا واضح لأن أي إجراء لم يتخذ إزاء ذلك. عندما

يتأثر المواطنون بطريقة أو أخرى فإن ذلك يبدو واضحاً عليهم. إلاّ أن أحداً ما لم يهتم كثيراً لحقيقة أن فتيات صغيرات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة يمارسن علاقات جنسية صريحة. لقد عدنا إلى زمن مبكر من وضع الإنسان.

ما هو شعور إميلي الآن؟ مرة أخرى لم يطرأ على عواطفها أي تغيير. بعد مرور بضعة أسابيع أو بضعة أيام على ذلك، رأت نفسها مثل أرملة سعادة ميتة. ولا بدّ أنها أرادت أن يمضي ذلك الزمان إلى الأبد عندما شعرت أنها مثل الشمس تجذب كل شخص إليها، وذلك عندما تلقي على الناس الضوء والدفء، ومثل المتعة التي صنعتها وحبيبها جيرالد. غير أنها فقدت تألقها وبهاءها عندما لم تجد نفسها الأولى والوحيدة معه، بل صارت تفتقر إلى الإحساس بالثقة، والعون، والدعم. وأصبحت شاحبة، وجلست بهمة فاترة، وأجبرت نفسها على مزاولة بعض النّشاطات. وفرحتُ لهذا الأمر رغماً عني. وشعرت أنها ينبغي أن تظل معي لأن ذلك الرجل والوصي والذائد عنها أو أياً كان أمره، قد طلب مني أن أرعى شؤونها. وإذا ما خيّب جيرالد ظنها – وهذا ما كانت تشعر به – فإن المسألة تصبح مؤلمة حقاً، إلاّ أنها على الأقل لن تذهب وإياه عندما يحين دوره لقيادة إحدى القبائل، أو إذا حدث ورحل الآن بعد أن شكل هذه المجموعة الجديدة.

انتظرت وراقبت... ومشيت وسط طبقة رقيقة من الأوراق والأزهار والطيور وأزهار النباتات، وجوهر الغابة الذي أعيد إلى الحياة في النماذج الغائرة في ورق الجدران، وسرت في أرجاء غرف بدت وكأنها قد تقدّمت كثيراً في السن منذ أن رأيتها آخر مرة. فالجدران أصبحت أقل سمكاً، وتغيّرت بفعل الهواء والزمن. في كل مكان من أرضية الغابة توجد جدران عالية منتصبة ومحافظة على أشكالها وزواياها ولكنها بدت وكأنها جدران وهمية. وظلت هذه الجدران شامخة حتى ضاعت بين الأوراق بينما سقطت أشعة الشمس بسيطة وواضحة

فوقها. كانت الأرض قد ظهرت على نحو غير متوقع ونما العشب والأزهار في كل مكان.

سرت من غرفة إلى غرفة، وبين جدران وهمية، وأنا أبحث عمن يسكنها وعمن يعيش فيها، وعن الذين أستطيع أن أحس بوجودهم طاغياً الآن حتى بعد أن غطت الغابة على كل شيء.

شخص ما. نعم. هناك شخص ما، على مسافة قريبة. سرت بعناية فوق العشب وعلى امتداد جدار مائل ورقيق دون أن يصدر عني أي صوت، وأنا أدرك أنني عندما أصل إلى النهاية حيث الجدار المتقاطع قد هوى وتحطم منذ زمن بعيد، سألتقت بيسر وأرى - أياً كان - حضوراً قوياً ورقيقاً، وشخصاً طيباً سيكون وجهه مألوفاً لديّ تماماً مثلما كان مألوفاً في السابق. لكنني عندما وصلت إلى نهاية الجدار، وجدت جدولاً صغيراً يترقرق بين الحشائش، كان صافياً جداً بحيث كان من السهل مشاهدة الأسماك تنظر بعيونها الصغيرة من فوق الحصى اللامعة إلى الأعلى نحوي أنا كأنما لا يوجد بيني وبينها أي ماء، وكأنما هي معلقة في الهواء قرب قدميّ.

بعد أن تهت في هذه الغرف المفتوحة على أوراق الشجر والسماء والتي تغطي أرضها الحشائش غير المسمومة والورود من العالم القديم، رأيت مدى سعة هذا المكان الذي لا تحده أي حدود أو نهاية مرئية. كان أكبر من أن أستطيع فهمه. تساءلت كم من الناس استطاعوا قبل زمن طويل العيش فيه عندما كان شامخاً وقوياً، ويوفّر الحماية من الغابة ومن الجو، ولكنهم ظلوا خاضعين للحضور الواحد المتمثل في الهواء الذي كانوا يتنفسونه، على الرغم من أنهم كانوا يجهلونه، والذي كان جزءاً ضئيلاً منه في حياتهم وموتهم، كما أن اختيارهم الشخصي ورغباتهم كانا ضئيلين وصغيرين كالجزيئيات الصغيرة في أي ورقة.

سرت مرة ثانية في طريق عودتي صوب المنطقة الحدودية التي كانت تجثم على الجانب الآخر منها حياتي *الحقيقية*، واكتشفت وجود

مجموعة من الغرف التي لا تزال قوية، وسميكة، وذات أرضيات وسقوف لا تشوبها أي شائبة. لكنني بينما كنت أجيل بصري فيها شاهدت كيف أن ألواح الأرضية الخشبية بدأت تتداعى، بل كيف انهارت في بعض الأماكن، وأن هناك بعض الثقوب فيها، وأن هذه الألواح لم تكن في حقيقة الأمر كما اعتقدتها، بل هي مجرد ألواح متعفنة مرمية فوق الأرض التي بدأت تنمو عليها الحشائش الخضراء. جذبتُ الألواح من مكانها، فبدت من تحتها الأرض نظيفة والحشرات منهمكة في عملها. ثم سحبت ستائر مخططة ثقيلة كي أسمح بدخول نور الشمس. فنفذت رائحة النمو من الغرفة القديمة الخانقة، فهربت منها، وعدت مندفعة صوب حواجز رقيقة من أوراق الشجر تاركة ذلك المكان أو ذلك العالم ورائي لأعود للنمو النظيف وللحشرات التي تعمل لأنني كنت مضطرة للقيام بذلك. على كل حال، لم أكن أنا نفسي، التي قضت بذلك حتى أقاطع حياتي العادية، طالما أن الوقت قد حان للخروج من حياة إلى أخرى. لست أنا التي عملت على تقليص سمك حاجز نورِ الشمس. ولست أنا التي هيّأت ذلك المشهد وراءه. فأنا لم أكن أملك أي خيار. كان الشعور قوياً بأنني فعلت ما فعلت لأنني أمرت بذلك، ولأنني كان ينبغي لي أن أفعل ذلك، وأنني أُخذت، وسرت مرغمة، ورأيت، وبقيت دوماً في قبضة اليد الصفراء الهائلة التي كانت تطبق على حياتي واستخدمتني لأغراض لم أكن أفهمها على الإطلاق.

بسبب هذا الإحساس الذي انتابني والذي ورثته عن تجاربي في ما وراء الجدار، فقد بدأت أتغيّر. فالقلق والجوع اللذان رافقاني طيلة حياتي واقترنا بنوبة احتجاج -ولكن ضد من؟- بدأا يهدأان، واكتشفت أنني في معظم الأحيان كنت أنتظر ليس إلا. وواصلت مراقبتي لرؤية ما قد يحدث بعدئذ. فلاحظت ونظرت إلى كل حادث جديد بهدوء لكي أرى إن كان في وسعي إدراكه.

* * *

كان الحدث الثاني هو جون.

في عصر يوم من الأيام، وبعد أن ظلت إميلي في البيت، وقضت نهاراً كاملاً وليلة معي ومع هوغو، ولم تذهب إلى العمل في بيت مجموعة جيرالد جاءت فتاة صغيرة تبحث عنها. وحين أقول *فتاة* صغيرة أدرك لامعقولية هذه العبارة لما يقترن بها من وعد ونضارة. لكنها كانت فتاة صغيرة على أي حال: طفلة نحيفة جداً ذات عظام بارزة جداً، وعينين زرقاوين شاحبتين، وشعر فاتح اللون يبدو قذراً وهو ينسدل على كتفيها مخفياً بذلك وجهاً صغيراً جذاباً. بدت أصغر من عمرها الحقيقي فهي تبدو وكأنها في سن الثامنة أو التاسعة، إلاّ أنها تبلغ الحادية عشرة. وهكذا فإنها أصغر من إميلي، التي أصبحت امرأة شابة يحبها الملك جيرالد حباً مشكوك فيه بسنتين. كان نهداها برعمين صغيرين جداً، وجسدها كله لا يزال في طور الشرنقة.

سألت:

- أين إميلي؟

بدا صوتها بعيداً كل البعد عن الإنكليزية الجيدة وهي اللهجة التي كانت تستعمل يوماً ما في قراءة الإعلانات ونشرات الأخبار أو بين المسؤولين. لم أكد أفهم شيئاً مما قالته فقد كانت لهجتها رديئة جداً. ولا أتحدث في هذا الشأن عن الكلمات التي استخدمتها، وهي كلمات حادة عندما يفك المرء شيفرتها، وكانت تمثل محاولات قوية وعنيدة لجعل كل المعاني والأفكار تتسم بالوضوح والجودة تماماً مثل تلك الكلمات التي يعبر عنها في الخطب المدرسية. لم يكن الحسم في سؤالها: "أين إميلي؟" ناجماً عن خشونتها، بل بسبب محاولتها إضفاء الإصرار على أن تكون مفهومة وأن تُرشد إلى إميلي، أو أن إميلي ينبغي أن يؤتى بها إليها. وسبب ذلك أيضاً هو أنها فتاة لم تنشأ على الاعتقاد بأن لديها حقوقاً. لكنها على الرغم من ذلك وضعت لنفسها أهدافاً تصبو إليها فكانت تريد

الأشياء وتحصل عليها. وباستطاعتها أن تصل إلى إميلي دون مساعدة الكلمات أو المهارات أو الأخلاق، ودون أن يكون لها حقوق.

وقلت لها:

- إنها موجودة هنا. تفضلي بالدخول.

فلحقت بي وهي ثابتة؛ بإصرارها الذي أتى بها إلى هذا المكان. كانت عيناها تنظران في جميع الأرجاء، وراودتني الفكرة في أنها كانت تحاول تخمين قيمة ما تراه أو تقديره طالما أن القيمة أصبحت من الأمور المنسية.

لما رأت إميلي امرأة شابة، واهنة، ومعذبة وهي تجلس على كرسي قرب النافذة وقدماها العاريتان قرب حيوانها الأصفر، أشرق وجه الطفلة الصغيرة بابتسامة عذبة مليئة بالثقة تحطم القلوب مما جعلها تعدو صوبها ناسية نفسها. لمّا رأتها إميلي ابتسمت ونسيت متاعبها؛ متاعب الحب والله يعلم أي متاعب أخرى، واتجهت الفتاتان إلى غرفة إميلي الصغيرة. فتاتان تربطهما صداقة الشباب على الرغم من أن إحداهما أصبحت امرأة الآن بينما لا تزال الأخرى طفلة، ولها وجه طفلة وجسد طفلة، ولكن ليس بخيال طفلة كما اكتشفت لأنها كانت تحب جيرالد. فبعد أن عانت هذه الطفلة من الغيرة بسبب إيثار جيرالد لإميلي كرهتها، وشوهت سمعتها مرة، ثم تحولت إلى الإعجاب بها، وأصبحت الآن رفيقتها في الضراء بعد أن أحبّ جيرالد فتاة أخرى أو فتيات أخريات يعملن على خدمته.

كان الوقت صباحاً عند مجيء الطفلة. وعندما حان موعد طعام الغداء خرجت الفتاتان من غرفة النوم وقالت إميلي على طريقة الضيوف التي ما فتئت تلازمها:

أرجو المعذرة، فإني أود دعوة جون لتناول شطيرة أو أي شيء آخر معي.

في وقت متأخر من ذلك النهار وبعد أن تعبت الفتاتان من جو تلك الغرفة الخانقة خرجتا إلى غرفة الجلوس، وجلستا على الأرض، وعلى جانبي هوغو، وتحدثتا وهما تربّتان عليه وتلاطفانه. كانت جون تسعى للحصول على النصيحة والمعلومات في جميع المسائل العملية ولا سيما الحديقة التي كانت تحت مسؤولية إميلي لأنها كانت تفهم في مثل تلك الأمور.

حقاً؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع طالما أن إميلي لم تظهر أدنى اهتمام في هذه الشؤون ولا حتى بالنباتات المزروعة في الحاويات.

جلست أصغي إلى حديث الفتاتين، وحاولت أن أتبيّن صورة الحياة التي تعيشها مجموعتهما. وبدا غريباً حقاً أمر هذه البيوت التي كانت في حالــة تشير إلى أن الثورة التكنولوجية لم تحدث أبداً بينما هناك آخرون يعيشــون فــي أرجاء أخرى من مدننا، ويدفعون أثمان فواتير الكهرباء ويســتعملون المــياه - التــي يســددون فواتير حسابها - من الحنفيات وينــتظرون الزبالين لجمع النفايات التي يتركونها. لقد كان البيت الذي يقــع علــى بعــد خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام يسكنه عدد من الأشخاص الكبار في السن. كان يحتوي على مساحة واسعة من الأرض تحــيط بــه، وأزيلت عنها الأعشاب، ولم يبق فيها سوى الخضراوات. هــناك ملجــأ صغير يضم بعض أنواع الطيور؛ وهو أمر غير قانوني أصبح شائعاً في كل الأماكن وتجاهلته السلطات. واشترى أهل البيت - أو حصــلوا بطــريقة ما على - الدقيق، والبقول، والعسل. كانوا على وشــك الحصــول علــى خلية نحل. اشتروا اللحوم البديلة عوضاً عن الدجــاج، والبقر، والضأن وصنعوا منها وجبات غذائية لا تثير الشهية. ولا تثير هذه الأغذية شهية البعض. فهناك أعداد كبيرة من الشبان الذين لــم يذوقوا شيئاً في حياتهم سوى هذه الأطعمة، وأصبحوا الآن يفضلون

هــذه البدائل على اللحوم الحقيقية. وكما قلت سابقاً، فقد أخذنا نتعلم كيف نحب ما نحصل عليه.

كان المكان عبارة عن مجموعة ورش صغيرة: فكانوا يصنعون الصابون والشموع، ويحيكون الأقمشة ويصبغونها، وكانوا يعالجون الجلود، ويجفّفون الأغذية ويحفظونها، ويعيدون تركيب الأثاث وصناعته.

هكذا كانت تعيش عصابة جيرالد التي تتألف الآن من ثلاثين فرداً تحــت ضغط متزايد من أجل توسيع عملهم بعد أن رغب عدد كبير من الناس بالانضمام إليهم إلاّ أنهم رُفضوا بسبب عدم توفر المكان.

لم يكن هذا مثار دهشتي. إذ سبق لي أن سمعت عن ذلك بأشكال مختلفة. فعلى سبيل المثال، كانت هناك مجموعة من البالغين والأطفال الصغار على مسافة قريبة حيث تعطّلت أجهزة توصيل المياه والمجاري فبنوا مرحاضاً في الحديقة عبارة عن حفرة ذات غطاء وعلبة رماد تستخدم لطرد الرائحة والذباب. اشتروا الماء أو أخذوه من الأنابيب الرئيسة حسب استطاعتهم، وتوسلوا إلى أصدقائهم طالبين الاستحمام: لقد مرّ وقت كان هؤلاء الناس يستخدمون فيه حمام شقتي، إلاّ أنهم سرعان ما رحلوا عن منطقتنا، واتجهوا إلى مكان آخر. كانت مدينتنا تحتشد بهذه الجيوب التي تعود بالحياة إلى عصرها البدائي وعصر الكفاف... جزء من بيت... ثم البيت كله... مجموعة من البيوت... شارع... منطقة ذات شوارع. وشاهد الناس وهم ينظرون من المباني المرتفعة كيف استقرّ هؤلاء البرابرة وانتشروا. في بادئ الأمر، كان المراقبون يكنّون مشاعر العداء لهم ويخاصمونهم. واحتجّوا عليهم، غير أن هؤلاء المراقبين، الذين ما زالوا محظوظين حتى الآن يتعلمون من هؤلاء المتوحشين مهارات ومواهب جديدة وهم يراقبونهم. في بعض أجزاء المدينة انقلبت أحوال ضواحٍ بأكملها. فعلى امتداد أميال عديدة كان الناس يزرعون البطاطا، والبصل، والجزر ويقيمون عليها الحراسة

ليلاً ونهاراً ويربّون الدجاج، والبط ويشترون أو يبيعون الماء ويستغلّون الغرف الفارغة أو بيتاً فارغاً في تربية الأرانب وغيرها، فلم يعد الناس يعيشون كعائلات صغيرة بل كانوا يحتشدون جماعات وقبائل نشأت بسبب الضغوط القاهرة. في الليل، كانت مثل هذه المناطق تصبح خطرة لا يتجرّأ أحد على الذهاب إليها، فأنوار الشوارع معدومة، وأرصفتها تمتلئ بالحفر والأخاديد، وطرقاتها رديئة، والنوافذ لا تلوح منها إلاّ أضواء شموع باهتة أو نورٌ فقيرٌ ينعكس على أحد الجدران أو السقوف. حتى السير في أثناء النهار في هذه المناطق يعدّ غزواً لأراضي العدو أو لماضي الجنس البشري، فالوجوه نصف مرئية من وراء مصابيح النوافذ، والأقواس والسهام وحتى البنادق على استعداد لكي تنطلق في حالة التجاوز.

لكن حتى في تلك المرحلة المتأخرة كانت هناك طبقة في مجتمعنا تعيش وكأن شيئاً لم يحدث تقريباً وهي الطبقة الحاكمة – لكن تلك عبارة بائدة كما يقولون – حسناً، إذاً، الناس الذين يديرون الأمور، ويترأسون المجالس والجمعيات، ويتخذون القرارات، ويتحدثون. الطبقة البيروقراطية؛ البيروقراطية العالمية ولكن متى كان هذا غير صحيح؟

إن هذا الجزء من المجتمع الذي يستفيد كل الاستفادة من ذلك الوضع يحتفظ لنفسه وللآخرين بقدر ما يستطيع بوهم الأمان، والديمومة، والنظام.

يبدو لي أن هذا له علاقة خفية بالضمير، ذلك العضو اللاوظيفي في البشرية والذي لا يزال يطالب بضرورة وجود نوع من العدل والمساواة، ويشعر أنه من غير المسموح به (وهذا ما يحسّ به معظم الناس في مكان ما أو على الأقل بين حين وآخر) أن يكون بعض الناس في وضع جيد بينما يموت الآخرون جوعاً. هذه هي أقوى آلية للاحتفاظ بالمجتمع أول الأمر، ومن ثم للهيمنة عليه والعمل على تدميره وانهياره. نعم. من الطبيعي أن هذا الأمر ليس جديداً وأنه كان

مستمراً على امتداد فترات التاريخ وبقدر ما نستطيع معرفته. فهل هناك زمان مرَّ على بلادنا دون أن تعيش الطبقة الحاكمة فيه داخل قفص زجاجي قوامه الاحترام أو الثروة وتغلق أعينها عن كل ما يدور خارجه؟ وهل هناك أي فارق عندما تستخدم هذه *الطبقة الحاكمة* كلمات مثل العدل، والإنصاف، والمساواة، والنظام أو حتى الاشتراكية؟ تستخدم هذه الكلمات، وتعتقدها، أو قد تؤمن بها فترة من الزمن. لكن في الوقت نفسه ينهار كل شيء بينما لا يزال المسؤولون يعيشون حياتهم الخاصة ويحاولون إبعاد كل ما هو سيئ في أحاديثهم ورغباتهم وتشريعاتهم، إذ إن الاعتراف بحدوث ذلك معناه الاعتراف بلاجدوى وجودهم والاعتراف بالأمن الإضافي الذي يتمتّعون به والاعتراف بأنه سرقة وليس مبلغاً من المال يدفع لقاء الخدمات التي يسدونها.

لكن بالرغم من ذلك، فكل فرد لعب دوراً في هذه المؤامرة القائلة بأن لا شيء يحدث، أو أنه كان يحدث ولكن سيتمّ إصلاح الأمور ذات يوم وستعود المياه إلى مجاريها كما كانت في الأيام الخوالي. أي فكرة؟ تلك قضية مزاج: فإذا كنت لا تملك شيئاً فأنت حر في أن تختار ما تشاء من الأحلام والأوهام. تخيلت شخصياً نوعاً من الإقطاع؛ بلا حروب أو ظلم. إن إميلي التي لم تمر بتجربة أو تعاني من الإقطاع من شأنها أن تحب عودة عصر الرفاهية والرخاء.

لعبتُ لعبة الاشتراك في الجريمة شأني في ذلك شأن أي شخص آخر. وحدّدت عقد الإيجار في تلك الفترة ولسبع سنوات. من الطبيعي أنني كنت أعرف أن مثل هذا الوقت لن يتوفّر لنا. أتذكّر إحدى المناقشات مع إميلي وجون عن إسدال ستائر شقتي. فقد أرادت إميلي بعض الستائر المصنوعة من قماش الموسلين الأصفر الذي سبق لها أن شاهدته في إحدى المحلات التي تقايض البضائع. أما أنا ففضّلت قماشاً أكثر سمكاً وذلك لتخفيف حدّة الضوضاء. غير أن جون أيّدت

إميلي: الموسلين المخطّط يبعث الدفء ويثبت جيداً في مكانه. كان ثمة مصطبة تباع فوقها الأقمشة المخططة القديمة ولا شيء غيرها، وتقع على بعد ميلين. على أي حال، القماش السميك ينتصب أثناء تعليقه مما يسمح بدخول التيارات الهوائية من حول الحواشي على الرغم من الدفء الذي يبعثه. نعم. ولكن ما إن يغسل هذا القماش السميك حتى يفقد قوته... هذه هي المناقشة التي كانت أمثالها تدور بيننا. كان في وسعنا أن نقضي الأيام أو الأسابيع في سبيل اتخاذ قرار. إن القرارات الحقيقية والضرورية، مثل القرار القاضي بأنه لا ينبغي استعمال الكهرباء على الاطلاق، من شأنها أن تتّخذ بأقل ما يمكن من النقاش: فكانت تفرض علينا. كنت قد رتّبت شؤوني لكي أقطع التيار الكهربائي عن شقتي في ذلك الصيف، وقبل زيارة جون لنا. زيارتها الأولى. إلاّ أنها أخذت تتردّد كل يوم، ووجدتنا نتحدّث في شؤون الضوء والحرارة. أخبرتنا عن وجود رجل يسكن في مدينة صغيرة تقع على بعد اثني عشر ميلاً، ويبيع أدوات كتلك التي كانت تستخدم ذات يوم في إقامة المخيمات. لا. إنها ليست ذات الأدوات، بل عمل على تطوير أنواع جديدة منها. لقد رأت بعضاً منها، ولا بدّ من اقتناء قسم منها. ناقشت جون وإميلي ذلك، وقرّرتا عدم القيام بالمهمة وحدهما بل طلبتا من جيرالد أن يرافقهما. في يوم ما غادرت الفتاتان، وعادتا في وقت متأخر من بعد الظهر وهما محمّلتان بكل أدوات التدفئة والضوء. أخيراً، رأيت جيرالد في غرفة الجلوس. لم أجد فيه شيئاً مثيراً عندما نظرت إليه عن قرب. كان يبدو عليه الضيق والكآبة أيضاً. كانت نظراته إلى إميلي تفضح قلقه، وقضى الوقت كله وهو يسألها النصح والإرشاد في العديد من المسائل. فساعدته. كانت في حقيقة الأمر واقعية جداً ورصينة. استطعتُ أن أرى شيئاً من العلاقة القائمة بينهما، وأقصد تلك العلاقة الخفية القائمة ربما وراء ذلك الارتباط الأقل عنفاً والذي كان واضحاً وسطحياً وتستجيب له إميلي، فوراء علاقة الحب

التقليدية بين فتاة وزعيم عصابة كان في وسع المرء أن يلاحظ في جيرالد شاباً مثقلاً بالمسؤوليات، لكنه يفتقر إلى الثقة، ويطلب العون وحتى الحنان. فقد رافق إميلي وجون للمساعدة في نقل التجهيزات لكل من إميلي وصديقتها تحسباً للشتاء.

لم تكن هذه مجرد طيبة قلب. فهو يملك الكثير منها، بل كانت أسلوباً يريد أن يقول من خلاله إنه يحتاج إلى عودة إميلي إلى بيته. وربما كان ذلك أجراً يدفعه لها، أو رشوة إذا أردت أن تكون متهكماً. أما إميلي فكانت تضيّع الوقت في العودة. فبعد أن أرهقت نفسها بالسير مسافة طويلة، وحمل كمية كبيرة من الأغراض، وتعرّضت لأشعة الشمس التي لوّحتها فزادت من جمالها، غازلته ولكنها راودته عن نفسه بينما ظلت جون هادئة تراقبهما لأنها لم تكن تستطيع ممارسة هذه اللعبة. لقد استخدمت إميلي قوتها بعد أن شعرت بضعف جيرالد. فاضطجعت، وأراحت جسدها، وداعبت رأس هوغو وأذنيه وابتسمت لجيرالد. نعم ستذهب وإياه إلى منـــزله طالما أنه يرغب جداً في ذلك، فهو يرغب فيها هي. بعد مضي ساعة انطلق الثلاثة معاً. فسارت إميلي وجيرالد في المقدمة وتبعتهما جون مثل أبوين وابنتهما. هذا ما أحسست به، على الأقل بخصوص جون.

أعتقد أنه ينبغي الآن طرح السؤال التالي والإجابة عنه: لماذا لم تقرِّر إميلي أن تكون قائداً بدورها؟ حسناً. لِمَ لا؟ نعم. لقد سألت نفسي هذا السؤال حقاً. إن موقف النساء إزاء أنفسهن، وموقفهن إزاء الرجال، والمستويات التي أقامتها النساء لأنفسهن، وشجاعة نضالهن من أجل المساواة، والتساؤل المؤلم الذي استغرق عقوداً كاملة عن دورهن ووظيفتهن؛ كل ذلك يجعل من الصعب عليَّ أن أقول ببساطة إن إميلي عاشقة. لماذا لم تشكِّل عصابتها وأبطالها الشجعان من اللصوص، والمهاجمين، والصنّاع، والخبازين، وغيرهم ممن يزرعون موادهم الغذائية بأنفسهم؟ ولماذا لم تكن هي نفسها التي يقال عنها:

"يوجد هناك ذلك المنــزل. إنه فارغ. لقد شكّلت إميلي عصابة، وانتقلت للسكن فيه. نعم. مكان جيد. دعونا نرى إن كانت ستسمح لنا بالدخول".

لم يكن هناك شيء يحول دون أن تقوم بذلك. فلا يوجد أي قانون، مكتوب أو غير مكتوب ينصّ على الحيلولة دون قيامها بذلك. كما أن قدراتها ومواهبها متنوّعة مثل قدرات جيرالد أو أي شخص آخر. لكنها لم تفعل ذلك. ولا أعتقد أنها فكّرت بذلك.

المشكلة هي أنها أحبّت جيرالد حقاً. وقد جرّدها شوقها إلى اهتمامه بها ورغبتها في أن تكون الفتاة التي تبعث فيه الطمأنينة وترسّخ جذوره بالأرض من المبادرة التي تحتاج إليها لكي تكون قائداً لإحدى المجموعات. إنها لم تكن ترغب في أن تصبح أكثر من امرأة التجمع، وامرأته الوحيدة حقاً.

هذا مجرد تاريخ وأرجو أن يكون تاريخاً صادقاً حقاً.

* * *

عصر أحد الأيام، عدت من رحلتي لاستقصاء الأخبار، فوجدت غرف شقتي في حالة من الفوضى تشبه حالة الفوضى في المكان الواقع خلف الجدار، والتي قد يتسبّب بها بعض الأشباح. هكذا فكّرت لأول وهلة، وأنا أقف في مكاني، وأحدّق إلى أحد الكراسي المقلوبة، والكتب المتناثرة فوق الأرض. كانت هناك فوضى عامة، وفراغ، وفوق هذا كله إحساس غريب بالمكان. ثم أصبحت بعض الأشياء المفقودة تتّضح شيئاً فشيئاً. فقد اختفت المواد الغذائية، والفواكه المجفّفة، ومخزون الحبوب فائق الأهمية، والأطعمة المحفوظة، والشموع، والجلود، وكل الأشياء الأخرى الظاهرة للعيان. حسناً جداً. لا بدّ أن اللصوص قد اقتحموا المكان، ولحسن الحظ أن هذا لم يحدث من قبل. لكنني اكتشفت بعد ذلك أن بعض الممتلكات الثمينة سابقاً مفقودة هي الأخرى: جهاز تلفزيون لم يستعمل منذ فترة طويلة، جهاز

تسجيل، مصابيح كهربائية وخلاّط مواد غذائية. في الواقع، إن المدينة كانت تحتوي على مستودعات مليئة بالأجهزة الكهربائية التي لم تعد تفيد في أي شيء. فكّرت أن هؤلاء اللصوص إما أن يكونوا أغبياء أو من ذوي النـــزوات الغريبة. شاهدتُ هوغو مضطجعاً في مكانه بالقرب من الجدار الخارجي. لم يبدُ عليه أنه تعرّض لإزعاج المتطفلين؛ وهو أمر غريب. ولم أكد أتيقّن من طبيعة السرقة التي يصعب توضيحها حتى جذبتني أصوات أعرفها إلى النافذة. وقفت هناك لمراقبة مسيرة صغيرة تضم البضائع المسروقة وهي في طريقها إليّ ثانية. كان هناك نحو عشرة أطفال يحملون هذه الأغراض على رؤوسهم. رأيت جهاز التلفزيون، وأكياس الطعام، والوقود، وكل أنواع الصناديق والحقائب. أصبحت وجوه هؤلاء الأطفال مرئية فهي وجه بيضاء وسوداء وهم يلبّون نداء إميلي: "هيا الآن. لقد تأخرنا!" وهذا يعني أنني قد عدت وأخذت أراقبهم من الشباك، ورأيت إميلي تسير وراء هؤلاء. كانت هي المسؤولة عنهم، والمشرفة عليهم، ويبدو عليها القلق والفضول. لم أشاهدها في مثل هذا الدور سابقاً فهي إميلي الجديدة بالنسبة لي. كانت جون موجودة هي الأخرى، وتسير بجانب إميلي. إنني أعرف كل هذه الوجوه؛ فالأطفال من منـــزل جيرالد.

في لحظة، كانت الصناديق والرزم والحقائب تتوافد على غرفة الجلوس في شقتي والأطفال يحملونها فوق رؤوسهم. ولمّا امتلأت أرض الغرفة بالأغراض التي سبق لهم أن أخذوها، أخذ الأطفال بالخروج مرة أخرى وهم ينظرون إلى إميلي ولا ينظرون إليّ. لعلّي كنت غير مرئية أنا الأخرى.

قالت لهم إميلي بلهجة آمرة:

– والآن أعربوا عن أسفكم.

فابتسم الأطفال ابتسامة ضعيفة، بينما أوشكوا أن يقولوا: "آه. كيف نستطيع الاستمرار في هذا!" لكنّهم كانوا يطيعون إميلي، إلاّ أنها وجدت

ذلك لا يُحتمل. فهذه الابتسامات التي يشوبها الحرج لم تكن لتنتزعها منهم أول مرة. شعرت بفضول أكبر لمعرفة الدور الذي تؤدّيه إميلي في ذلك البيت.

قالت إميلي:

– لا. تعالوا إلى هنا. إنه أقل شيء تفعلونه. فهزّت جون كتفيها وقالت:

– إننا آسفون. على كل حال، لقد أتينا بالأغراض مرة أخرى. أليس كذلك؟

كان كلام جون يكشف عن إحباط شديد. فهذه الطفلة التي أصبحت من نتاج عصرنا القديم الذي كان يعنى بالألفاظ وتبادلها واستخدامها باتت بعيدة عن كل هذا الثراء. فنحن – وأقصد المتعلمين – لم نجد أي طريقة لمشاركة هذا الثراء مع الطبقات الدنيا من المجتمع. حتى إذا وقفت امرأتان عند ناصية الشارع تتبادلان ما لديهما من أقاويل، فإن الجمل القليلة التي تتفوّهان بها إنما هي محاولة متفجرة تدلّ على الإحباط. فكلام الفقراء الذي يعبّر عن الحرمان يتضمن دوماً طاقة من الاستياء – ولعلها موجودة على نحو يفتقر إلى الوعي – وتغذّيها المعرفة بالمهارات، بينما يحتوي حديثهم على عبارات من مثل: "أنت تعلم" و"أنت تعرف ماذا أعني؟" و"أليس كذلك؟" وغيرها. تشكّل هذه العبارات جزءاً مهماً من كل ما يتحدثون به. إن الكلمات في أفواه هؤلاء – وهي الآن في فم جون – تتّسم بخاصية الجهد المبذول، وهي فظيعة لأن الطلاقة في الحديث موجودة بيسر لديهم في حين يفتقد إليها الآخرون.

أخيراً، رحل الأطفال بينما تأخرت جون قليلاً. ولاحظت من نظرتها في أرجاء الغرفة أنها لم ترغب في الذهاب. فهي لم تشعر بالندم لما حدث بل للنتائج التي ستترتّب على ذلك، والتي قد تعني انفصالها عن محبوبتها إميلي.

سألت:

- ماذا حدث؟

سرعان ما تخلّت إميلي عن دورها القيادي، وبدت طفلة مرهقة وقلقة وهي تتهاوى قرب هوغو الذي لعق خدّها.

- حسناً. كل ما في الأمر أنهم أحبوا الحصول على بعض ممتلكاتك.

- نعم ولكن...

كنت أريد أن أقول: لكنني صديقتكم وما كان ينبغي أن يقع الاختيار عليّ.

فأدركت إميلي قصدي وابتسمت ابتسامة جافة وقالت:

- لقد كانت جون هنا، وعرفت الوضع العام في الشقة. ولهذا عندما فكّر الأطفال في البيت الذي سيقتحمونه مستقبلاً أشارت عليهم بهذه الشقة.

- أعتقد أن هذا معقول.

فقالت مؤكدة:

- نعم.

ثم رفعت عينيها فبدت علامات الجد واضحة في عينيها مما يعني أنني لا يجب أن أقلّل من قيمة تأكيدها. ثم أضافت:

- نعم. هذا معقول حقاً.

- هل تقصدين أنني لا يجب أن أنظر إلى المسألة وكأن هناك أموراً شخصية لعبت دورها فيها؟

هنا ابتسمت إميلي مرة أخرى ابتسامة استعطاف بسبب معرفتها وقالت:

- آه، لا. كانت المسألة شخصية... وإذا أردت فإنها مجاملة.

ثم دفنت وجهها في جسد هوغو وضحكت. كنت أعلم أنها كانت

تريد إخفاء وجهها بدلاً من بذل الجهد والظهور بمظهر الذكاء، والطيبة، واللهفة. لقد كان العالمان، عالم جيرالد وعالمي، يتداخلان على نحو يثير الخطر. كنت أشعر بذلك وأفهمه. إلاّ أن الإعياء كان بادياً عليها، وهو ما لم أفهمه على الرغم من أنني آمنت بأنني عرفت جانباً من السبب الكامن وراء علاقتها مع الأطفال. فمشكلتها لم تكن تتمثّل في أن تكون واحدة من اللواتي يسعين إلى كسب الحظوة لدى جيرالد وحسب، بل إن المسؤوليات الملقاة على عاتقها أكبر بكثير من سنها.

سألتها:

- لماذا أزعجوا أنفسهم بالأجهزة الكهربائية؟

فأجابت إجابة مقتضبة:

- لأنها كانت موجودة أمام أعينهم.

شعرت أنها تفكّر بأن أملي قد خاب فيها. لم أفهم الفرق بيني وبين هم وهي الفئة التي كانت تعدّ نفسها عضواً فيها وفي أحيانٍ أخرى تستثني نفسها منها.

نظرت إليّ الآن ولم تكن نظرتها تخلو من العاطفة. وهذا شيء يفرحني. إلاّ أنها كانت نظرة محيّرة. إذ كانت تفكّر في إمكانية بذل محاولة القيام بشيء معي وإن كنت سأتفهّم ذلك أو أرفضه؟

قالت:

- هل صعدت إلى الطابق العلوي مؤخراً؟

- لا. لا أعتقد ذلك. هل ينبغي لي أن أفعل ذلك؟

-حسناً، إذاً- نعم. نعم. أعتقد أنه ينبغي أن تفعلي ذلك!

بينما اتخذت قرارها في السير قدماً بما تفكّر به من أفكار، أصبحت فتاة صغيرة مرحة، وذات نزوة، وتحاول أن تكسب أحد الوالدين أو تخفّف من غضبه بعملها هذا.

صرخت.

- لكن ينبغي لنا أن نجد شيئاً نستتر به أنفسنا. نعم هذا يفيدنا، لاسيما أن الحياة لم تعد مناسبة وبخاصة في هذه الأيام عزيزتي.

بسرعة خاطفة كانت إميلي تحلّق بين الغرف، وتجمع كل الأجهزة الكهربائية التي أملكها باستثناء الراديو الذي كنا لا زلنا مقتنعتين باستحالة الحياة من دونه، فالأخبار التي نسمعها من الدول الأخرى قد تكون قادمة من كوكب آخر بعد أن أصبحت بعيدة جداً الآن. وعلى أي حال، فإن الأحداث في تلك البلاد كانت تشبه الأحداث التي تجري في بلادنا. لقد ذكرت توّاً التلفزيون، والمصابيح، والخلاّطات، وبالإضافة إلى هذه مجفّف الشعر، وجهاز تدليك، ومحمصة خبز كهربائية، ومشواة، وإبريق شاي، وغلاية، ومكنسة كهربائية. كانت هذه كلها مكدّسة فوق عربة صغيرة بطابقين.

صاحت إميلي ببهجة ورقّة:

- تعالي. تعالي. تعالي!

كانت عيناها تنظران إليّ باستمرار خشية أن أتصوّر أن في الأمر إهانة. خرجنا ونحن ندفع العربة المملوءة أمامنا. كانت الصالة تحتشد بالناس وكانوا يملأون السلالم أو كانوا في انتظار المصعد الذي كان يعمل جيداً لحسن الحظ. كان الناس يضحكون، ويتحدّثون، ويصرخون وهم في نشوة بالغة كأن كل رجل أو امرأة منهم أصابته الحمى. أدركت الآن أنني أصبحت أرى القاعة والرصيف الكائن وراء البناية وقد احتشدا بالناس غير أنني لم أفهم لذلك سبباً. ولعل هذا يرجع إلى أن الممرات الممتدة في الطوابق الأرضية من البناية كانت كما هي دون تغيير: هادئة، ورصينة، والأبواب تحمل الأرقام 1، 2، 3. ويقطن وراء كل باب السيد جونز وزوجته وأسرته والآنسة فوستر والآنسة باكستر والسيد سمث وزوجته والآنسة أليشيا سمث وذلك في وحدات صغيرة كأنهم في العالم القديم.

انتظرنا دورنا لنستقل المصعد، ودفعنا العربة المملوءة إلى داخله،

وصعدنا إلى الأعلى مع حشد من الناس نظروا إلى بضاعتنا ولم يهتمّوا للأمر. في الطابق العلوي دفعنا العربة إلى أحد الممرات بينما توقّفت إميلي لبرهة وجيزة وهي متردّدة. استطعت أن ألاحظ أن سبب ذلك التردد ليس لأنها لم تعرف الطريق الصحيح، بل لأنها كانت تفكّر بأفضل طريقة تفيدني.

كان المكان يشبه الطابق الأرضي. فالغرف منتشرة من حول البناية ويحيط بها ممر دائري. كانت هناك غرف منفصلة وثمة فناء في الوسط. لكن الفناء هنا كان عبارة عن بئر أو خليج. وغصّ المكان بالحركة والنشاط. فالأبواب مفتوحة في كل مكان وكأنها مدخل يؤدّي إلى أحد الشوارع التي تنتشر فيها الأسواق. إذ حمل الناس رزم البضائع بين أيديهم، أو كانوا يدفعون عربات قديمة محمّلة بأشياء كثيرة، أو ربما تجد رجلاً يحمل فوق رأسه شيئاً ثميناً مغلّفاً بعناية بحيث لا يستطيع أي شخص الاصطدام به. بدا من الصعب على المرء أن يتذكّر الهدوء في الأجزاء السفلى من البناية، والإحساس بأن الناس يفسحون المجال لبعضهم بعضاً. في الجهة المقابلة للمصعد توجد غرفة تحتوي على أغراض كثيرة تصل إلى السقف، أما حولها فقد كان هناك عدد من الأطفال يصنّفون الأشياء حسب نوعيتها. ابتسم أحد الأطفال لإميلي وأوضح قائلاً: "إنني أمدّ يد العون لا أكثر في تصنيف هذه الأغراض التي وصلت تواً". فقالت إميلي مؤكدة: "حسناً جداً. أنا مغتبطة لذلك". من خلال هذا الحديث اكتشفت شيئاً جعلني أعجب. إن الفتاة الصغيرة كانت مستعدّة كثيراً للتعبير عمّا يجول في خاطرها. لكننا كنا في مدخل غرفة أخرى حيث وجدت فتحة غير منتظمة في الجدار تشبه فجوة خلّفتها إحدى القنابل، وتتصل بالغرفة التي غادرناها. وكانت أكوام الأغراض قد أخفت هذه الفتحة عن أعيننا. كانت تُنقَل مختلف الأغراض عن طريق هذه الفتحة إما باليد أو بواسطة عربة صغيرة. كانت هذه الغرفة خاصة بأنواع القناني،

والعلب، وما هو مصنوع من الزجاج أو غير ذلك. كان عدد من الأطفال منهمكين في نقل هذه الأشياء من الأكوام الموجودة في الغرفة المجاورة إلى هذه الغرفة وذلك عن طريق الفجوة الجدارية. الشيء الوحيد الذي لا يعوز هذه الأسواق والذي لم يشعر أحد بنقصه منذ مدة طويلة هو العمل والأيدي التي تنجز الأشياء الضرورية. في ركن من الغرفة، وقف شابان يحرسان وبأيديهما أسلحة عبارة عن بنادق وسكاكين. عندما وقفنا خارج باب إحدى الغرف الأخرى الخالية من الحراسة والأكثر هدوءاً أدركت أن محتويات الغرف الأخرى التي يحرسها صبيّان مسلّحان إنما تحتوي على مواد ثمينة. أما هذه الغرفة فتحتوي على مواد لا قيمة لها أبداً: مواد كهربائية من مثل التي كنا ندفعها أمامنا فوق العربة.

وقفنا في مكاننا برهة وجيزة، وراقبنا الحركة الدائبة التي تميّز بها الأطفال وهم يعملون بنشاط.

قالت إميلي:

– إنهم يحصلون على أجر كما ترين. أو أنهم يحصلون على مقابل على أقل تقدير؛ حتى أطفال المدارس الصغار يأتون إلى هذا المكان للعمل ساعة أو نحو ذلك.

لاحظت حقاً أن هناك عدداً من وجوه الأطفال المألوفة لديّ والذين كانوا موجودين على الأرصفة من قبل. وكان هؤلاء يرتدون ملابس أفضل، ويتميّزون بالهدوء والنظافة، ويوحي مظهرهم بأنهم جاءوا إلى هذا المكان وفق رغباتهم التي تميّز أبناء الطبقة المتنفذة عندما يؤدّون عملاً يقلّ عن مستوى تصوراتهم. هم في هذا المكان لا لشيء إلاّ لكي يؤدّوا عملاً يشبه العمل الذي كان يؤدّيه أبناء الطبقة المتوسطة في أثناء العطل المدرسية في الأيام الخالية: تغليف البضائع للشركات، وتنظيف المطاعم، والبيع في المحلات والمتاجر. نعم، كان في مستطاعي ملاحظة ذلك في الوقت المناسب دون أن تكون إميلي

برفقتي. غير أن عينيها الشاردتين ظلتا ثابتتين عليّ مما زاد في سرعة العملية. في الحقيقة، لقد وجدتني بطيئة الفهم والتكيّف ولما بدا عليّ أنني لم أفهم شيئاً بالسرعة التي كانت تظنها، بدأت تشرح لي. فبينما ترك الناس هذه الطوابق العلوية فارغة وهربوا من المدينة، فإن السماسرة انتقلوا إليها. كان المكان عبارة عن مبنى كبير أفضل من جميع المباني الأخرى، حيث كانت أرضية كل طابق مشيّدة بقرميد متين يتحمّل كل الأثقال. اشترى السيد ميهتا حقوق أحد أماكن رمي الأنقاض قبل أن تستولي الحكومة على جميع هذه الأماكن وتتعامل مع مختلف الناس. كان أحد هؤلاء هو والد جيرالد الذي كان ذات يوم يدير مصنعاً لإنتاج مستحضرات التجميل. كانت بعض المواد الصالحة الموجودة في أماكن رمي الأنقاض يؤتى بها إلى هذا المكان ثم تُعزل وتُفرق بواسطة الأطفال، وكان الناس يأتون إلى هذا المكان للتجارة. فكان الكثير من هذه البضائع تؤخذ مرة أخرى إلى الأسواق والمتاجر لبيعها.

أما البضائع المعطوبة والمكسورة فكانت تُصلّح هنا: إذ مررنا بعدد من الغرف التي جلس فيها أناس ماهرون أكبر سناً من بقية الأطفال، وهم يصلّحون مختلف الأواني المكسورة، والأدوات، والملابس، والأثاث. كانت الغرفة يغمرها جو من الانشراح والاهتمام فكان الناس يقفون ويراقبون باهتمام. جلس رجل يصلّح الساعات في أحد أركان الغرفة، وتحت ضوء مسلّط عليه خصيصاً من فوق ومن جميع الجوانب الأخرى. كان مبهوراً، ولا يكاد يتنفّس وسط حشد من الزحام الشديد، مما دفع أحد الحرس أن يطلب من الناس الابتعاد إلى الوراء، ولمّا لم يذعنوا له رفع هراوته في وجوههم. غير أن هؤلاء لم ينتبهوا له إذ كانوا عازمين على البقاء في أماكنهم، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، لمراقبة هذه المهارة النادرة التي تتمثّل بيدي رجل عجوز يعالج آلة صغيرة.

كانت ثمة امرأة تُثبت العدسات في إطارات النظارات، وقد علّقت أمامها على الجدار لوحة طبيب العيون تعتمد عليها في توزيع النظارات المستعملة على الناس الواقفين في صف طويل، وكان كل واحد منهم يأخذ النظارة التي يعتقد أنها تناسبه؛ طبيبة عيون من الأيام الخالية. كان يتزاحم من حولها عدد من المعجبين أيضاً. وجدنا في ذلك المكان مصلّح كراسٍ، ومصلّح سلال لديه قصب، وشاحذ سكاكين وكل الحرف القديمة. كان كل واحد من هؤلاء يتمتّع بحراسة بينما يواصل البرابرة المراقبة بدهشة.

ما هو الشيء الذي لم نشاهده ونحن نجتاز الغرف الواحدة إثر الأخرى؟ خيوط وقنانٍ وأكوام من القطع البلاستيكية - وربما هي أهم السلع وأغلاها ثمناً - وقطع معدنية، وأسلاك مثنية، وأشرطة بلاستيكية، وكتب وقبعات وملابس. هناك غرفة مملوءة بأشياء بدت جديدة تماماً وفي حالة جيدة إلاّ أنها وصلت إلى مكان رمي الأنقاض وهي داخل أكياس مثل قميص من قماش الجرسيه وضع داخل كيس، ومظلات، وزهور اصطناعية، وصندوق مليء بقطع الفلّين.

احتشد الناس في كل مكان لمراقبة بعضهم وعرض البضائع. هناك مقهى صغير في إحدى الغرف يبيع الشاي، والخبز، والمشروبات الروحية. بدا الناس ثملين دون شرب وهو ما يحدث في العادة داخل الأسواق. كان من الصعب تمييز الذين يبيعون عن الذين يشترون أو الزوّار عن أصحاب الأغراض. وكان الناس يتحدّثون بلغات عدة، وهو حشد حسن الطباعِ، فلقد احترم أوامر الحراس الكثيرين وتعليماتهم، وهو أيضاً حشد منظّم وقادر وفق الأسلوب الجديد على حسم خلافاته ومشاجراته بسرعة ودون إثارة مشاعر سيئة. ضحك الناس كثيراً، وكانوا يعرضون بضاعتهم على بعضهم بعضاً، بل كانوا يبيعون ويشترون من بعضهم أيضاً: دون الحاجة إلى وسيط رسمي، وهي

عملية منظّمة ومعترف بها. وكان الشيء الذي يريده التجار هو وجود حشد من الناس وتدفق البضائع دخولاً وخروجاً.

تجوّلنا في جميع أرجاء الطابق، وكان عدد كبير من الناس يحيينا – ومنهم مَن كان موجوداً سابقاً على الرصيف – ثم دخلنا غرفة الأجهزة الكهربائية، ودفعنا أمامنا العربة الصغيرة. لكي نشتري هذه الأجهزة مُنحنا بعض الوصولات وقلت لإميلي إن عليها أن تتحمّل نفقات الشراء طالما أن مجيئنا إلى هذا المكان كان من بنات أفكارها. فبدت محتارة. وتوقّعت ذلك، وعرفت أن ذلك يعود إلى أنني ربما كنت أتوقّع الكثير مقابل تلك الأجهزة. ومن ذا الذي سيستفيد من محمصتنا ومشواتنا؟ حسناً. ستفكك أجزاء هذه الأجهزة، وتستخدم كأدوات احتياطية لأغراض أخرى. من الواضح أنها لم تكن ذات فائدة وهي بتلك الحالة. ومن المؤكد أنني لم أمانع في التخلي عن تلك الأجهزة ولكن في تلك الحالة ستفضل إميلي نقلها إلى بيت جيرالد – فهل أنا على ثقة من عدم الاعتراض؟ – وسيوضع قسم منها في المطبخ لأنهم بحاجة إليها. وعثرنا على قدر طعام قديمة، ووعاء مطلي بالمينا، وطاسة من البلاستيك، وفرشاة مسح: وكانت هذه هي الأشياء التي حصلنا عليها مقابل الأجهزة الكهربائية لتلك الشقة التي كانت ذات يوم مؤثثة تأثيثاً فاخراً.

لما عدنا إلى شقتنا تخلّت إميلي عن سحر الفتاة الصغيرة الذي لولاه لما استطاعت أن تقنعني بالذهاب في تلك الرحلة إلى أراضيها البعيدة عني، وجلست تراقبني. وراودني الاعتقاد أنها كانت تتساءل إن كنت حقاً قد فهمت أن البضائع *والأشياء* كانت سلعاً مختلفة بالنسبة لها وللأطفال من أمثال جون. بل إنها كانت أثمن لصعوبة التعويض عنها من ناحية ولأنها كانت عديمة الثمن... لا. هذا غير صحيح، إنها لم تكن ذات قيمة ذاتية فالأشياء لم تعد ملكاً للناس كما كان ذلك من قبل. صحيح أن هذا الشيء ينطبق على بعض الناس قبل انقضاء زمن

التملك: فجميع التجارب الجماعية أُجريت، فضلاً عن أن الناس من مثل أسرة ريان تخلّوا عن فكرة هذا ملكي، وهذا ملكك دون نظريات أو أفكار عن ذلك. إن جون هي جون ريان، وكانت أسرتها مثار إحباط أمل السلطات قبل انهيار المجتمع القديم بوقت طويل عندما كانت الأشياء تعدّ عادية. وبما أن ريان... لكن لا بأس سأتحدّث عن هذا الموضوع فيما بعد عندما أتطرّق إلى وصف أسرة ريان في المكان المناسب.

لمــاذا أؤجل ذلك؟ إن هذا المكان جيد شأنه شأن بقية الأماكن. هل رغبتي في تأجيل ما أريد قوله هي لأن قصة أسرة ريان ليست أكثر من امــتداد وانعكــاس للاتجاهات والمشاعر التي تتّسم بها السلطات المعنية إزاء هــذه الأســرة؟ القضية الرئيسة هي أن أسرة ريان وأعني أسلوب حــياتها - لم يكن بالإمكان استيعابها في المجتمع من الناحية النظرية - النظريات التي تخصّ المجتمع وكيفية تطوّره - أو من الناحية العملية.

إن وصف هذه الأسرة والظروف المحيطة بها لا يوجد شيء لم يسمع به القارئ من قبل مئات المرات: إنها قضية من قضايا الكتب المنهجية كما يتساءل الباحثون الاجتماعيون دوماً. فهذا عامل إيرلندي تزوّج بلاجئة بولندية، والاثنان يعتنقان المذهب الكاثوليكي. بعد مضي عدة سنوات يصبح للزوجين أحد عشر طفلاً. إذا كان الأب يعاقر الخمر ويتّصف بالقسوة ولا يشعر بالعطف إلاّ في فترات متقطعة، فالزوجة كانت هي الأخرى تعاقر الخمر، وتنتابها الهستيريا، وتفتقر إلى البراعة؛ إلاّ أنها عاطفية على نحو لا يُتوقع. لم يستمرّ أطفالهما في الدراسة في المدارس. كانت مؤسسات تحقيق الرفاه الاجتماعي، والإسكان، والشرطة، وعلماء النفس يعرفون جميعاً أسرة ريان. في يوم من الأيام، حدث أن مَثُلَ الولدان الكبيران أمام المحاكم بتهمة السرقة ووضعا رهن التوقيف في بورستال لمدّة من الزمن. هذا بينما أصبحت البنت الثانية - وليست البنت الكبرى حاملاً وهي في الخامسة

عشرة من عمرها. لا. لا يوجد أي شيء غريب في ذلك. إلاّ أن قضية ريان تبدو قضية كبيرة ولا أمل فيها، لأن عدد الأفراد كثير، ولأن الأبوين كانا شخصيتين كبيرتين وجذّابتين ويمكن أن يستشهد بأقوالهما في المؤتمرات والاجتماعات: وغالباً ما كان يحدث أن توجد حالة واحدة منفردة لا تلبث أن تستشري فتمثّل الآخرين: ففي مدينتنا وحدها كان هناك الآلاف من أمثال أسرة ريان ينتمون إلى أقوام مختلفة وأجناس عديدة ولم يعرف أحد عنهم شيئاً سوى جيرانهم والسلطات. ووجد هؤلاء الناس أنفسهم فجأة داخل السجن، وفي بورستال، والإقامة الجبرية في البيوت وهلمّ جرّا. لكن إحدى الجمعيات الخيرية كانت مهتمة بأسرة ريان، ولهذا وُضعوا في أحد البيوت. وقد بُذلت المحاولات للمّ شملهم معاً.

هكذا كانت الصورة أمام المسؤولين، وهكذا كانت تبدو في التقارير. أما كيف اختارت إحدى الصحف أسرة ريان من بين العديد من الأسر الأخرى، فإنما يرجع هذا إلى أن هذه الأسرة كانت تحت الأضواء أكثر من غيرها. كان يوصف وضع هذه العائلة أنه (تحت خط الفقر وأكثر) كان عنوان الكتاب الذي سجّل العشرات من مثل هذه الحالة ومن ضمنها حالة أسرة ريان **المنبوذون في مجتمع الرفاهية**. جمع شاب تخرّج حديثاً من إحدى الجامعات ملاحظات من عمّته التي كانت تشتغل باحثة اجتماعية في هذا الحقل ودوّنها في كتاب **البرابرة الذين صنعناهم**، قارن فيه بين أسرة ريان وأولئك الذين أسقطوا روما وحطّموا أمجادها.

آل ريان...

ماذا بشأن بيت ريان بدايةً؟ حسناً. كان بيتاً قذراً لا يصلح أثاثه إلاّ لمستودع النفايات. لم تكن تكسو الأرضيات العارية سوى القذارة، والعظام، وبقايا طعام القطط. كانت القطط والكلاب تُطعم بتهور مثل الأطفال. ولم يكن البيت دافئاً كثيراً، ولهذا فقد كان أفراد الأسرة البالغ

عددهم ثلاثة عشر فرداً يجلسون في غرفة واحدة إضافة إلى أصدقائهم؛ إذ كانت الأسرة تجذب نحوها الآخرين فيظلون يدورون في فلكها. كان الأبوان ثملين دوماً، أما أولادهما فكانوا يحتسون المشروبات الكحولية في بعض الأحيان أيضاً، وكان أصدقاؤهما من جميع الأجناس، ومن الأشخاص المتميزين الذين يعيشون حياة مدهشة. كانوا يجلسون جميعاً ويأكلون البسكويت أو رقائق البطاطا ويتحدثون باستمرار. في بعض الأحيان كانت الأم أو الفتاة الكبرى تعدّ طعاماً يتألف من البطاطا والقليل من اللحم، أو يأكلون شيئاً من الطعام المعلّب فتصبح وجبة الطعام احتفالاً. كان طعام أسرة ريان يتألف من رقائق البطاطا، وبعض المشروبات، والشاي الذي يتناولونه مع ست أو ثماني ملاعق من السكر لكل قدح. لهذا السبب كانوا دوماً فاتري الهمّة أو في قمة النشاط والحيوية بينما يدبُّ السكر في شرايينهم. كانوا يجلسون ويثرثرون طويلاً فتنتعش الغرفة بذلك التاريخ المتجدّد دوماً من *أسرة ريان ضد العالم*: كيف استطاع الأطفال الثلاثة أن يتغلبّوا على عصابة من الأعداء أو عائلة في مدينة الألعاب؛ أو كيف تركت موظفة الرعاية الاجتماعية قصاصة ورق مكتوب عليها أن الطفلة الخامسة ماري ينبغي لها الذهاب إلى الطبيب يوم الأربعاء ويجب على والديها تذكر الموعد إذ لا بدّ من معالجة الطفح الجلدي عندها؛ أو كيف عثر بول على سيارة غير مقفلة فأخذ كل ما فيها من محتويات لأنها كانت موجودة فيها؛ وكيف زارت ابنتان أحد المحلات الضخمة، وعادتا وهما تحملان عشرين محفظة نقود بلاستيكية صغيرة، ورطلين من القهوة، ومقص حدائق، وبعض التوابل الهندية، وست مصافٍ بلاستيكية. كانت هذه الأشياء تبقى متروكة لا يستعملها أحد أو تُقايض بأشياء أخرى: كانت السرقة من أجل السرقة لا من أجل الامتلاك. إن الفتاة السمراء تيزا وصديقة روث وشقيق تيزا وصديقة روث الأخرى واسمها إيرين كانوا يشاهدون برامج التلفزيون في أحد محلات أجهزة

التلفزيون الواقعة في الشارع الرئيس والذي لا يطرد الأطفال الذين يتسكّعون لمشاهدة البرامج مجاناً وقت العصر، ذلك لأن جهاز أسرة ريان كان معطلاً دوماً. صادف ستيفن مثلاً أحد الكلاب في الشارع فذهب إلى القناة، ورمى بعض العصي للكلب الذي بلغ به الذكاء حدّاً جعله يذهب إلى الماء ويأتي بثلاث عصي، لا، خمس أو ست فوراً. تحدثّوا، وتحدثّوا، وأفرطوا في الشراب، واستمتعوا بيومهم وحياتهم بتعليقات حيّة. عندما ذهبوا ليناموا كانت الساعة تشير إلى الثالثة أو الرابعة أو السادسة صباحاً. ولم ينــزعوا ثيابهم، إذ ما من أحد يخلع ثيابه في ذلك البيت حين ينام لأنه لم يكن هناك وقت محدّد للنوم. فقد يسقط أحد الأطفال وهو جالس في مكانه على حضن شقيقته فيظل نائماً هناك أو تُفرش له سترة ما على الأرض فيستغرق في النوم. وعندما يحين الصباح نجد أن كل سرير من الأسرة الأربعة الموجودة في البيت كان يحتوي على ثلاثة أو أربعة أجساد إضافة إلى الكلاب والقطط، والجميع ينامون معاً. فيبعث كل واحد منهم الدفء في الآخر ويوفِّر له الحماية. ولا يستيقظ أي واحد منهم قبل الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو منتصف العصر. وإذا ما عثر أحد أفراد أسرة ريان على عمل فإنه يفقده في بحر أسبوع لأنه يستحيل عليه النهوض صباحاً في الوقت المناسب.

كانوا يعتمدون في معيشتهم على مخصصات الرعاية الاجتماعية إلاّ إذا كلّف السيد ريان نفسه مشقة النهوض والبحث عن عمل. كانت مهنته النجارة، وقد ربح أموالاً كثيرة، واشتروا الملابس والأحذية. كانت ملابسهم مشاعة فيما بينهم، ولم يكن أي واحد منهم يملك ثوباً خاصاً به. فالأطفال يرتدون ما يناسبهم، وكل ما هو على مقربة منهم. وقد تصبح الملابس الجديدة خرقاً باليةً بعد يوم واحد من وصولها إلى البيت لسبب أو لآخر. لقد كان الأطفال يسرقون عندما يكون مزاجهم جيداً، وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان. لقد باتت الفتاة الصغيرة جون

النحيفة وذات الوجه الجميل قائداً منذ أن كانت في السابعة من عمرها. كان أربعة أو خمسة أطفال يتسلّلون إلى إحدى الشقق أو المحلات ويعودون بالنقود. لا. ليس هكذا. هذا ليس كل ما في الأمر. إذا كانت المسألة تخصّ النقود، فإن جيوبهم من شأنها أن تظل عامرة أياماً عدة برزم من الأوراق المالية التي قد تسقط منهم أو يسرقها على غفلة منهم شخص آخر. لا. من المحتمل جداً أن يعودوا إلى البيت بمصباح من الرخام يوضع على المنضدة، وعدد من مناضد القهوة الصغيرة التي شاهدوها في أحد الإعلانات التجارية في التلفزيون ورغبوا فيها، ومرآة ذات إطار من البلاستيك الوردي، والسجائر التي كانت تحظى بقيمة كبيرة ويجري اقتسامها فيما بينهم.

القضية الأساسية هي أن هدف الأنبياء والفلاسفة هو هدف ورثوه بالولادة. إنه أسلوب حياة أسرة ريان إذا صحَّ التعبير. فكل يوم وكل تجربة قائمة بذاتها، وكل عمل منفصل عن نتائجه. "إذا سرقت ذلك الشيء فستودع السجن"، و"إذا لم تأكل جيداً فسوف تعاني من نقص الفيتامينات"، و"إذا صرفت هذه النقود الآن فلن يتبقّى ما تدفعه للإيجار يوم الجمعة". هذه الحقائق التي كانت تعرض على أسرة ريان بواسطة المسؤولين داخل البيت وخارجه لم تجد لها أذناً صاغية بينهم.

من المؤكد أن القساوسة والمعلمين الروحيين كانوا في حيرة من أمرهم، فالارتباط بملكية أمر سيئ. ولكن أي ملكية؟ فريان لا يملك شيئاً ولا حتى قميصاً أو مشطاً. والعبودية للمادة قيد، ولكن أي عادات؟ إلاّ إذا كان عدم امتلاك أي عادة يعدّ عادة. عامل جارك مثلما تعامل نفسك؛ كانت شيمة الفقراء هذه متأصلة في أسرة ريان. إذ كانوا يتعاملون فيما بينهم ومع أصدقائهم البيض والسود والسمر والذين كانوا يأتون إليهم ليلاً ونهاراً بتسامح كبير وتفاهم رقيق لا يحظى به غيرهم من الناس.

لا ينبغي للمرء الاهتمام بالمظهر. لقد مرّ زمن طويل لم يعد فيه أفراد أسرة ريان قادرين على الاهتمام بهذا الموضوع.

كما لا يجب على المرء أن يتكبّر أو يتجاوز حقوق الآخرين، ويجب عليه التواضع والزهد؟ إن البقاء خمس دقائق في بيت أسرة ريان من شأنه أن يجعل أي شخص من أفراد الطبقة الوسطى يرغب في التحدث إلى محاميه.

إنهم لامبالون، لامسؤولون، ويائسون، بلا مستقبل وبلا تعليم وغير قابلين للتربية. إذا كان في مستطاعهم قراءة أسمائهم وكتابتها فذلك أمر حسن. إنهم خسيسون، ومحبطون، ومنحرفون ولكن ماذا نتوقّع عندما ينام أربعة أو خمسة أشخاص من كلا الجنسين ومختلف الأعمار في سرير واحد؟ وهم قذرون ويفتقرون إلى الصحة، ويمتلئون بالبراغيث، وضعفاء بسبب التغذية السيئة عندما لا يكونون في أوج نشوتهم... باختصار، ولكي ننتهي من الموضوع، فإن كل ما يعتقده مجتمعنا سيئاً يتمثّل في أسرة ريان. وكل ما كان مجتمعنا القديم يسعى إليه تجنبته أسرة ريان، وتخلّت عنه فقد كان ذلك فوق طاقتهم.

كانـــت أسرة ريان الفقيرة محكوماً عليها بالإخفاق واللعنة، وتمثّل خطـــراً علينا كلنا، وعلى أسلوب تفكيرنا. أما أفراد الأسرة أنفسهم الذين كانوا يبدون في سعادة ونشوة بالغتين، ويعيشون في حالة من الفوضى، فقد أحبّ بعضهم بعضاً، وأحبّوا أن يعيشوا معاً.

لما جاء الزمن العصيب أو بدا أنه قادم، أصبحت أسرة ريان وكل من لفّ لفّهم في موقع مختلف فجأة. أولاً - وهذا التعبير من تعابير علم الاجتماع - وجد بعض أولادها أنفسهم في سلك الشرطة أو في واحدة من التنظيمات العسكرية أو شبه العسكرية العديدة التي ظهرت فجأة. ثانياً، إن هؤلاء الأفراد هم أنفسهم الذين أخذوا يعيشون حياة الكفاف مع القبائل الهائمة؛ إذ لم يتغيّر الشيء الكثير عندهم. إذ متى توقف هؤلاء عن التنقل من غرفة إلى بيت مهدّم، ومن شقة بائسة إلى نُزُل في شارع احتلوه عنوةً؟ هل أكلوا طعاماً سيئاً؟ طعامهم أفضل الآن مما كان عليه عندما كانت المدينة تطعمهم. هل كانوا جهلة وغير

متعلمين؟ كانوا قادرين على الحياة بمتعة وهو أكثر مما يمكن قوله عن عدد كبير من أفراد الطبقة الوسطى الذين إما عاشوا على الادعاء بأن لا شيء يحدث حقاً؛ بل كل ما في الأمر أن المجتمع في حالة إعادة تنظيم، أو الذين اختفوا بطرق عديدة، غير قادرين على تحمّل الوجود والعيش بعد أن أصبح الاحترام والكسب لا يفيدان كمعيار لقياس قيمة الشخص.

بعد أن فقدت أسرة ريان صفة التطرف ذابت في المجتمع الذي استوعبها تماماً. أما عن أسرة ريان الحقيقية التي وصفناها هنا، فلا تزال ثمة نواة في مكان قريب: الأم وأصغر أبنائها الثلاثة. أما الأب فقد قضى نحبه في حادث جرّاء معاقرته الخمر، بينما ترك بقية الأبناء الكبار المدينة ما عدا اثنين انخرطا في سلك الشرطة. انضمّت جون إلى أسرة جيرالد، وظلّ معها بعض الوقت أحد إخوتها الصغار. لقد تبيّن أن أسرة ريان لم تكن حدثاً استثنائياً على كل حال. ففي أسلوبهم المتواضع البسيط إنما كانوا جزءاً من مجتمعنا حتى في الأوقات التي لم يبدوا فيها كذلك. فهم نتاج هذا المجتمع الذي كانوا يطيعونه، وكانوا بعيدين جداً عن كل ما سيحدث فيما بعد وعمّا قريب – عندما ظهرت في حياتنا عصابة الشبان وحطّمت بيت جيرالد – تماماً مثلما كنا نحن بعيدين عن أسرة ريان نفسها.

إنني أستعمل كلمتي بيت *جيرالد* مثلما كان الناس يقولون ذات مرة أسرة ريان وهم يعنون أسلوباً في الحياة، أو أساليب وقتية في الحياة، أو كليهما. ولا يمكن لأي من أساليب حياتنا، أو حلولنا الوسط، أو تعديلاتنا الطفيفة – الوقتية– أو كلها معاً أن تكون دائمة.

لكن في الوقت الذي كانت هذه الأشياء تستمرّ فيه، كانت أشياء أخرى تحدث مثل إميلي وواجباتها في منـــزل جيرالد الذي زرته الآن، لأنني لم أكد أرجع مع إميلي إلى غرفنا، حتى رنّ جرس الباب، ودخلت جون وهي تبتسم ابتسامة مشرقة ومتلهفة. لم تذكر في البداية موضوع

السرقة، بل جلست على الأرض، وطوّقت هوغو بذراعيها. جالت ببصرها في أرجاء الغرفة لترى أين هي الآن الأشياء التي سرقتها واضطرّت إلى إعادتها. غير أن هذه المسروقات كانت بعيدة عن الأنظار حيث وضعتها في الخزانة أو في المخزن باستثناء رزمة تضمّ بعض القطع من الفرو وضعت فوق أحد الكراسي. أخيراً قالت بيأس: "كل شيء على ما يرام. أليس كذلك؟ أقصد هل كل شيء على ما يرام؟" ثم نهضت لتربّت على الفرو وكأنه حيوان ربما ألحقت به الأذى. وددت لو ضحكت أو ابتسمت بيد أن إميلي كانت تنظر إليّ مقطبة حاجبيها بينما قالت لجون: "نعم، كل شيء على ما يرام. شكراً لك". عندئذ أشرق وجه الفتاة الصغيرة من جديد، وقالت وهي تحاول جاهدة أن تجذب اهتمامي نحوها: "هل ستزورينا. أعني أن جيرالد قال لا بأس في ذلك. لقد طلبت منه ذلك بعد أن سألته إن كان في استطاعتك المجيء. هل فهمت قصدي؟"

قلت بعد أن استشرت إميلي بعينيّ، ووجدتها تبتسم ابتسامة أمّ أو وصي: "أرغب في ذلك جداً".

لكن كان على إميلي أن تستعدّ أولاً. فقد خرجت في الوقت المناسب من الحمام، وكان شعرها مغسولاً وممشطاً، وملابسها أنيقة، بينما لاح نهداها من خلال الثوب القطني الأزرق. كان خداها ناعمين وطريين تفوح منهما رائحة الصابون؛ أي أنها فتاة أنيقة جداً وعلى أتمّ الاستعداد لأداء مسؤولياتها كاملة أمام جيرالد. غير أن عينيها كانتا مكتئبتين، وقلقتين، وفي وضع دفاعي. بجانبها كانت الطفلة جون التي بقي وجهها مكشوفاً يفتقر إلى الحماية افتقاراً تاماً وهو يبتسم لإميلي ابتسامة تدلّ على الثقة.

سرنا نحن الثلاث في شوارع قذرة مليئة بالنّفايات من أوراق وعلب فارغة، وكل أنواع الفضلات. أصبح من الضروري المرور من أمام مبنى فندق شاهق شُيِّد في أواخر أيام ازدهار السياحة لأرى

الطريق الذي ستسلكه إميلي. إذ كان كل فرد يختار طريقاً حذراً في خضمّ الأخطار التي تهدّد هذه الشوارع، وكان من السهل على المرء أن يعرف الكثير عن طبيعة أي شخص آخر من اختياره السير من أمام مبنى يثير الشكوك فيتعرّض إلى احتمال أن يعدّه الآخرون ضحية أو هدفاً سهلاً، أو السير في شارع آخر، أو إلقاء التحية على الموجودين في الحدائق على نحو شجاع وجريء، أو السير من أمام هذه الحدائق بسرعة ووجهه يميل إلى الجهة الأخرى. سارت إميلي مباشرة إلى الأمام وسط أكوام النفايات دون أي اهتمام بها. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يدهشني فيها تصرفها هذا الذي يختلف اختلافاً شديداً عن تصرفها في الشقة. ففي البيت تكون إميلي مثل قطة صغيرة، بينما خارج البيت كانت تبدو وكأنها لا ترى الأشياء التي تسير وسطها.

احتلّ المتشردون الفندق منذ زمن طويل. هذه كلمة أخرى منسية. لكن هؤلاء الناس كانوا من مختلف الأجناس على الرغم من أن المكان غير صالح للسكن مثله في ذلك مثل جميع المباني المتطورة الأخرى التي كانت التكنولوجيا تلعب دوراً فيها.

عند النظر إلى البناية الشاهقة التي تنتصب اليوم تجاه سماء حارّة جداً ومغبرة، فإنها تبدو مهلهلة ومرقّعة. فالنوافذ محطّمة أو مندفعة إلى الداخل، بينما الطوابق العليا منه مليئة بالأجهزة. كان ثمة طنين يسمع صادر عن ضوء خارج إحدى النوافذ. فقد شيّد شخص ما طاحونة هوائية صغيرة للحصول على الرياح وتحويلها إلى طاقة تجهز الكهرباء والماء الحار. كانت بعض الصفائح المعدنية المائلة تلوح من نوافذ أخرى وتشبه نسيج العنكبوت عند النظر إليها من الشارع. كانت هذه في حقيقة الأمر عبارة عن أوتار مختلفة الأنواع، وقد علّق عليها غسيل ذو ألوان متباينة.

كان المنظر يبدو زاهياً، بل تافهاً أيضاً. فالسماء تشكّل خلفية المنظر، وفي الأسفل تحيط أكوام القمامة بالبناية من جميع جوانبها

باستثناء ممرّات ضيقة فتحت بين هذه الأكوام لتصل بين الأبواب. أما الرائحة فسأتجاهلها الآن لأن إميلي وجون كانتا تقدران على تجاهلها بسهولة.

سبق لي أن دخلت تلك البناية يوماً ما، وصعدت إلى الطابق العلوي. نظرت وأنا واقفة هناك إلى الأسفل ناحية المدينة التي لم أرَها تبدو مختلفة كثيراً عمّا كانت عليه في السنوات التي سبقت توقف اشتغال الآلات. أذكر أنني حدّقت إلى الأسفل، وتصوّرت نفسي وقد عدت إلى الوراء صوب الماضي. لقد فعل كل واحد منا هذا الشيء عدة مرات بحيث يعقد المقارنة، ويوازن الحقائق في الدماغ. الحاضر مدهش جداً ويشبه الحلم بحيث إن محاولة تكييفه تعني ضرورة استخدام هذه العملية: "إنه يشبه ذلك. أليس كذلك. نعم، إنه يشبه ذلك. ولكن الآن".

... بينما كنت واقفة أفكّر أن هناك شيئاً واحداً مفقوداً وهو الطائرة التي تهبط في المطار أو تطير في الجو وتسيطر على السماء، سمعت صوت طنين خافت يشبه طنين النحل. عندما نظرت إلى السماء وجدت طائرة صغيرة تشبه الجرادة مطلية باللون الأحمر اللامع. لم يكن هناك شيء غيرها في تلك السماء بعد أن كانت الماكينات والآلات العظيمة والكثيرة والضوضاء الصاخبة تملأ حياتنا. تلك هي طائرة باقية من ذلك الزمن ربما تنقل الشرطة، أو الجيش، أو المسؤولين وهم في طريقهم إلى أحد المؤتمرات لتجانب أطراف الحديث مدة طويلة، وإصدار القرارات بشأن أوضاعنا ومحنة البشر المثيرة للحزن في كل مكان من هذا العالم. كان المنظر جميلاً، يُسرّ الناظرين، ويرفع المعنويات عند مشاهدة تلك النقطة اللامعة في الفراغ وهي تتّجه إلى مكان ما لا يستطيع أحد من هؤلاء الذين ينظرون إليها من الأسفل أن يصلوا إليه في تلك الأيام إلاّ إذا حدث ذلك في الخيال.

تجولّت ببطء في أنحاء البناية التي كانت فندقاً ذات يوم في محاولة لاستكشافها وسبر غورها. تذكّرت عندئذ مدينة صغيرة جديدة شُيِّدت

للعمال الأفارقة خارج أحد المناجم الأفريقية التي شاهدتها قبل فترة ليست طويلة، عندما كانت القارات لا تزال قريبة من بعضها ولا تبعد سوى رحلة يوم واحد. كانت هذه المدينة مشيّدة على عدة إيكرات، وقد بُنيت في مرحلة واحدة، وكانت تتكوّن من آلاف البيوت الصغيرة المتشابهة في طرازها، إذ يتكوّن كل واحد منها من غرفة واحدة، ومطبخ صغير، ومرافق صحية ومغسلة. كان في استطاعة المرء أن يلاحظ أن هذه البيوت لا تزال في داخلها تحمل طابع الحياة القروية والقبلية، فالنار تتأجّج في وسط المنـزل وفوق الأرضية المصنوعة من الآجر وكان هناك عدد من البطانيات ملفوفة في أحد أركان البيت، بينما يوجد قدران وقدح في ركن آخر. في البيت المجاور تجد منظراً يذكّرك بالعصر الفكتوري، إذ يحتوي على نضد المائدة ومائدة طعام وسرير، وكلها برّاقة ولامعة، وأشياء محبوكة لأغراض الزينة، وصورة الملكة معلّقة على الجدار المقابل للمدخل بحيث تستطيع الملكة بزيّها العسكري أن تتبادل هي ومَن ينظر إليها نظرات الاستحسان في هذا المدخل. بين هذين النمطين المتطرفين هناك تنويعات أخرى وحلول وسطى. حسناً. هذا ما آل إليه أمر الفندق. إنه مجموعة من الشوارع العمودية وبوسعك أن تعثر فيها على كل شيء بدءًا بأسرة نظيفة محترمة تروي النكات عن الأوضاع التي مرّت بإنكلترا قبل استخدام المجاري المناسبة ونقل حاويات الإفرازات والدلاء من طابق إلى آخر للوصول إلى المرحاض الوحيد الذي لا يزال صالحاً للاستعمال، وانتهاءً بالناس الذين يأكلون، ويعيشون، وينامون على الأرض والذين كانوا يحرقون الوقود فوق قطعة من الخشب المضغوط، ويقضون حاجتهم من النوافذ؛ فالرذاذ الضعيف المتساقط من السماء في تلك الأيام لم يكن يعني بالضرورة أن المطر على وشك السقوط.

لقد أردت أن أسرع في طريقي نظراً لاحتمال وقوع حادثة ما بدلاً من الوقوف في ذلك المكان بين النفايات والنظر إلى الأعلى، ولا سيما

أنني كنت أستطيع أن أشاهد من نوافذ الطابق الأرضي حارسين شابين مسلحين بالبنادق، يحرسان البناية أو جزءاً منها أو ربما غرفتهما أو غرفاً أخرى؛ مَن يدري؟ إلاّ أن جون شاهدتهما ونادتهما، وبدا عليها الابتهاج وكأن كل حادث بسيط يمنحها سعادة كبيرة لا تستحقها. اعتذرت لإميلي لأنها اضطرتّها إلى الانتظار (أما حضوري فقد تجاهلته تماماً). دخلت المبنى بينما وقفت وإميلي وسط عاصفة من الذباب نراقب مشهداً من النافذة يمثّل جون وهي تعانق أحد الشبان، ثم يعانقها شاب آخر. كان أحدهما قد زار بيت ريان مما يدلّ على أنه فرد من أفراد الأسرة. كانت البنادق تطلق في الهواء لدى وصولنا، وستعود الحمائم بعد أن فرّت، وستستقر ثانية فوق النفايات لتواصل الأكل. غادرنا المكان ونحن نحمل الطيور الميتة التي ستعدّ للوجبة التالية في المنـــزل وسمعنا صوت خفق الأجنحة، و صوت إطلاق الرصاص في الجو.

عبرنا بضعة خطوط قديمة للسكك الحديد ازهرت فيها الآن بعض النباتات التي نزعت إميلي بعضاً منها في أثناء مرورها بها لكي تستعملها كأدوية طبية أو لإضفاء النكهة على الطعام، وسرعان ما وصلنا إلى جانب المنـــزل. نعم. لقد مررت به، وتجاوزته في أثناء سيري اليومي، إلاّ أنني لم أرغب في دخوله أبداً إذ خشيت أن أتجاوز إميلي. هنا لوّحت جون ثانية لأحد الشبان الواقفين وراء مصراع إحدى نوافذ الطابق الأرضي والتي كانت مفتوحة قليلاً بسبب الحرارة، بينما لاح سلاح ما في أحد الجوانب. دخلنا إحدى الغرف، وكانت عارية من الأثاث ونظيفة مما أثار دهشتي لأنني لم أفرغ من تداعياتي القديمة عن أسرة ريان. لم يكن في الغرفة أي أثاث بل ستائر ومصاريع نظيفة، بينما لُفّت الحصر والفُرش ووضعت قبالة الجدار. كنت أنتقل من غرفة إلى أخرى في رحلة سريعة وأنا أشاهد الغرف المشاعة للجميع: غرفة الطعام، وغرفة الجلوس، وغيرهما. هناك غرفة طويلة لتناول الطعام تحتوي على مصاطب ومساند ولا شيء غير ذلك. أما بقية الغرف

فكانت تحتوي على مختلف الأغراض التي تجعل منها ورشة أو بيتاً كاملاً. كنا نفتح الأبواب الواحد تلو الآخر لنجد مجموعات من الأطفال يجلسون فوق فُرش تستعمل للنوم أيضاً، وكانوا يتحدثون أو يشتغلون ببعض الأشياء بينما عُلقت فوق الجدران الملابس وغيرها من الممتلكات. في الإمكان ملاحظة أن هذه الروابط الطبيعية والتحالفات قد حولت هذا التجمع إلى سلسلة من جماعات صغيرة.

كــان هناك مطبخ وغرفة كبيرة نصفها مغلّف بالخشب المضغوط والحديد مما يسهل إشعال النيران مهما كان نوع الوقود المستعمل فيها. كانــت هــناك نار تشتعل في تلك الأثناء ووجبة طعام يعدّها شابان وقفا جانباً عندما شاهدا إميلي ليفسحا لها المجال كي تتذوّق الطعام وتفحصه. كــان الطعام عبارة عن خليط من بدائل اللحم والبطاطا. قالت إميلي إن الطعــام جيد، ولكن تنقصه بعض الأعشاب العطرية، ثم قدّمت للشابين حفــنة من الأعشاب التي جمعتها عند سكة الحديد. كما أعطتهما بعض طيور الحمام، وأخبرتهما أن في استطاعتهما طهوها إذا أرادا أو عليهما العــثور على شخص آخر ليقوم بمهمة إضافية عوضاً عنهما. لا، ستجد إميلي شخصاً آخر، وترسله إليهما للقيام بالمهمة.

أدركــت الآن ما لم أفهمه إلاّ فهماً جزئياً من قبل: الأسلوب الذي كان يعرب فيه الأولاد عن ردّ فعلهم كلما رأوا إميلي؛ إنه ذات الأسلوب الــذي يعبّر فيه الناس عن ردود أفعالهم إزاء السلطة. وبما أنها انتقدت الآن وجبة الطعام، فقد ركع أحد الأولاد، وقطع الأعشاب الخضراء فوق لــوح مستعملاً آلة معدنية حادّة. فقد شعر أن الأوامر قد صدرت له أو هكذا خُيّل له وما عليه إلاّ أن يطيع.

كانت عينا إميلي مثبتتين عليّ: كانت ترغب في معرفة ما شاهدته ورأيي في ذلك. بدا عليها القلق بحيث إن جون أمسكت بيدها تلقائياً وابتسمت لها. كان هذا عرضاً صغيراً وجاداً لموقف لم أتجنّبه بالتظاهر بأنني لم أشاهد منه شيئاً.

قبل بضعة أيام من وصول إميلي متأخرة قالت لي:

- من المستحيل عدم وجود نظام مهما حاولت تجنُّب ذلك. ثم أوشكت على البكاء، وكانت دموعها دموع طفلة صغيرة. فقلت لها:

- لست أنتِ أول شخص تصادفهُ مثل هذه المحنة.

- نعم. لكننا لم نقصد ذلك ولم نخطِّط له. لقد تحدّثت وجيرالد في هذا الصدد منذ البداية. ناقشنا معاً الموضوع مفصلاً، وقرّرنا ألاّ يكون هناك وجود لأناس يصدرون الأوامر للآخرين عمّا يجب أن يقوموا به. ذلك فظيع. وقلت لها:

- لقد تعلّم كل فرد أن يعثر لنفسه على مكان ما في هذه التركيبة. ذلك هو الدرس الأول. الطاعة. أليس كذلك؟ وهذا ما يفعله الجميع.

- لكن معظم هؤلاء الأطفال لم يتلقّوا أي تعليم.

كانت إميلي ناقمة وميّالة إلى الشك تماماً. في الواقع، كانت تطرح سؤالاً ناضجاً، ناضجاً جداً، ومسؤولاً. على كل حال، إنه سؤال لم يوجّهه أي شخص بالغ. إلاّ أن التي واجهتني هي فتاة شابة تلوح في عينيها حاجة الطفل الصغير إلى الإطمئنان، واللوم الذي يوجّه إلى الظروف من شاب وليس من رجل بالغ.

قلت لها:

- يبدأ الأمر مع ولادة الإنسان. فالفتاة تكون صالحة أو شريرة. هل كنت فتاة صالحة هذا اليوم؟ لقد سمعت أنك كنت شريرة. آه. إنها فتاة طيبة جداً. ألا تتذكّرين...

هنا حدّقت بي ولم تسمع حقاً. وأضفت:

- هذا خطأ ولا علاقة له بأي شيء حقيقي إلاّ أننا كلنا في خضمه، كل حياتنا. "أنت طفلة طيبة، أنت طفلة شريرة. نفّذي ما أقوله لك وسأقول إنك فتاة طيبة". إنه فخ ونحن فيه كلنا.

فقالت:

- لقد قرّرنا ألاّ يحدث هذا الشيء.

فقلت:

- حسناً. لن تتوصّلي إلى الديمقراطية بإصدار القرارات أو بالاعتقاد أن الديمقراطية فكرة جذّابة. هذا ما فعلناه كلنا. فمن الناحية الأولى هناك "أنت فتاة صالحة، وأنت فتاة شريرة". هناك مؤسسات ونظام هرمي. من الناحية الثانية هناك إصدار القرارات عن الديمقراطية أو القول كم نحن ديمقراطيون. لهذا لا يوجد أي سبب يجعلك في مثل هذا الوضع السيئ. إن ما حدث يحدث دوماً.

نهضت واقفة على قدميها، وبدا عليها الغضب، والارتباك، ونفاد الصبر. وقالت:

- انظري إليّ. لدينا كل ما من شأنه أن يجعلنا نبدأ من جديد. ولا يوجد أي سبب يجعلنا نسير كالسابق. هذه هي النقطة الأساسية.

ذهبت إلى المطبخ لكي تهرب من الموضوع.

الآن تقف إميلي في مطبخ بيتها أو بيت جيرالد غاضبة، مرتبكة، وناقمة.

كان الشاب منهمكاً في عمله دون أن ينظر إلى فوق لأن إميلي كانت ما تزال واقفة وربما انتقدته. هذا ما جعلها تشعر بالهوان. إلاّ أنها نظرت إليّ وهمست. "ولكن لماذا؟" استطعت أن ألاحظ أنها كانت تريد مني إجابة وتفسيراً، بينما وقفت جون تبتسم بجانبها دون أن تفهم شيئاً وتنظر نظرة إشفاق إلى صديقتها المسكينة القلقة جداً.

أخيراً قالت إميلي وهي تلتفت بعيداً عني وعن جون وعن المشهد كله:

- آه. لا بأس. حسناً.

ثم أضافت متسائلة:

- أين جيرالد؟ لقد أخبرني أنه سيكون موجوداً هنا.

فقال أحد الأطفال:

– ذهب إلى السوق مع مورين.

– ألم يترك لي أي رسالة؟

– قال إننا يجب أن نخبرك بوجوب تنظيف رؤوسنا اليوم.

– آه. حقاً؟ حقاً؟

ثم أضافت بعد أن تحرّرت من حزنها:

– حسناً. أخبر الجميع بالذهاب إلى القاعة؟

ثم تقدّمت الجميع صوب الحديقة.

كانـــت حديقة جميلة من جميع النواحي: منظّمة، ومخطّطة، ومعدّة إعداداً جيداً، تحتشد بأشياء كثيرة مفيدة مثل البطاطا، والكراث، والبصل وكانـــت قطعـــة الأرض، تخلـــو من أي أعشاب ضارّة أو زهور. كان بعـــض الأطفال منهمكين في العمل فيها وعندما شاهدوا إميلي أسرعوا في أعمالهم.

فجأة قالت لهم:

– آه. لا، لا. لقد قلت لكم أن تتركوا السبانخ حتى الأسبوع القادم. فقد أخذنا منه كميات كثيرة.

هـــنا كشّر طفل في السابعة من عمره في وجه جون، وكأن لسان حاله يقول: "مَن تظن نفسها؟ زعيمتنا؟" لم يكن ردّ الفعل إلاّ أمراً مألوفاً يمكـــن ملاحظـــته بشـــكل أو بآخـــر في أي مكان يضمّ مجموعات من الأفـــراد، أو الأنظمة الهرمية، أو المؤسسات. باختصار، إنه موجود في كل مكان. إلاّ أن إميلي لاحظت ذلك وتألّمت، ثم قالت بلهجة رقيقة:

– لكنني أخبرتكم أن تتركوه. أليس كذلك؟ ألا يمكنكم ملاحظة ذلك بأنفسكم؟ لا تزال الأوراق صغيرة جداً.

قالت جون بسرعة:

– سأجعل بات يرى ذلك.

فقالت إميلي:

- ليس الأمر مهماً على كل حال.

قبل أن تترك الحديقة اضطرّت إميلي إلى الشرح والتوضيح، فلقد وضع الرماد الناتج عن النيران للسيطرة على الذباب الذي يحلّق فوق المزروعات قريباً جداً من السيقان. قالت إميلي للولد: "ألا ترى ذلك؟" كان الولد يقف أمامها متصلباً، وقد بدا الألم على وجهه وهو يحاول أن يتقبّل هذا اللوم بينما كان يتصوّر أنه أحسن صنعاً. أضافت إميلي: "يجب ألاّ يكون ذلك قريباً من السيقان. ولا بدّ لك من صنع دائرة مثل هذه...". ثم انحنت فوق التربة الرطبة، وتناولت الرماد من حقيبة بلاستيكية ووضعته حول ساق الزرع.

فعلت ذلك بدقّة وبسرعة، فكانت خبيرة ممتازة، بينما تنهّد الولد ونظر إلى جون فطوّقته بذراعها. عندما نظرت إميلي إلى الأعلى وهي راكعة عند الساق رأت الولدين وقد طوّق كل منهما الآخر كأنما ليحميا نفسيهما منها هي الزعيمة. فاحمرّ وجهها وقالت: "آسفة إذ تكلّمت بحدّة. أنا لم أقصد ذلك". عندئذ تخلّص الاثنان من بعضهما وتألّما كثيراً لمعاناتها، ثم سارا في ممرات تلك الحديقة النموذجية، واتّجها نحو البيت. سرت وراءها منسيةً. وضع الولد يده فوق ذراع إميلي، بينما أمسكت جون يدها الثانية. كانت إميلي تسير بينهما وكأنها عمياء، وأدركت أن سبب ذلك هو امتلاء عينيها بالدموع.

عند وصولنا إلى الباب الخلفي، تقدّمت إميلي بمفردها، ثم لحق بها الولد. أما جون فقد تلكأت قليلاً كي ترافقني، ابتسمت لي وهي تنظر إليّ هذه المرة. فهمت من ابتسامتها الخجلة العريضة حرمانها وتاريخها. في الوقت نفسه، رجَتْ عيناها ألاّ ألوم إميلي، لأنها لم تكن تقدر على التفكير أنّ إميلي منبوذة.

في القاعة أو في غرفة الطعام، وضعت أواني الماء فوق المساند، وكانت تفوح منها روائح الأعشاب القوية. كانت هناك أمشاط جميلة،

وقطع من ملابس قديمة، ووقف الأولاد بجانب هذه المساند بينما شرعت إميلي والأطفال الكبار بتمشيط فروات رؤوس الأولاد.

نسيتني إميلي تماماً، ولما رأتني بعد ذلك هتفت:

- أتحبين البقاء لتناول الطعام معنا؟

لكنني وجدت أنها لم ترغب في بقائي. لم أكد ألتفت حتى سمعتها تقول بقلق:

- هل قال جيرالد متى سيعود؟ هل قالت مورين أي شيء؟ من المؤكد أنه ذكر المدة التي سيقضيها معها؟

عندما عدت إلى شقتي، ونظرت من النافذة وجدت جيرالد على الرصيف مع إحدى الفتيات، وأعتقد أنها مورين. كان الأولاد يحيطون به كعادته. كان بعضهم ممن يعيشون في بيته. ربما رأى في تسكعه ساعات وظيفة يؤدّيها. أعتقد أن الأمر كذلك. فهو يجمع المعلومات، كما نفعل نحن كلنا، ويجنّد أعداداً جديدة من الأطفال للعمل في بيته. لكنّ المتقدمين زادوا كثيراً عن العدد المطلوب. لا بدّ أنه كان يتباهى بنفسه مستعرضاً قدراته أمام الشبان الأربعة أو الخمسة الذين كانوا قادة طبيعيين. لقد كان تصرّفه يشبه ذهاب الذكر إلى الصيد بينما تبقى الأنثى منهمكة في أعمال البيت. راودتني هذه الأفكار بينما وقفت وهوغو إلى جانبي، لمراقبة الشاب البارز بين جماهير الناس المحتشدة على الرصيف، بينما التفّت الكثير من الفتيات الصغيرات حوله، يحاولن إثارة اهتمامه والتحدث إليه. إنها أفكار بالية عن الأنظمة الاجتماعية البالية. لكن على الرغم من ذلك فالمرء يملك هذه الأنظمة فهي لا تموت. لقد ظلت الأنظمة القديمة تعيد نفسها في صياغة جديدة حتى عندما كانت الأحداث تبدو كأنها قد سمحت بحدوث تجربة ما أو خروج عن المألوف أو تحول. ينطبق الشيء نفسه على الأفكار القديمة التي كانت تلائم هذه الأنظمة. لقد سمعت دوماً صرخة إميلي الحادّة بين نبرات صوتها الذي جاهدت كي تحبسه: "أين جيرالد؟ أين هو؟" عندما كانت تقف وتمشّط

الأولاد وتزيل القمل والبراغيث من رؤوسهم، بينما جيرالد يخطِّط للقيام برحلة يستولي فيها على المؤن من مكان ما، إذ ليس في مستطاع أحد أن يقول عنه إنه كسول أو يفتقر إلى البراعة.

في وقت متأخر اختفى من الرصيف وكذلك مورين. بعد ذلك بفترة قصيرة عادت إميلي إلى البيت مرهقة، ولم تحاول إخفاء ذلك. سرعان ما تهاوت، وجلست قرب الحيوان طلباً للراحة، بينما انهمكت في إعداد العشاء. قدّمت العشاء، وغسلت الأواني ولم تزل إميلي ترتاح. بدا لي أن زيارتي لذلك البيت ومشاهدة الأعمال الكثيرة التي تضطلع بها قد مكّناها أخيراً من الاسترخاء عندما تكون برفقتي، فتجلس مطمئنة بينما أنهمك في خدمتها. لما فرغت من غسل الأواني أعددت كوبين من الشاي، وجلست وإياها في ذلك الوقت من المساء الصيفي، بينما جلست فاترة الهمّة بالقرب من هوغو.

أما خارج الشقة فقد كان الرصيف يضجّ بالأصوات الصاخبة تحت نور الشمس الغاربة. في داخل الشقة ساد الهدوء، والضوء الخافت، وصوت الحيوان الذي كان يلعق ذراع إميلي. في داخل الشقة كان صوت فتاة تبكي مثل طفل صغير وتشهق. لم ترغب في أن أعلم بأنها تبكي إلاّ أنها لم تكلِّف نفسها عناء الانتقال من ذلك المكان.

فُتح الجدار، فشاهدت من ورائه سماء شديدة الزرقة، زرقة صافية وباردة، زرقة لم أشهد مثلها في الطبيعة من قبل. كانت هذه السماء ذات لون موحّد على امتداد الأفق ولا شيء فيها يستطيع أن يرشد العين نحو الأعماق للتأمل أو الاستمتاع بالراحة. إنها الزرقة التي تتبدل والضياء. لا، هذه السماء مغرورة لا يمكن لها أن تتبدل، وكانت الجدران الطويلة الحادّة والمكسورة تتسابق إليها وكأن النظر إليها يعني الإحساس بصلابتها الشديدة.

شاهدت إميلي أمامي، ووجهها مقطّب، وهي تنجز عملاً ما، وترتدي ثوباً أزرق اللون ناعماً مما جعلها تبدو مثل طفلة في دار

حضانة من العهد القديم. كانت تحمل مكنسة مصنوعة من الأغصان المستعملة في الحدائق، وتجمع الأوراق المتساقطة في أكوام انتشرت في كل مكان على العشب الذي غطّى هذا البيت المحطّم. وبينما تكنس، وتجمع الأكوام، أخذت الأوراق تتجمّع مرة أخرى حول قدميها. أسرعت في عملها يائسة ووجهها محمرّ. تحركت مكنستها في سحابة من الأوراق الصفراء والبرتقالية اللون في محاولة منها لتنظيف البيت فلا تعود الريح قادرة على بعثرتها مرة أخرى. فرغت من تنظيف الغرفة الأولى. فالثانية، إلاّ أن الأوراق تراكمت في الخارج إلى ارتفاع وصل حتى ركبتيها، وبدا أن العالم كله مغطّى بهذه الأوراق التي تساقطت بسرعة أكبر من تساقط الثلج من السماء الرهيبة. لقد أخذ العالم يغرق تحت الأوراق الميتة، فاستدارت إميلي في مكانها بحركة تلقائية تدلّ على الرعب مما كانت تشاهده داخل الغرف التي نظّفتها توّاً، فرأت أن الأكوام التي جمعتها أخذت تختفي. فهرعت بيأس صوب الغرف الخالية من السقوف، لترى إن كان ثمة مكان هنا أو هناك لا يزال مغطّى أو تتوفّر له الحماية من تساقط الأوراق الميتة. لكنها لم تشاهدني. مرّت نظرتها الثابتة، والقوية، والخائفة جداً من فوقي ولم تشاهد سوى أجزاء من الجدران التي لا يمكن أن تحميها أو تمنع تدفّق السيل العارم. فوقفت قبالة الجدار، واتكأت على مكنستها الصغيرة غير المجدية، ونظرت، وأصغت بينما حفّت الأوراق، وتساقطت فوقها ومن حولها وعلى العالم كله في عاصفة من الخراب. اختفت مثل شبح صغير يحملق بعينيه، مثل فتاة صغيرة زاهية الألوان، مثل قطعة زينة ملوّنة في خزانة أو على رف، مثل كتلة من الألوان على قطعة مطلية باللون الأبيض، قطعة بيضاء تشبه بياض عالم الطفولة الذي ينفتح من غرفة نوم الأبوين حيث الصيف أو العاصفة أو العالم الثلجي يمتدّ على الجانب الآخر من الستائر.

أبيض. شال أبيض، وبطانيات، وملاءات، ووسائد بيضاء. في

خضمّ هذا اللون الأبيض ثمة طفل مستلقٍ وعاجزٍ عن تحرير ذراعيه. حدّق إلى السقف الأبيض، وعندما التفت رأى جداراً أبيض من ناحية وحافة خزانة بيضاء من الناحية الثانية. طلاء أبيض، جدران بيضاء، خشب أبيض.

لم يكن الولد الرضيع وحيداً فثمة شيء ما يتحرّك، مخلوق قوي يدبُّ في المكان، ولدى كل خطوة يخطوها يهتزّ المهد. تقدّمت القدمان الثقيلتان بقوة، وسمع صوت اصطدام شيء معدني بالحجر. رفع الولد رأسه من فوق الوسادة الرطبة والدافئة، إلاّ أنه سرعان ما هوى مرة أخرى فوق الحرارة الناعمة. لا. ليس قبل أن تأتي وتستلقي يائسة فوق سرير موتها بعد أن تخونها قواها ولا يبقى لها سوى الوعي الكامن وراء عينيها وعندئذ ستكون يائسة مثلما هي يائسة الآن. تقدّم المخلوق الهائل صوب المهد الذي اهتزّت قضبانه المعدنية. وعندما انحنى الوجه الضخم فوق الطفلة ورفعتها اليدان من بين الألوان البيضاء الدافئة، أوشكت أنفاسها أن تنقطع بعد أن ضغطت اليدان على عظامها. كانت قذرة. قذرة الآن، وكانت الكلمة هي الاستهجان، والنفور، والكراهية. هذا يعني لفّها وتقليبها ذات اليمين وذات الشمال بين يدين قويتين أخذتا تضربانها مثل قطعة سمك فوق بلاطة أو دجاجة محشوة.

قذرة. قذرة... كانت هذه الكلمة القاسية تتمثّل لي وأنا أراقب المشهد ذا الطابع الشخصي الذي ينم عن ثبات قوانين هذا العالم. فالبياض ينمُّ عن كراهية تشيع في الكلمة، وبرودة وخمود مثل الهواء الذي تجذبه عاصفة من البياض، وتهتزّ فيه الدمى في خيوطها. "ولنفترض أن السدود امتلأت بالثلوج، وأن الثلوج سقطت إلى ما لانهاية، وأصبح البياض يتساقط إلى الأبد؛ ولنفترض أن الغرف امتلأت بمسحوق بارد، وأن كل الماء اختفى وتبلور، وأن الدفء كله استتر في الهواء البارد الجاف الذي أصاب الرئتين بالصدمة وجعلهما

تموتان..." إنه مشهد لغرفة الأبوين حيث الستائر البيضاء مفتوحة. وفيما وراء هذه الستائر يبدو الثلج أبيض مرة أخرى والسماء مخفية. لقد امتلأ السريران العظيمان المرفوعان بالأم والأب إلى أعلى حتى كادا يصلان إلى منتصف المسافة إلى السقف. الأم في سرير والأب في سرير آخر. هناك شيء جديد في الغرفة. إنه سرير الولد ذو اللون الأبيض، الأبيض البارد والمتألق. بالرغم من أن هذا السرير طويل أيضاً غير أنه ليس بطول السريرين اللذين يضمان الشخصين العظيمين فيهما، إلاّ أنه لا يزال بعيداً عن متناول المرء. يدخل شبح شخص ما. ويبدو بصدر منحدر تماماً وصلب أيضاً. تُرفع صُرّة من السرير بينما يبتسم الشخصان المستلقيان على سريريهما ابتسامة مشجّعة. بعد أن تُرفع الصُرّة تقرِّب نحو الوجه فتنبعث منها الرائحة، إنها رائحة نفّاذة وخطيرة مثل المقص أو مثل يدين قويتين تمارسان التعذيب. شعرت بأسىً ووحدة وبلغت معاناتها حداً كبيراً بحيث لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى الوقوف هناك ساكنة، تحملق أولاً في الصُرّة، وفي الممرضة ذات الملابس البيضاء ثانياً، وفي الأب والأم اللذين كانا يبتسمان من مكانيهما في السريرين.

كان في وسعها أن تتوارى عن أنظارهما، أنظار الشخصين المبتسمين الكبيرين الموجودين في ذلك المكان المرتفع قرب السقف وفي تلك الغرفة الدافئة والخانقة ذات اللونين الأحمر والأبيض، الأبيض والأحمر، السجادة الحمراء واللهب الأحمر المتدفق من الموقد. إنها غرفة كبيرة جداً، وعالية جداً، وقوية جداً. إنها لا ترغب في أي شيء سوى الزحف خارج هذه الغرفة والاختفاء في مكان ما وإبعاد كل شيء عنها. إلاّ أن الصُرّة ذات الرائحة النفّاذة قُدّمت لها، وتناهى إليها صوت لا يخلو من الابتسام ولكنه صوت فيه لهجة آمرة في الوقت نفسه، من سرير المرأة الكبيرة:

– والآن، هذا هو طفلك يا إميلي. إنه طفلك يا إميلي.

ترتبك إميلي بسبب الكذبة. إنها لعبة، نكتة لا بدّ أن تضحك عليها وتحتجّ عليها مثلما كانت تفعل عندما يداعبها والدها معذّباً إياها على نحو لا يحدث إلاّ في الكوابيس ولسنين طويلة. فهل ينبغي لها أن تضحك وتحتجّ وتسلك سبلاً ملتوية؟ وتنظر إلى ما حولها صوب الوجوه؛ إلى الأب والأم والممرضة لأنهم خدعوها جميعاً. فهذا ليس طفلها وهم يعلمون ذلك. إذاً لماذا. إلاّ أنهم يرددون مرات ومرات: "إنه طفلك يا إميلي ولا بدّ أن تشعري نحوه بالحب".

دُفعت إليها الصُرّة دفعاً، وكان من المفروض أن تمدّ ذراعيها لتحملها. خدعة أخرى لأنها لم تحملها، بل حملتها الممرضة. ثم واصلوا الابتسام وشكرها لأنها أمسكت هذا الشيء بين ذراعيها. إذاً المسألة فوق طاقتها. وليس في استطاعتها تحمّل هذه الأكاذيب أو هذا الحب. فتأثيرهم فيها بالغ مما جعلها تمتثل وتحمل الطفل. حملته وأحبته حباً شديداً قصدت به حمايته، حباً يحمل في طياته حيلة وخديعة، حباً تمتزج فيه الحرارة وبرودة الثلج.

الغرفة الآن هي غرفة الستائر المخملية الحمراء، وتقف فيها فتاة صغيرة في الرابعة من عمرها ترتدي ثوباً فضفاضاً مزيّناً بالورود، وتراقب طفلاً مفتوح الفم يجلس بوهن فوق قطعة من المشمع مفروشة فوق السجادة.

تصدر الفتاة أوامرها بينما يحاول الولد الصغير أن يضع قطع الآجر الواحدة فوق الأخرى وهو ينظر إليها نظرة إعجاب لذكائها وقوتها:

– لا، ليس هكذا، بل هكذا!

فتتهاوى القطع بينما تصرخ به:

– هكذا!

ثم تركع على ركبتيها بانفعال شديد، وتضع القطع الواحدة فوق

الأخرى بسرعة وبراعة. كانت منهمكة في العمل- كل ذرة فيها- من أجل أن تفعل هذا الشيء، أن تفعله على نحو حسن، وأن تظهر لغيرها أن في استطاعتها ذلك، لتثبت لنفسها أنها تستطيع ذلك. يجلس الولد المحبوب في مكانه وهو يراقب باندهاش، إلاّ أن عمل ذلك هو المطلوب. نعم. وأن يفعل ذلك، أن يضع قطع الآجر الواحدة فوق الأخرى على نحو متّسق تماماً: "لا، ليس هكذا، بل هكذا". ترنّ الكلمات في أرجاء الغرفة، والغرفة المجاورة، والغرفة في الطابق السفلي والحديقة: "هكذا أيها الطفل. ألا تفهم؟ هكذا".

* * *

استمرّت الأمور تسير سيراً سهلاً بيني وبين إميلي وذلك بسبب زيارتي لبيتها الثاني. فقد أصبحت قادرة، على سبيل المثال، على التعليق على وجهها المتّسخ وعينيها المتورمتين في صباح أحد الأيام. إذ لم تكن قد ذهبت إلى بيت جيرالد في اليوم السابق. ولم تبدُ عليها أي دلائل تشير إلى أنها ستمضي إليه اليوم فقد أصبح الوقت ظهراً، ولم تكن قد ارتدت ملابسها بعد. كانت ترتدي ملابس النوم وهي عبارة عن ثوب من القطن كان ذات يوم ثوب سهرة صيفي. كانت تجلس على الأرض مطوّقة هوغو بذراعيها.

قالت وكأنها توجّه سؤالاً:

- أنا لا أفهم حقاً ما أفعله هناك أبداً.

- أعتقد أنك تفعلين كل شيء هناك.

فنظرت إليّ مليّاً، وابتسمت ابتسامة مريرة دون إرادتها وقالت:

- نعم. لكنني لو لم أفعل هذا لفعله شخص آخر.

لم أتوقع منها هذه الإجابة. فقد كانت تنمُّ عن تفكير إنسان بالغ. فبينما كنت أشجّعها في أعماقي على ذلك، كنت مذعورة أيضاً بسبب الجانب الآخر لهذه الفكرة، وهو جانب قاتم حقاً، ويقود إلى كل أنواع

فتور الهمّة واليأس. إنها الخطوة الأولى نحو الانتحار إذا توخّينا وجه الدقة. وعلى الأقل إنّ ما تقوم به يستهلك الطاقة على نحو مميت.

إلا أنني حاولت تجنُّب ذلك وقلت:

- صحيح تماماً. صحيح لكل واحد منا. لكن هذا لا يعني القول إننا نستطيع كلنا البقاء في السرير! إن ما أريد قوله هو: لماذا ينتابك مثل هذا الإحساس الآن؟ في هذه اللحظة؟ ما سبب ذلك؟

فابتسمت. نعم. ابتسمت وقالت بسرعة:

- حسناً. أنا لن أنتحر.

ثم غيّرت من لهجتها تماماً، وصاحت:

- لكنني لو أقدمت على ذلك، فهل لذلك أي أهمية؟

سألتها وأنا لا أستطيع أن أفكّر في أي شيء آخر:

- هل مورين هي السبب؟

ساعدها غبائي على التمعن في قرارة نفسها. ها هي قد عادت مرة ثانية إلى مستواها ونظرت إليّ. آه من هذه النظرات التي أستقبلها الواحدة تلو الأخرى ضربات خفيفة متوالية. كانت نظرتها الأخيرة تعني: "آه، إنها ميلودراما. إنه لا يحبّني، بل يحب فتاة أخرى".

- مورين.

خرجت الكلمة من فمها مثل هزّة كتف، بل هزّت كتفها أيضاً. حقاً. ثم أضافت:

- في الواقع، إنها ليست مورين. إنها جون في هذه اللحظة.

ثم انتظرت، وراقبتني وهي تبتسم ابتسامة صغيرة مريرة عندما قلت:

- ماذا؟ كلام فارغ. لا يمكن. هذا ليس صحيحاً. أليس كذلك؟ لكن... كم عمرها؟

- إنها في الحادية عشرة، ولكنها تدّعي أنها في الثانية عشرة.

الآن ابتسمت ابتسامة متفلسفة، وكان استهجاني القوي يغذّي طاقتها مما جعلها تجلس وتضحك. فقد كان لساني يرفض الألفاظ- الواحد تلو الآخر- التي لا يستطيع أي واحد منها أن يتّصف بغير السخرية. أخيراً سخرت مني وقالت:

- حسناً. إنها لا تستطيع أن تحمل منه. هذا شيء مهم على الأقل.

إلاّ أنني لن أستسلم لها فقلت:

- لا يهم. فهذا الشيء في صالحها.

تغيّرت ابتسامتها، وأصبحت ابتسامة صغيرة حزينة تشي بالغيرة. كانت تعني بذلك: لقد نسيت أننا لسنا في موقع يمكننا فيه قبول مقاييسك. تذكّري أننا لسنا محظوظين هكذا.

بسبب هذه الابتسامة احتفظت بسكوني. ومن ثم قالت:

- أنت تفكّرين: إنها طفلة لا أكثر وهذا خطأ! أما أنا فأعتقد أن جون كانت يوماً ما صديقتي أما الآن فهي غير ذلك.

هنا بقيت صامتة حقاً. ما هذا الهراء؟ إذا لم تكن جون صديقتها الآن، فإنها ستصبح كذلك في بحر أسبوع واحد عندما ينتقل جيرالد إلى صديقة أخرى. في لحظة واحدة - وهذا ما حدث مراراً - انتقلت إميلي من عالم السفسطة البعيد جداً عني إلى عالم الطفولة، فهززت كتفي تاركة كل شيء لها، إذ لم أستطع الحيلولة دون ذلك. فهذه المحادثة كانت فوق طاقتي.

شعرت إميلي أن هزّة كتفي ليست سوى إدانة لها فصرخت:

- لم يسبق لي أبداً أن أصبحت على علاقة متينة مع أحد مثلما كنت مع جون.

ثم أشاحت بوجهها لتخفي دموعها الطفولية.

هـل يمكــن للإنسان أن يكون أعمى إلى هذه الدرجة؟ لأنني كنت

أرى الطفلة جون وهي تقدّس *الشابة الأكبر سناً* وكأن ذلك أمر طبيعي وأنه مرحلة في تطور كل فرد. لم أفهم أبداً إلى أي حدّ اعتمدت إميلي على تلك الطفلة النحيلة ذات الوجه الحادّ، والتي لم تبدُ أصغر منها بثلاث سنين وحسب بل كانت في عالم مختلف تماماً، مثلما تختلف الطفولة عن عالم النساء الشابات.

ولم أستطع إلاّ أن أقول:

- أنت تعلمين أنه سيضجر منها، وعندئذ ستعودان صديقتين كسابق عهدكما.

أوشكت أن تصرخ ساخطة بسبب أفكاري وأساليبي المتخلفة:

- ليست المسألة أن يضجر.

- ما هي إذاً؟ أخبريني.

فنظرت إليّ، وهزّت كتفيها، وقالت:

- حسناً. الأمور مختلفة تماماً. أليس كذلك؟ إن كل ما يشغله هو القيام بجولاته حسبما أعتقد مثل قطة تعاين حدود أراضيها.

ثم ضحكت قليلاً لهذه الفكرة.

- حسناً. مهما بلغت عاداتك الجديدة من الأصالة والإثارة فالمسألة الأساسية هي أن جون ستغدو طليقة عمّا قريب.

أصحيح؟

- لكنني أفتقدها الآن.

قالت إميلي ذلك وهي تبكي، وعادت فتاة صغيرة مرة أخرى بينما هي تمسح بإبهاميها دموع عينيها. ثم وثبت من مكانها، وقالت مثل شخص بالغ:

- على كل حال. عليّ الذهاب إلى هناك سواء رغبت في ذلك أم لا.

غادرت المكان محمرّة العينين بائسة، يسيطر عليها غضب مكبوت، يبدو في كل حركة من حركاتها. ذهبت لأن إحساسها بالواجب لن يدعها تفعل أي شيء آخر.

يقع وراء جداري المزيّن بالأزهار بيت شامخ، ومرتفع، وجميل مطلي باللون الأبيض البرّاق. نظرت إليه عن بعد، ثم اقتربت منه، ولاحظت أن هذه هي المرة الأولى التي أقترب فيها من أحد البيوت من الخارج بدلاً من أن أجد نفسي في داخل مبنى آخر حالما أعبر الحدود الغامضة. كان بيتاً متيناً، محافظاً على شكله. أما طرازه فهولندي، وكل قوس فيه يوحي بالبرجوازية، وبدا متألقاً بوهج غريب، وهو مشيّد بمادة مألوفة عادية، لكنها ليست كذلك عندما يُبنى بها البيت. كسرت قطعة منه وأكلتها: حلوة تذوب في الفم، بيت من السكر يشبه البيوت في قصص الجنيات. وإذا لم يكن من السكر، فإنه من مادة تؤكل، كانت تستعمل فيما مضى لتغليف قضبان حلوى النوغا. واصلت كسر قطع صغيرة، وتناولتها، وتذوقتها. فوجدتها تغري بالأكل ولا تُشبع، إذ باستطاعة المرء أن يستمرّ في أكلها ولا يشعر بالامتلاء من هذه المادة البيضاء عديمة المذاق. رأيت إميلي تكسر قطعاً كثيرة من السطح وتضعها في فمها. شاهدت جون أيضاً وهي تختار القطع وتلتقطها بفتور همّة. قطعة من الجدار، قطعة من زجاج النافذة، واصلنا أكلنا من البيت مثل النمل الأبيض، فامتلأت بطوننا غير أننا لم نشبع، ولم نتمكّن من منع أنفسنا، ولكن انتابنا الغثيان. بينما كنت آكل في أحد الأركان، رأيت غرفة في تلك البقعة، وعلمت أنها غرفة شخصية. لقد كنت أعرف تلك الغرفة فهي صغيرة الحجم يغمرها نور الشمس الساطع الذي يتسلّل من النافذة، وأرضيتها من الحجارة، ووضع في وسطها سرير طفل وفيه طفل صغير، بينما كانت فتاة صغيرة إميلي مستغرقةً، في تناول الشكولاته ومنسيّةً. لا، بل تأكل البراز. فقد تغوّطت فوق السرير الأبيض النظيف، وتناولت حفنة من

الغائط، لطّخت به أرجاء مختلفة من الغرفة، وهي تصرخ صرخات الانتصار والنشوة. لطّخت المُلاءات، والبطانيات، والخشب والسرير، ونفسها، ووجهها، وشعرها ثم جلست في مكانها مثل قرد صغير تتذوّق الغائط متأملةً وهي تهضمه.

تلاشى مشهد الطفلة، والسرير، والغرفة الصغيرة المضاءة بسرعة وحلّ محله مشهد آخر يماثله، ولكن أصغر منه، بسبب ضرورة التلاشي، وتقليل الألم الناجم عن ذلك. إذ سرعان ما تناهى إلى السمع صوت وقع أقدام قوية على الحجارة، وصوت غاضب مرتفع، وصفعات، وتنفس ثقيل. سُمعت بعض الغمغمات وعبارات الاستهجان والطفلة تصرخ وتولول غاضبة أولاً. بعد فترة وجيزة عندما أوشكت على الغرق جزئياً بعنفوان الماء المغلي جداً الذي غطست فيه. بكت الطفلة بحرقة بريئة، بينما أخذت أمها تشمّها لتتأكد إن كانت رائحة الغائط قد زالت أم لا. إلاّ أنها وجدت -على الرغم من الماء الحار جداً الذي أحرق الطفلة، وعلى الرغم من الحك الذي ترك بشرة الطفلة الرقيقة حمراء موجعة- رائحة عفنة وثقيلة الوطأة مما جعلها تواصل إطلاق عبارات الاستهجان على نحو مخيف. واصلت الأم صراخها بامتعاض، بينما استمرّت الطفلة تجهش بالبكاء وقد أصابها الإعياء. أخيراً، وضعتها أمها في حظيرتها المتنقلة، وأخذت السرير كي تغسله وتعقمه. أما الطفلة فقد واصلت النشيج وهي تشعر بالعار الذي ارتكبته.

طفلة تبكي. صوت عدم الفهم المفقود واليائس: "أنت طفلة مشاكسة يا إميلي، مشاكسة، مشاكسة، مشاكسة، مقرفة، قذرة، قذرة، قذرة، قذرة، قــذرة، قذرة، قذرة، فتاة قذرة يا إميلي. أنت قذرة ومشاكسة. آه مقرفة، أنت فتاة قذرة، قذرة، قذرة، ووسخة يا إميلي".

تجولت لأبحث عنها في الغرف المجاورة لكنني لم أستطع العثور عليها على الرغم من أن صوت إميلي اليائس كان قريباً جداً في بعض الأحيان. غالباً ما كنت أعرف أنها موجودة خلف جدار منفرد: وكان

في استطاعتي لمسها لو لم يكن هناك أي جدار. إلاّ أنني في سيري إلى نهاية ذلك الجدار، وجدته يؤدّي إلى ما وراء الجدار الشخصي، وأنني وصلت إلى طريق معشوشب أخضر برّاق، أو حقل يحتوي على أشجار صيفية شامخة عند جنباته. كانت ثمة بيضة فوق الأعشاب يوازي حجمها حجم بيت صغير، إلاّ أنها كانت في وضع قلق تتحرّك معه مع أقل نسمة هواء. كانت إميلي، وأبوها، وأمها يتحرّكون من حول هذه البيضة اللامعة تحت السماء المشرقة. كانت جون أيضاً معهم وهي على مقربة من إميلي. كان وجودها معهم مناسبة غير محتملة الحدوث. ظلوا تائهين هناك وهم يستمتعون بضوء الشمس والنسيم العليل الذي يحرّك ملابسهم. لمسوا البيضة، وسرعان ما شعروا بالغبطة والابتهاج. وضعوا وجوههم على سطح البيضة الأملس، وشمّوا رائحتها، وحرّكوها قليلاً بسباباتهم. كان هذا المشهد هائلاً ومثيراً للمتعة، كان مشهد حرية بكل ما للكلمة من معنى. ومن ذلك المشهد التفتّ صوب ممر ضيق ومظلم، وسمعت صوت طفلة تبكي. من المؤكد أنني كنت مخطئة. فهي لم تكن وراء ذلك الجدار أبداً، فهناك جدار آخر وعرفت جيداً أين هو. وبدأت أركض. ركضت لأنني أردت الوصول إليها، وكنت في الوقت نفسه متردّدة لأنني لم أفكّر في اللحظة التي سأشمّ فيها تلك الرائحة الملوثة في شعرها وبشرتها. كان أمامي هدف وأنا أركض. فأنا لم أرغب في أن أظهر امتعاضي مثلما فعلت أمها وهي تقسو على الطفلة، وتصرخ بغضب وكراهية، وتمدّ يدها لترفعها من حيث كانت تتسلّى، لتقذف بها بقوة في الحمام الذي كان لا يزال بارداً بسبب الاستعجال بينما كان الماء الحار يتدفّق فيلتقي الاثنان، ويحيطان بها فيجمدان ساقيها ومعدتها ويوجعانها، غير أنني لم أتمكّن من العثور عليها. لم أعثر عليها أبداً بينما استمرّ البكاء طويلاً، وكان باستطاعتي أن أسمعه في النهار في أثناء حياتي *الحقيقية*.

أعتقد أنني قلت بأنني عندما كنت في عالم واحد – العالم القائم وراء الجدار المزيّن في غرفة الجلوس في شقتي – فإن العالم اليومي العادي والمنطقي الذي يهيمن عليه الزمن لم يكن موجوداً أو قائماً، وأنني عندما نسيت في حياتي العادية – لأيامٍ في بعض الأحيان – أن الجدار ربما ينفتح، قد ينفتح، وربما ينفتح ذات يوم، فإنني سأدخل عندئذ ذلك المكان الآخر. لكن بدأت الآن فترة أخذت فيها نكهة المكان القائم وراء الجدار تغزو حياتي الحقيقية. لقد ظهر ذلك جلياً في بكاء طفلة. كان بكاءً ضعيفاً وبعيداً جداً، بل غير مسموع في بعض الأحيان، أو يكاد يكون غير مسموع، بحيث تجهد أذناي في ملاحقته حتى تفقدانه. يبدأ ثانية ويرتفع وحتى عندما أتحدّث إلى إميلي نفسها أو أقف قرب النافذة أراقب الأحداث الجارية في الخارج. لقد سمعت صوت طفلة تجهش بالبكاء، طفلة وحيدة محرومة من الحب لا تسمع سوى التأنيب. في الوقت نفسه، كنت أسمع شكوى الأم– تذمُّر المرأة– فيسير الصوتان جنباً إلى جنب.

جلست أنصت. جلست وحدي وأصغيتُ. كان الجو دافئاً، دافئاً جداً، إذ كان الفصل صيفاً وغالباً ما رافقه الرعد والعواصف الجافة المفاجئة. ساد الشوارع شيء من القلق والرغبة في التحرك. كان ينبغي أن أقوم ببعض المهمات لي شخصياً لأنني يجب أن أتحرّك. جلست أو أشغلت نفسي بشيء ما وأصغيت. ذات صباح، دخلت عليَّ إميلي في أوج نشاطها وحيويتها، وانضمّت إليَّ عندما رأتني أضع فاكهة الخوخ في الصواني كي تجف. في ذلك الصباح، كانت ترتدي قميصاً قطنياً مخطّطاً وبنطالاً. كان القميص ينقصه أحد الأزرار في منطقة الصدر ولهذا بدا نهداها بارزين. كان يبدو عليها الإرهاق ولكنها مليئة بالطاقة. ولم تكن قد أخذت حماماً بعد كما أن رائحة الجنس كانت تفوح منها. لقد أشبعت رغبتها، وبدا عليها الارتياح، إلاّ أنه لاح على وجهها شيء من الحزن. باختصار كانت تبدو امرأة، جلست وهي تبتسم، وتمسح الخوخ

بحركات بسيطة وبطيئة، فقد ولّى عنها الجوع كله، والحاجات كلها، والرغبات التي تتأجّج في أعماقها والتي طردتها إثر ممارستها الجنس مؤخراً. كانت الطفلة تبكي طيلة هذا الوقت. نظرت إليها وأنا أفكّر كما يفكّر الأشخاص الكبار في السن، وأصارع الزمن عبثاً. لكنني كنت أستخدم الفكرة ذاتها كنوع من الدليل أو المعيار: حدث هذا قبل أربعة عشر عاماً، أقل من ذلك، عندما بكيت بألم شديد ولمدة طويلة بسبب عجزك عن الفهم، وبسبب مؤخرتك وفخذيك وساقيك التي أحرقها الماء الساخن. أربعة عشر عاماً تعدّ فترة قصيرة من وجهة نظري ولا تحظى إلاّ بأهمية قليلة عندي. أما عندك فهي كل شيء. كل شيء. إنها حياتك كلها.

بينما كانت إميلي تفكّر في الزمن، وتتحدّث عنه مثل فتاة يتوقّع منها أن تتحدّث هكذا عنه بينما تعلّق على التقدم البطيء في مجال المرأة والحرية قالت:

- لقد بلغت الخامسة عشرة.

كانت قد احتفلت توّاً بميلادها الرابع عشر. وقالت ذلك يوم أمس إذ كان في استطاعتها التحدث بتلك الطريقة بوقاحة وبهزّة من رأسها مثل *فتاة شابة*. في هذه الأثناء كانت قد عادت توّاً بعد أن مارست الحب؛ ولا تمارس أي فتاة الحب في هذا العمر.

قضيت صباح ذلك اليوم وأنا أصغي لنشيجها، بينما جلست أشتغل وإياها. غير أن إميلي لم تسمع أي شيء على الرغم من أنني لم أصدّق ذلك.

سألتها بطريقة عرضية قدر المستطاع بينما أتلوّى في أعماقي كي لا أسمع ذلك الصوت البائس:

- ألا تسمعين شخصاً ما يبكي؟

- لا. هل تسمعين أنت بكاءً؟

ثم ذهبت، ووقفت بجوار النافذة وهوغو إلى جانبها. كانت تنظر لترى إن كان جيرالد قد وصل. لكنه لم يكن قد وصل بعد. ذهبت لتستحمّ، وتغيّر ثيابها ثم وقفت بجانب النافذة وهي تنتظر. نعم، لقد وصل للتو. وستقف الآن مدة أطول وهي تحرص على عدم رؤيته لتؤكد استقلاليتها ولتؤكد حياتها الأخرى التي تقضيها برفقتي. ستلبث في مكانها نصف ساعة، أو ساعة. ستجلس مرة أخرى مع حيوانها الأصفر القبيح وتداعبه وتشاكسه. سيزداد صمتها، ويتحول إلى توتر بينما تأخذ نظرتها العميقة خارج النافذة أسلوباً محدّداً: فتاة تقف بجوار النافذة ناسية حبيبها. لقد وضعت يدها مرة أخرى على رأس الحيوان، وأخذت تمسّده، وتربت عليه، وستنساه وتتخلّى عنه. لقد رآها جيرالد. لقد لاحظ أنها لم تشاهده، والتفت بعيداً عنها. إنه لا يحفل بالأمر كثيراً على العكس منها. أو ربما كان يحفل به ولكن ليس على طريقتها. على كل حال، كانت جون موجودة في هذا الوقت، وكذلك مورين، وأكثر من عشر فتيات أخريات. لم تستطع إميلي أن تتحمل ذلك، فخرجت بعد أن قبّلت هوغو أما أنا فقالت لي كعادتها:

- سأخرج قليلاً إذا كنت لا تمانعين ذلك.

- في غضون لحظة واحدة كانت بينهم، بين أسرتها، بين قبيلتها وحياتها. بدت إميلي فتاة جذّابة ذات شعر داكن ينسدل على جانبي وجهها الشاحب والجاد. وقفت حيث يقف جيرالد مختالاً بالسكاكين في حزامه، وبشاربيه، وبذراعيه السمراوين القويتين، يا إلهي، كم قرناً من الزمان طوينا، وكم خطوة طويلة بطيئة قطعت إميلي عندما عبرت من شقتي إلى تلك الحياة فوق الرصيف! وما هي الوعود؟ وما هي الاحتمالات؟ وما هي التجارب؟ وما هي التنويعات على قيمة الإنسانية التي أزيلت وألغيت؟ انتابني اليأس وأنا أراقب المشهد بسبب خطورة كل محاولة وجهد يبذلهما الإنسان فتركت النافذة. في عصر ذلك اليوم، حاولت عمداً الوصول إلى ما وراء الجدار: فوقفت هناك فترة طويلة

أنظر وأنتظر. إلاّ أن الجدار لم يظهر فيه أي ضوء، بل ظل كئيباً، وموحشاً، وقاتماً. صعدت إلى الأعلى، وضغطت كلتا يدي عليه، ثم حركتهما فوق أجزاء مختلفة منه، وأنا أتحسّس، وأحاول بشتّى الوسائل أن أجعل ذلك الجدار الأصم يتزحزح تحت ضغط إرادتي. لكنني علمت أن المحاولة لا طائل منها. ولا يرجع سبب هذا إلى أن مشيئتي أو مشيئة أي شخص آخر هي التي جعلت ذلك الجدار يهوى إلى الأسفل ويمتدّ مثل جسر أو باب. غير أن الطفلة البائسة التي كانت تبكي أثارت أعصابي وحرمتني من إحساسي العادي. لكن على الرغم من ذلك، كان في وسعي مشاهدتها إذ ما التفتّ إليها، فتبدو فتاة شبقة فوق الرصيف، ولعلها لا تبتسم بسبب وقارها الموروث، إلاّ أنها لم تكن تبكي. إنها الطفلة التي أردت التقاطها، وتقبيلها، وتهدئتها. كانت الطفلة قريبة جداً، وكل ما يجب عليّ فعله هو العثور على المكان الصحيح في الجدار ومن ثم الضغط عليه كما في القصص القديمة؛ حين يُعثر على وردة معينة في النقش الجداري، أو نقطة معينة يكون التوصل إليها بعد حساب بضع بوصات من هنا إلى هناك ومن ثم يكون الدفع... لكنني كنت أعلم أنه قد لا يوجد أي شيء في محاولة الإرادة المتعمّدة. مع هذا فقد وقفت هناك طيلة فترة العصر حتى اقتراب المساء؛ إذ بدأ الظلام يرخي سدوله في الخارج، وأضيئت المشاعل على الرصيف، فبان الحشد الكبير من الناس وهم منهمكون في الأكل والشرب، ويتحرّكون بين قبائلهم وحلفائهم. تركت راحتي يديّ تنتقلان فوق الجدار ببطء، بوصة فبوصة، لكنني لم أعثر على طريق في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي. لم أعثر أبداً على تلك الطفلة الباكية التي لبثت هناك وهي تجهش بالبكاء بيأس بمفردها بعد أن تبرّأ منها أهلها، ولا تزال أمامها سنوات طويلة تعيشها قبل أن يمنحها الزمن القوة لتتحرّر ثانية.

لم أجد إميلي أبداً. لكنني وجدت حقاً... المسألة هي أن ما عثرت

عليه كان أمراً حتمياً، وكان في وسعي توقعه. كان في هذا الاكتشاف ما يميّزه كجزء أساسي فيه تفاهة، وملل، وضآلة، وقيود البعد الشخصي. ما هو الشيء الذي كان في وسعي العثور عليه، وهو أمر بديهي على نحو غير متوقع عندما ركضت وراء ذلك الجدار على امتداد الممرات والدهاليز، وفي غرف كنت أعلم أنها لا بدّ موجودة فيها؛ لكنها لم تكن فيها حتى عثرت عليها أخيراً: طفلة شقراء زرقاء العينين، إلاّ أن هاتين العينين الزرقاوين باتتا حمراوين وحزينتين بسبب البكاء. من هو الشخص المحتمل أن يكون موجوداً سوى أم إميلي، المرأة الضخمة التي تشبه حصان العربة، والتي عذّبتها طويلاً، لم تكن إميلي هي التي طوّقتها بين ذراعيّ، وحاولت أن أهدئ من بكائها. لقد ارتفعت الذراعان الصغيرتان إلى أعلى وهما متلهفتان إلى الطمأنينة، ولكنهما ستكونان، في يوم ما، هاتين الذراعين العظيمتين اللتين لم تعرفا طعم الرقّة. أما الوجه القرمزي فقد ارتاح أخيراً بعد الإعياء الشديد عندما انهارت الطفلة الصغيرة، وسقط رأسها على كتفي، بينما جفّت خصلات الشعر الناعم الذهبي عندما فركت الجدائل الرطبة بأصابعي لتمتصّ العرق. لقد وجدت الطفلة الصغيرة الجميلة الراحة أخيراً بين ذراعيّ. إذاً من هي التي رأيتها في مرحلة مبكرة سوى الفتاة الصغيرة التي كانت تلطّخ بالغائط البني شعرها، ووجهها، وسريرها. وذات مرة، سمعت صوت البكاء فسرت صوب إحدى الغرف البيضاء النظيفة والمعقّمة وهو اللون الذي يعبِّر عن حرمان إميلي. حضانة. من؟ كان هذا قبل ولادة الأخ أو الأخت إذ كانت طفلة صغيرة ووحيدة. أما الأم فكانت في مكان آخر، ولم يحن بعد وقت إرضاعها، وكانت الطفلة جائعة جداً وكانت الحاجة إلى الطعام تمزّق معدتها، وتأكلها وهي حيّة. صرخت في هذا الجوّ الدافئ الذي يحيط بها، وتصبّب العرق من وجهها القرمزي الصغير، والتفتت في محاولة للعثور على نهد أو زجاجة حليب أو أي شيء: كانت تريد الدفء، والطعام، والشراب، والراحة. فكابدت، وصرخت،

وتلوّت في مكانها. وصرخت؛ إذ لا بدّ أن يمر وقت قبل إطعامها لأن أوامر النظام تقضي بوجوب ذلك: لا شيء يستطيع أن يحرّك تلك المرأة القاسية من مكانها، المرأة التي حدّدت حاجتها وعلاقتها بطفلتها طبقاً لجدول غريب عنهما، المرأة التي ستطيع هذا الجدول وتطبّقه بحذافيره. كنت أعلم أنني أشاهد حادثة تتكرّر دوماً في حياة إميلي المبكرة وحياة أمها المبكرة. كانت شيئاً متصلاً، استمرّ يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر. فكان هناك طفل يصرخ وهو جائع، طفل حزين يئنّ، يريد الوجبة التالية من الطعام الذي لا يصله أبداً وإذا وصل فإنه ليس كافياً. ثمة شيء موجود في تلك المرأة القوية والعنيدة هو الذي أفضى إلى هذه الأمور، هو الذي أنتجها. الضرورة، القوانين الصارمة لهذا العالم الذاتي الصغير، الحرارة، الجوع، مكابدة العواطف، سريان النار الحمراء الحارّة من موقد على جدران بيضاء، صوف أبيض، خشب أبيض، أبيض، أبيض، رائحة القيء تنبعث من ذلك البلل الذي يثير الضيق تحت الذقن، رائحة الصوف الثخين المبلّل. وضآلة، ضآلة شديدة، وضعف، ويأس يتسرّب ويصرخ مطالباً بفتات صغيرة من الطعام والحرية وتنويع الاختيار وهي كل ما يمكن أن يصل إلى هذا المكان الدافئ الصغير الذي تهزّ فيه الدمى خيوط خفيّة.

* * *

أعتقد أن هذا هو المكان الصحيح لكي أقول شيئاً آخر عن هذا الشيء الذي يحدث، على الرغم من أنه لا يوجد مكان أو زمان صحيحان طالما لا توجد لحظة معيّنة تحدّد هذا الشيء وبدايته. لكن مع هذا فقد جاء وقت تحدث فيه كل شخص عن ذلك. ونحن نعلم أننا لم نفعل ذلك إلاّ مؤخراً: هناك عنصر مختلف في حياتنا.

لعله كان من الأفضل لو أنني بدأت هذا السجل التاريخي بمحاولة لوصفه. لكن هل من الممكن كتابة تقرير عن أي شيء، دون أن يكون ذلك الأمر هو القيمة الرئيسة. لعلّ ذلك هو القيمة الغامضة لمجمل

الأدب والتاريخ وهو يشبه الكتابة بحبر غير مرئي بين السطور فيبرز بلونه الأسود الغامق ويلقي ظلالاً معتمة على الطباعة القديمة التي نعرفها كلنا معرفة جيدة مثلما تتفتح الحياة الخاصة أو العامة على نحو غير متوقّع فنرى شيئاً لم نفكّر أبداً أننا قادرون على رؤيته، فنرى هذا الشيء ينمو نمواً تلقائياً للأحداث والتجربة. حسناً جداً إذاً. لكن ما هو هذا الشيء؟ إنني متأكدة أنه منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، كان الحديث يجري عن هذا الشيء في أوقات الأزمات وطالما أن هناك أزمة فإنه يصبح ظاهراً، ومرئياً، ويتلاشى زهونا أمام قوته لأن هذا الشيء هو القوة ذاتها والطاقة التي تأخذ شكل الهزّة الأرضية أو شكل نيزك يقترب ليلة فليلة فيشوّه الأفكار بالخوف؛ قد يكون، وقد كان – وباءً، حرباً، تحولاً في المناخ، طاغية يلوي عقول الرجال أو غير ذلك.

إن هذا *الشيء* لم يتلخّص في أنه الكلمة التي نطلقها على الجهل التام أو الوعي البائس. وهي كلمة تعبّر عن عدم اتساق الإنسان.

"هل سمعت شيئاً جديداً عنه؟"

"قيل الليلة الماضية كيت وكيت عنه وأن...".

تزداد الأمور سوءاً عندما يقال: "هل سمعت أي جديد عنه؟" بينما يكون هذا *الشيء* قد استوعب كل الأشياء في أعماقه ولا يمكن أن يعني أي شيء آخر عندما يسأل الناس: ما الذي يتحرك في عالمنا؟ ما الذي يحرك عالمنا؟ إنه هو. لا شيء غيره. وهذه كلمة أسوأ من كلمة هم، لأن الأخيرة هي على الأقل الإنسانية أو البشر الذين يمكن تحريكهم وهم أيضاً عاجزون مثلنا.

إن هذا الشيء ربما كان – في هذه المرحلة من التاريخ – الوعي بنهاية شيء ما.

كيف تستطيع إميلي أن تعبّر عن مشاعرها بالكلمات؟ لعلها ستصف هذا في ضوء تلك الصورة التي تظهرها وهي تكنس، صورتها

كتلميذة ساحرة وهي تعمل في حديقة كريهة ضد طوفان أوراق الشجر الميتة التي لا تستطيع أبداً إزالتها مهما بذلت من جهود. كان إحساسها بالواجب يتمّ بالصور، فهي لا تستطيع أن تقول عن نفسها إنها كانت فتاة صغيرة طيبة لا فتاة شريرة، فتاة صغيرة طيبة لا بدّ لها أن تحب أخاها وتسعده، إنه طفلها الضعيف، المجرّد من الحماية، المحبوب، المبتسم بلامبالاة، الجالس باسترخاء وسط الصوف الأبيض المبلّل ذي الرائحة النفّاذة. وربما تقول: "كان أمراً صعباً، كل شيء كان صعباً. يا له من جهد، يا لها من مسؤولية، كل هؤلاء الأطفال في البيت. لا يستطيع أي واحد منهم أن يؤدّي عملاً أو يقدّم عوناً ما لم أكن برفقتهم طيلة الوقت. لقد جعلوا مني طاغية وضحكوا عليّ. لكن لا داعي لذلك. كان في وسعهم أن يؤدّوا أعمالهم بيسر وسهولة فيحظون بالمساواة. لا. لا بدّ لي دوماً من مراقبتهم وتمشيط شعرهم القذر لكي أتأكد من غسله. وهذه الأمراض التي يصابون بها عندما لا يتناولون طعامهم على نحو معقول، ورائحة المطهرات التي كانت توفّرها الحكومة دوماً، والسبب الذي جعل جون مريضة، كل ذلك أصابني بالجنون لأنني قلقت جداً. فقد استمرّ مرضها دون سبب معين. كل ما في الأمر أنها مرضت ولا يوجد أي سبب معقول لذلك. لقد استغلّت كثيراً لكن النتيجة لم تتغيّر. فما إن يحدث شيء حتى يتلاشى بعد حين".

نعم. ربما كانت إميلي تفكّر بذلك الزمن وفق تلك الصورة.

ذات يوم عادت جون برفقة إميلي إلى الشقة بعد مرور أسبوعين من بلوغها – أعبّر عن ذلك بهذه الطريقة لأن هذا هو شعورها الذي كان يراودها – وكانت قد تغيّرت من جميع النواحي لا سيما الناحية الجسدية. كان وجهها يحمل آثار تجربتها على الرغم من أنه لا يزال مفتقراً إلى الحماية. بدت أكبر سناً من إميلي، وكان جسدها لا يزال مسطّحاً في منطقة الخصر الطفولي. وكبر نهداها قليلاً دون أن يتخذا شكلاً محدّداً. لقد جعلها القلق أو الحب تأكل ما يكفي لكي يزداد وزنها.

لقد رأيت تلك الطفلة البالغة أحد عشر عاماً كما ينبغي أن نراها عندما تكون امرأة في أواسط العمر. جسد امرأة عاملة ووجه حمل على الدوام. صفتان متناقضتان: عجز الضحية، وحدّة فضول المستغل.

لم تكن جون على ما يرام. كشفت أسئلتنا الموجّهة إليها أن هذا الشيء ليس جديداً عليها. إذ لم تكن على ما يرام منذ مدة طويلة. الأعراض؟ "لا أدري. أشعر أنني لست على ما يرام ولا شيء غير ذلك. أنت تدركين قصدي".

شعرت بآلام في المعدة وصداع في الرأس. لقد افتقرت إلى الحيوية والنشاط. إلاّ أن الحيوية لا يمكن توقّعها لدى أحد أفراد أسرة ريان. كل ما هناك أنها "شعرت أنها ليست على ما يرام أينما كانت. وينتابها هذا الشعور بين فترة وأخرى".

لم يكن هذا المرض مقتصراً على جون وحدها بل كان معروفاً لدى الكثيرين منا.

صداع وآلام غامضة، توعك ينتاب المرء بين الحين والحين، ولكن ليس وفق الأشياء التي يذكرها الأطباء، التهابات تبدو من مصدر مشترك طالما أنها تنتشر بين الناس انتشار الوباء، لكنها تفتقر إلى عمومية الوباء، تعبّر عن نفسها بأعراض مختلفة باختلاف الضحايا. حساسية دون أن يكون لها سبب واضح على ما يبدو؛ أمراض عصبية قد تنتهي في نوبات من الجنون، أو تسبِّب الشلل، أو تقلّص العضلات. أورام خبيثة أو أمراض جلدية؛ صداع وآلام تنتاب الجسد؛ أمراض جديدة تماماً صُنِّفت ذات مرة ضمن الأمراض القديمة بسبب نقص المعلومات ولكن عُرِف فيما بعد أنها أمراض جديدة؛ حالات موت لأسباب غامضة؛ فتور همّة وإعياء شديد اضطرّا الناس إلى ملازمة الفراش أسابيع طويلة مما جعل أقرباءهم يصفونهم بأنهم *عصابيون* أو *متمارضون*، لكن اختفت هذه الأعراض بعد حين، وحرّرت ضحاياها من الانتقاد والارتياب في الذات. باختصار، لقد حدثت زيادة عامة في

الأمراض في السنوات الأخيرة، التقليدية منها وغير التقليدية وإذا شكّت جون بأنها ليست على ما يرام ليس إلاّ، فإننا نفهم ما تعنيه لأن ما تشكو منه بات مرضاً معروفاً. قرّرت جون أن تنتقل للإقامة معنا بضعة أيام كما قالت، إلاّ أن ما تحتاج إليه هو تجنّب الضغوط النفسية أو أي ضغوط أخرى يولّدها لها بيت جيرالد وعلمت- كما علمت إميلي- أن جون كانت تفضّل مغادرة ذلك المكان حالاً وإلى الأبد.

اقترحت على جون أن ترتاح فوق الأريكة في غرفة الجلوس إلاّ أنها فضّلت فراشاً فوق أرضية غرفة إميلي. أعتقد أنها نامت عليه. فكّرت بصمت. لقد صدرت عني غالباً ردود أفعال قوية وعنيفة إزاء أسئلة توجّه إليّ ببراءة. حقاً لم أعرف إن كانت إميلي وجون تعتبران الشذوذ الجنسي أمراً طبيعياً جداً في هذا العالم أم لا. فقد تغيّرت أنماط الأخلاق تغيُّراً كبيراً وكثيراً في أوقات حياتي وكانت هذه الأساليب مختلفة جداً في مختلف الأوساط إذ إنني تعلّمت منذ زمن طويل أن أقبل بأي أعراف سادت في ذلك الزمان والمكان. وأنا أعتقد أن الفتاتين نامتا معاً طلباً للطمأنينة. صحيح أن ما من شك سينتابني، بعد الذي سمعته من إميلي، عن مشاعرها التي تحسّ بها بعد أن أصبحت الطفلة، صديقتها الحقيقية، وحيدة وإياها.

كانتا وحيدتين تقريباً باستثناء وجودي وهوغو. ولم يكن من حولنا على الأقل أشخاص آخرون طيلة الوقت.

حاولت إميلي أن ترعى جون. أي أنها أثارت ضجّة، وعرضت عليها الطعام. لكن فرداً من أسرة ريان لا يمكنه تناول الطعام مثل الناس العاديين. أكلت جون مقداراً ضئيلاً وهي حالمة. لعلها كانت، كما قالت إميلي، تعاني من نقص الفيتامينات ولكنها قالت:

- إنني لا أفهم هذا. فأنا لا آكل على نحو مختلف. أليس كذلك؟ إلاّ أنني أشعر بأنني لست على ما يرام في أعماقي وفي كل مكان الآن. هذا ما لم يحدث لي سابقاً.

هكذا فلو سُئِلتْ جون: أي شيء يشبه هذا الذي تشعرين به؟ فإنها من المحتمل أنْ تَردّ: "حسناً، في الواقع لا أدري. أشعر أنني لست على ما يرام في أعماقي وحيثما كنت".

ربما يتعيّن على المرء بعد كل شيء أن ينتهي به الأمر إلى تشخيص هذا الأمر بوصفه نوعاً من السحاب أو الفيض، لكنه غير مرئي مثله مثل بخار الماء الذي نعلم أنه موجود في هواء الغرفة التي نجلس فيها ويشكّل جزءاً من الهواء الموجود هناك عندما ينظر المرء خارج النافذة، فالعين تتقاطع والهواء، ولهذا السبب فإن عقلك يخبرك عندما تنظر إلى عصفور يلتقط الحشرات عن أحد الأغصان، وتعلم أن جزءاً من الهواء عبارة عن بخار ماء يمكن أن يصبح كثيفاً مثل الضباب، أو الثلج، أو المطر. وهذا *الشيء* الذي أتحدث عنه موجود في كل مكان، في كل شيء، يتحرّد داخل دمائنا وعقولنا. لا يمكن وصفه مرة واحدة فقط، أو تحديده أو إبقاؤه ثابتاً. إنه مرض، إرهاق، فوران. إنه العذاب الذي تسبّبه مراقبة إميلي، الفتاة ذات الأربعة عشر عاماً المنغلقة داخل اضطرارها كنس أوراق الأشجار الميتة. إنه ثمن الطاقة الكهربائية أو عدم الاعتماد عليها، والعطل الذي يتسبّب في أجهزة الهاتف، وقبائل آكلي لحوم البشر المهاجرة. إنه هم وسلوكهم الغريب. إنه الشيء الذي مررت به، وكان موجوداً في الفراغ القائم وراء الجدار. وهو الشيء الذي حرك اللاعبين من وراء الجدار كما هو موجود في عالمنا العادي عندما تنطوي الساعة إثر الساعة وتطيع الحياة الوحدات، مثل نوع من اللعب.

لما انتهى الصيف كانت الأمور سيئة وراء الجدار مثلما هي سيئة عندنا تماماً، أو ربما كنت أشاهد ما كان يجري هناك بوضوح أكبر بدلاً من الدخول إلى إحدى الغرف أو الممرات حيث يوجد باب ينفتح على غرف أخرى وممرات أخرى، بحيث أصبحت في مدى الإحساس بالاحتمالات والفرص، ولكنه مدى محدود دوماً بانعطافة الممر التالي

وانفتاح الباب المجاور - ظل الإحساس بالوفرة والفضاء الذي يُفتح دوماً إلى الخارج ضمن إطار النظام الذي وُضعت داخله؛ كجزء منه - وبدا الآن كأن منظراً قد تحوّل وأنني أشاهد مجموعة الغرف من فوق أو كأنني قادرة على التحرك في أرجاء هذه الغرف بسرعة كبيرة جداً بحيث أستطيع أن أشاهدها كلّها مرة واحدة. على كل حال، لقد تلاشى الشعور بالدهشة والترقّب. في وسعي أن أقول إن هذه المجموعة من الغرف والأجنحة التي كانت حتى وقت قريب مليئة بالبدائل والاحتمالات، اتّسمت بشيء من الأجواء المغلقة في الملكوت الذاتي بضروراته الجامدة. لكن على الرغم من كل ذلك، فإن الفوضى لم تكن كبيرة هناك. وبدا لي في بعض الأحيان أن كل هذه الغرف لم تُشيَّد بعناية ودقّة إلاّ لكي تهدم مرة أخرى: كأن بيتاً كبيراً تمَّ الاستيلاء عليه، ثم أُعيدت زخرفته لكي يُظهر مئة من الفترات والحالات والأساليب المختلفة - لكنها ليست متتابعة - ولكي يُعطي الإحساس بتداخل الأساليب بعضها ببعض. شُيِّد وأكمل ومن ثم هُدِمَ.

لا أستطيع أن أبدأ بإعطاء فكرة عن الفوضى المنتشرة في تلك الغرف، ولعلّي لم أستطع دخول غرفة ما أبداً، إذ كانت مليئة بالأثاث المحطّم. واستُخدِمَتْ غرف أخرى - أو هذا ما أوحت به، مكاناً لوضع النفايات. فقد كانت مملوءة بأكوام الفضلات النتنة. إلاّ أن البعض الآخر من هذه الغرف ظلّ محتفظاً بأثاث أنيق، ولكنّ السقوف كانت غير موجودة أو الجدران منبعجة. لقد رأيت ذات مرة في وسط إحدى الغرف الرسمية والباذخة التي تبدو وكأنها غرفة فرنسية من عهد الإمبراطورية الثانية تفتقد للحيوية وكأنها في متحف؛ بقايا نار فوق قطعة من الحديد القديم، وبعض الحقائب التي تستعمل أسرّةً للنوم، وقدراً كبيرة مملوءة ببطاطا مسلوقة باردة وضعت قرب الجدار مع أكثر من عشرة أزواج من الأحذية. لقد عرفت أن الجنود سيأتون فجأة، وإذا أردت البقاء على قيد الحياة فينبغي لي أن أرحل. كانت ثمة جثة ومن حولها دم جاف

يلطّخ السجادة.

لكنني بالرغم من كل آثار الدماء هذه، فإنني لا أستطيع حتى في هذه اللحظة التحرك وراء الجدار دون أن يراودني الإحساس القديم بالترقب والأمل، بل وحتى الاشتياق، وعندما كانت الفوضى في أعلى مراحلها، وكنت على وشك أن أفقد خاصيتي بتوقُّع الأشياء باستثناء الغرف القذرة والمحطّمة. زرت المكان واكتشفت ما يلي: إنني كنت في حديقة تحيط بها جدران أربعة مشيّدة بالآجر القديم وكانت السماء منعشة وجميلة من فوقي بحيث إنني عرفت أنها سماء عالم آخر لا عالمنا. كانت الحديقة تحتوي على قليل من الأزهار، إلاّ أنّ معظمها كان مزروعاً بالخضار. فثمّة مساحات مملوءة بالخس، والجزر، والفجل، والطماطم، والبطيخ الناضج، بينما كانت هناك مساحات أخرى معدّة للزراعة، ومساحات قُلبت تربتها وتُركت مكشوفة لأشعة الشمس والهواء. إنه مكان يحتشد بالنشاط، والفوائد، والآمال. لقد سرت في ذلك المكان تحت السماء وفكّرت: كيف سيُطعم الناس من هذه الحديقة؟ ليس هذا كل شيء، إذ إنني أدركت أن هذه الحديقة تضم حديقة أخرى تحتها. تمكّنت أن أشقّ طريقي إليها عبر طريق منحدر من الأرض. أعتقد أن المكان كان يحتوي على درج من الصخر، وسرعان ما وجدت نفسي في الحديقة السفلى الواقعة تحت الحديقة الأولى مباشرة، وتحتلّ المساحة نفسها. كان الإحساس بالراحة والأمان اللذين منحني إياهما هذا المكان لا يمكن وصفه أبداً. فهذه الحديقة السفلى لم تكن أقل تعرّضاً لأشعة الشمس، والريح، والمطر من الحديقة التي فوقها. شاهدت أيضاً الجدران العالية الدافئة التي تغيّر لون آجرها بفعل العوامل الجوية ومساحات من الأرض مُعدّة لغرض الاستعمال لمراحل مختلفة. كان ثمة زهرة فاتنة صفراء اللون تنمو فوق الجدار وكان عبيرها يملأ أرجاء الحديقة. هناك بعض ورود القرنفل والنباتات الفوّاحة تنمو قرب إحدى الصخور التي يغمرها نور الشمس. كانت هذه الورود صغيرة الحجم إلى حدّ ما إلاّ

أنها رائعة وفريدة. كانت جميع أزهار البيت القديم مزروعة وسط الكراث، والثوم، والنعناع.

في الحديقة شاهدت بستانياً في اللحظة ذاتها التي أدركت فيها أنني كنت أصغي مبتهجة إلى خرير الماء المنساب في ساقية رملية قرب قدميّ بينما نمت بعض الأعشاب الصغيرة والحشائش على امتداد حافتيها. تصبح هذه الساقية أكبر حجماً وحجرية قرب الجدار، وكان البستاني منحنياً فوقها، في المنطقة التي تدخل فيها إلى الحديقة من فتحة واطئة خضراء اللون أصبحت رخوة بفعل الطحالب. وهناك جدول ماء صغير يمتدّ حول كل مساحة مزروعة مما جعل الحديقة تبدو شبكة من قنوات المياه. وعندما رفعت بصري إلى الأعلى ونظرت إلى ما وراء الجدار رأيت أن الماء يأتي من الجبال الواقعة على بعد أربعة أو خمسة أميال. وكانت الثلوج تغطي تلك الجبال على الرغم من أن الوقت كان منتصف فصل الصيف. وكانت هذه المياه عبارة عن الثلوج الذائبة وكانت باردة جداً وتحمل نكهة الهواء الذي كان يهبّ على الجبال. والتفت البستاني إليّ عندما ركضت صوبه لأسأله إن كانت لديه أي أخبار عن الشخص الذي يبدو حضوره طاغياً في هذا المكان ومنتشراً مثل عبق الورود، إلاّ أنه هزّ رأسه واستمرّ في عمله للتحكم في مجرى الماء والتأكد من أنه يصل بكميات متساوية إلى جميع أجزاء الحديقة. نظرت صوب الجبال والسهول الممتدة فيما بينها حيث جثمت القرى والبيوت الحجرية داخل الحدائق وفكّرت أن الشيء الذي كنت أنظر إليه إنما هو العالم السفلي، العالم الواسع الفسيح.

إنّه العالم الذي يتعيّن عليّ الآن العودة إليه. عدت مرة أخرى إلى العالم الأولي ورأيت الجدران القديمة دافئة بفعل أشعة الشمس وتناهى إلى سمعي صوت الماء ينساب في كل مكان على الرغم من أنني لم أسمعه عندما وقفت في هذا المكان قبل الآن. تقدّمت بحذر فوق الأرض الرخوة وشممت رائحة نبات النعناع الممزوجة برائحة التفاح تفوح من

تحت ركبتي بينما طنين النحل يملأ أذني. فنظرت إلى الطعام الذي تصنعه الأرض والذي سيجعل فصل الشتاء القادم علينا فصلاً أميناً. حدائق تمتدّ تحت حدائق. وحدائق تمتدّ فوق حدائق. طبقات الأرض المزدوجة والثلاثية مزروعة بالغذاء إلى ما لانهاية، فهناك كميات وفيرة منه.

عدت إلى حياتي الاعتيادية وراقبت جون الكسلى الجالسة على كرسي وهي تهزّ رأسها وتبتسم ابتسامة شخص مريض وتنظر أمامها إلى طبق من الطعام أمسكته إميلي.

– لكن ينبغي لها أن تأكل الطعام. أليس كذلك؟

قالت إميلي ذلك بحدّة وقلق. وعندما استمرّت الطفلة في الابتسام والرفض التفتت إميلي ووضعت الطعام أمام هوغو الذي أشاح بوجهه عنه لأنّه يعلم تماماً أنه يُستغل فكأن إميلي تلقي بالطعام في سلة المهملات. ورأيت إميلي وهي تجلس نادمة قرب عبدها المهمل ووضعت وجهها على فروته كعادتها. ولاحظت كيف أنه التفت قليلاً نحوها على الرغم من عزمه على عدم إظهار أي استجابة ناهيك عن أي متعة. إلاّ أنه وجد نفسه مضطراً إلى لعق يدها قليلاً بينما كانت إميلي تنظر إليه نظرة شخص يفعل شيئاً ما لا يريده ولكنه لا يستطيع منع نفسه عنه. فجلست وبكت. ها هم الثلاثة: جون ومرضها الذي لا يعرف عنه شيء، والوحش الأصفر القبيح بذلّه ومعاناته، والفتاة الشابة العنيفة. أما أنا فجلست بين الثلاثة وفكّرت بالحدائق المشيّدة الواحدة فوق الأخرى والقريبة منا جداً وراء ذلك الجدار الذي يبدو في هذا الوقت – وهو وقت المساء – أجرد لا عمق له، ولا يوحي بأي وعد. وفكّرت بما ينتظر هؤلاء المخلوقات وبقية الناس. وعلى الرغم من صعوبة الاحتفاظ بالمعلومات الخاصة بذلك العالم بما فيه من عبق الروائح والمياه الرقراقة والنباتات وأنا أجلس في هذه الغرفة الكئيبة المهلهلة فإن الرصيف كان يغلي بالحياة القبلية. لكنني تشبّثت بتلك

المعلومات. احتفظت بها في ذهني. وقد أفلحت في ذلك. نعم. هكذا كان الأمر حتى النهاية. فقد أصبحت تلك الحياة حميمية وأمراً طاغياً في الحياة الاعتيادية كأن ذلك المكان يوفّر لنا الغذاء والديمومة ويريد منا أن نعرفه. وهبّت الريح من مكان لآخر. وكان هواء المكان الأول يشبه هواء المكان الثاني، وبينما اقتربتُ من النافذة بعد الهرب صوب الفضاء القائم وراء الجدار، كانت هناك لحظة ارتياب، واهتزّ تفكيري، لذا كان عليَّ أن أحافظ على توازنه وأنا أؤكد لنفسي أن ما كنتُ أنظر إليه إنما هو الواقع والحياة الحقيقية؛ ووقفت بعناد وصلابة في ما سيتّفق عليه الجميع أنه الحالة السوية.

* * *

مع حلول نهاية فصل الصيف كان هناك المئات من الناس ومن مختلف الأعمار فوق الرصيف. وبات جيرالد واحداً من القادة الذين يزيد عددهم عن العشرة. ومن بين أولئك القادة رجل متوسط العمر وهذا تطور جديد. وكانت هناك امرأة تقود مجموعة من الفتيات وكلهنّ على درجة كبيرة من الوعي بالذّات ينتقدن صرامة سلطة الذكر والتنظيمات التي يهيمن عليها الذكور وبدا أن واجبهن يتمثّل في الوقوف في ذلك المكان والتعليق على كل ما يفعله الرجال. فأصبحن فرقة هدفها الإدانة. ولكن على الرغم من ذلك، فإن المرأة التي كانت تقودهن رأت أنّه من الضروري بذل جهد كبير للحيلولة دون أن تبتعد أي فتاة عن مجموعتها لتنضمّ إلى الرجال. مما أدّى إلى صدور تعليقات كثيرة لا يخلو بعضها من المضامين السلبية من الرجال وفي بعض الأحيان من النساء الأخريات. بيد أن المشاكل والصعوبات التي تعين على كل فرد مواجهتها جعلت مثل هذه الاختلافات تبدو ثانوية. ويذكر أن هذه المجموعة من الفتيات كانت تتّسم بالكفاءة والمقدرة وتتعامل فيما بينها معاملة رقيقة، وكانت على استعداد لتقديم المعلومات اللازمة؛ التي تعدّ أهم سلعة على الإطلاق. وكانت الفتيات كريمات في ما يخصّ الغذاء

والبضائع التي يمتلكنها.

وكانت هذه المجموعة من الفتيات هي التي التحقت بها جون.

وحدث كل شيء كالآتي. عادت إميلي مرة أخرى إلى قضاء معظم أوقات النهار والليل في ذلك المنــزل. وقد اضطرّتها واجباتها إلى العودة إلى هناك بعد أن وصلها عدد من الرسائل توضح مدى الحاجة إليها. وأرادت أن تنتقل معها جون التي أصغت إليها ووافقت على الانتقال إلاّ أنها لم تذهب. وأدركت أنني على وشك أن أضيّع إميلي، مسؤوليتي الحقيقية لصالح جون التي لم أشعر إزاءها بأي مسؤولية خاصة. لقد أحببت هذه الطفلة على الرغم من أن حضورها الفاتر يثير الاكتئاب في شقتي مما يجعلني فاترة الهمّة أنا الأخرى ويجعل هوغو في حالة حزن بسبب الغيرة الدائمة. وانتابني السرور عندما كلّفت نفسها عناء التحدث إليّ. إذ كانت مضطجعة طيلة الوقت على الأريكة لا تفعل أي شيء. لكن الحقيقة هي أنني كنت أفضّل رحيلها. ولما عادت إميلي سألتها جون عن جيرالد بينما كانت إميلي تريد إعداد وجبة من الطعام تتألف من رقائق البطاطا التي تفضّلها أو إعداد إبريق شاي أو تقديم الشاي بأقداح مملوءة بالسكر إلى نصفها. أصغت جون إلى إميلي وسألتها عن هذا وذاك. كانت تحبّ القيل والقال. وقالت لي ولإميلي ولنفسها بلا ريب بأنها ستغادر. نعم ستغادر يوم غد. وواجهت قلق إميلي ومخاوفها بقولها: "نعم. سآتي يوم غد. سأفعل ذلك يا إميلي". إلاّ أنها ظلت في مكانها ولم ترحل.

كانت إميلي تشعّ حيوية عند الرصيف. وكان عدد جنود جيرالد يبلغ الخمسين بمن فيهم أولئك الذين يعيشون حقاً في بيته والآخرون الذين انجذبوا إليه من جموع المحتشدين الذين ظلّوا يتوافدون طيلة فترات ما بعد الظهر الحارّة.

لبثت إميلي ترافق جيرالد وقد برزت بدرها كمستشارة ومصدر للأخبار. لذا فعلت الآن ما حرصتُ على تجنّبه في السابق خشية إزعاج

إميلي أو الإخلال بالتوازن. عبرت الشارع لكي أرى ماذا يجري هناك كأنني لم أواصل المراقبة أشهراً! ولكن هكذا وصف المواطنون الكبار كلهم رحلاتهم الأولى أو التالية في الواقع إلى ذلك الرصيف؛ وصفوها غالباً حتى اللحظة التي تدثّروا فيها ببعض البطانيات أو الملابس السميكة وأعدّوا بعض الطعام استعداداً لمغادرة المدينة مع إحدى القبائل المارّة بهم أو التي ستغادر الرصيف. وتساءلت إن كانت هذه الزيارة التي قمت بها بعيداً عن شقتي، وعبوري للشارع يدلاّن على عزمي الدفين في أعماقي على مغادرة المدينة. كانت هذه الفكرة جذّابة جداً بحيث إنها ما إن تبادرت إلى ذهني حتى استحوذت عليّ مما اضطرّني إلى مقارعتها.

لقد كان هدف رحلتي الأولى إلى الرصيف والهدف من وقوفي هناك والتسكع مع الآخرين ساعة أو ما يقرب من ذلك هو الاستماع في الواقع إلى ما يتردّد من حديث عن إميلي التي كانت تقضي الساعات الكثيرة من كل يوم في ذلك المكان. حسناً. أصبت بالدهشة البالغة. وكم من مرة أصابتني فيها هذه الفتاة بالدهشة! تجولت مع هؤلاء المحتشدين الذين كانوا يمتلئون حيوية ويتّصفون بالخشونة ولا يعرفون طعم الراحة، ورأيت أن كل واحد من أفراد هذا الحشد، لا أولئك الذين بدوا على استعداد لإظهار الولاء لجيرالد وحسب، يتّجهون صوبها طمعاً في الأخبار والمعلومات والنصائح. وكانت إميلي مستعدّة لذلك. نعم. هناك تفاح مجفّف في الدكان الفلاني في الضاحية الفلانية. لا. إن رحلة الحافلة المتّجهة إلى إحدى القرى الواقعة على بعد عشرين ميلاً إلى جهة الغرب لم تلغَ تماماً، بل لا تزال تواصل رحلاتها مرة واحدة في الأسبوع حتى حلول شهر كانون الأول. وثمة رحلة تبدأ في العاشرة من صباح الاثنين القادم ولكن ينبغي على المرء الحضور في الليل والوقوف في صفوف المسافرين العازمين على الرحيل في ذلك اليوم. وعلى المرء أن يكون مستعدّاً لخوض معركة للحصول على مكان. والمسألة

تستحق ذلك إذ قيل إن هناك كميات كبيرة من التفاح والخوخ. وإن أحد الفلاحين سيأتي بعربة كل يوم جمعة محمّلة بالدهن والجلود ويمكن العثور عليه في.. هناك جياد قوية معروضة للبيع أو المقايضة. نعم، هناك بيت يقع على بعد أربعة شوارع ويصلح أن يكون إصطبلاً. أما العلف فيمكن تدبيره، ومن الأفضل زراعته، إذ يحتاج الجواد الواحد إلى.. وهناك مجموعة من الأجهزة الكيماوية تستخدم في الإضاءة والطبخ ستُعرض عصر يوم غد في الطابق الثاني في فندق بلازا القديم وستُقدّم بعض هذه الأجهزة هدية لكل من يساعد في الإعداد. وسيُعرض رماد الخشب وسماد الجياد ومزيج من روث وأشجار الشجر للبيع في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الأحد تحت طريق المرور القديم قرب شارع سمث، وستلقى دروس في تعليم كيفية صنع المولدات وتدفع أجورها طعاماً أو وقوداً: مفرغات هواء، معقّمات الماء، مطهّرات التربة، خم الدجاج والدجاج، آلات شحذ السكاكين... هناك رجل يعرف تخطيط المجاري تحت الأرض، والأنهار التي تجري فيها كان يضخّ الماء نحو السطح في... وفي الشارع الكائن بين طريق (س) ودرب (ص) هناك نباتات مختلفة، وعند ناصية شارع بلتداون ثمة قطعة من الأرض زُرعت بالبطاطا وأصبحت منسية. وربما كان من زرعها قد رحل عن المدينة. كانت إميلي تعرف هذه الأشياء كلها بل وأكثر منها وكانت مطلوبة من الجميع بفضل حيويتها في ذلك المكان الذي يشبه المعرض حيث تصطدم فيه مئات الرغبات وتتنافس وتطعم الواحدة الأخرى، وكثيراً ما كان يُشار إليها بوصفها إميلي صديقة جيرالد. وقد أثار الأمر دهشتي ولا سيما بعد أن عرفت الأمور على حقيقتها في ذلك البيت الذي زرته. هل هذا أثر عاطفي أو لفظي على الأقل من مخلّفات الماضي؟ فالرجل عنده امرأة، امرأة رسمية مثل الزوجة الأولى حتى لو كان يملك بيتاً للحريم؟ وإذا كان في وسع المرء استخدام مصطلح قديم فلماذا لا يستطيع استخدام بقية المصطلحات؟ حاولت أن أطلق الكلمة

على جون وقلت لها: "أنت إحدى حريم جيرالد". وهنا نظرت إليَّ باستغراب فقد سبق لها أن سمعت هذه الكلمة إلاّ أنها لم تَقرنها بأي شيء آخر قد يقترب منها. لكن نعم، لقد شاهدت أحد الأفلام وأن جيرالد لديه حريم. وكانت جون واحدة منهن. بل حتى أنها قهقهت ضاحكة وهي تنظر إليَّ بعينيها الزرقاوين الشاحبتين اللتين كانتا تبدوان دوماً وكأنهما تبتلعان الدهشة. ها هي مضطجعة هناك تنظر إلى نفسها كواحدة من الحريم، امرأة متقدّمة في السن قليلاً، ذات خصر طفولي نحيف، وعينين طفوليتين، وشعر ينسدل على أحد الجانبين.

من الطبيعي أن إميلي لاحظت ظهوري على الرصيف وظنّت أنني على وشك الرحيل. لقد كان المنظر يبدو جذّاباً جداً بوجود هذه الجماهير المبتهجة والفنية في هذا العالم الذي يعيش أفراده عيشة الكفاف. فلقد كانوا بسطاء ومبتكرين في كل شيء فعلوه. إنه لارتياح عميق عندما تُرمي جميع الوسائل القديمة والمشاكل القديمة بحركة واحدة تشبه هزّة الكتفين، تلك المشاكل التي ستزول وتفقد أهميتها بعد أن خطا المرء نحوها صوب الرصيف للانضمام إلى القبائل. ويمكن وصف إدارة شؤون المنـــزل الآن بدقة تساوي وصف إدارة شؤون الكهوف وهذه مهمة تافهة ومضيعة للوقت. إن صَدَفَة حياة المرء هي إعداد كل وسائل الراحة الحديثة أما في داخل الصدفة فإن المرء يقايض ويقبض بل ويسرق أيضاً، وإن أمراً آخر أحرق الشموع وقفز من فوق النيران التي أجّجتها الأخشاب التي قطعت بالفأس. وسيقوم هؤلاء الناس وهذه القبائل بإدارة ظهورهم لها والانطلاق نحو الشوارع. نعم، من الطبيعي أن يضطروا إلى التوقف في مكان ما والعثور على إحدى القرى الخالية من السكان والاستيلاء عليها؛ أو الاستقرار في الأماكن التي يسمح لهم المزارعون الذين نجوا من الموت بالاستقرار فيها وذلك لقاء أعمالهم أو العمل كجنودٍ خاصين. ويتعيّن عليهم إيجاد نوع من النظام لهم مرة أخرى حتى لو لم يكن أكثر من نظام يلائم الخارجين

عن القانون الذين يعيشون داخل الغابة وخارجها في الشمال. وستبدو المسؤوليات والواجبات صعبة ومثيرة للضحك؛ وربما سيحدث ذلك قريباً جداً. ولكن في تلك الأثناء ستسود حياة بين الجنس البشري أسابيع أو أشهراً أو ربما سنة إذا كان الحظ مؤاتياً، وستكون هذه الحياة منضبطة ولكنها ديمقراطية. حيث إن هؤلاء الناس في أفضل أحوالهم يصغون حتى إلى الأطفال وباحترام. وستختفي كل المشكلات المتعلقة بالملكية وستزول كل محرّمات الجنس باستثناء المحرّمات الجديدة ولكن المحرّمات الجديدة ستكون دوماً أخفّ عبئاً من المحرّمات القديمة. وسيتمّ تحمّل المشكلات على نحو جماعي. وسيكون الناس متحرّرين من بقايا المدنية على الأقل وأعبائها. كان هذا شيئاً مرغوباً جداً ومثيراً للحسد إلى أبعد الحدود. ورغبت كثيراً في إقفال شقتي والرحيل. ولكن كيف أستطيع ذلك؟ فهناك إميلي. فأنا باقية طالما بقيت هي. وبدأت مرة أخرى أتحدّث بتردُّد عن أسرة دولجيلي وكيف أننا سنطلب منهم ملاذاً هناك، ومن ثم سنبني بيتاً لكي يكون مأوىً لنا... وستكون جون معنا حقاً. ولاحظت من القلق البادي على ملامح إميلي إنّه من غير المحتمل فصلها عن جون.

وهوغو؟ الحقيقة أنها لم تكن تمتلك وقتاً كافياً له. وفكّرت أنه إذا كان هذا الحيوان هو الذي اضطرّها إلى البقاء هنا في السابق فإنه لم يعد كذلك الآن.

أعتقد أنه فقد الأمل نهائياً في أثناء تلك الفترة عندما كانت إميلي نادراً ما تظهر بيننا، وكانت تذهب مسرعة لرؤية جون. وشاهدته ذات يوم يجلس قرب النافذة، وكان في وسع أي امرئ يرفع بصره من الشارع أن يراه جالساً بهيئته الصفراء القبيحة. كان ذلك تحدّياً أو لامبالاة. لقد شوهدِ حقاً. إذ عبر بعض الأطفال الشارع وبدأوا ينظرون إلى الحيوان الأصفر الجالس هناك محدّقاً بثبات إليهم بعينيه الشبيهتين بعيني قطة. وفكّرت أن بعض هؤلاء الأطفال، الأطفال الحقيقيين الذين

يبلغون الخامسة أو السادسة من العمر لم تتهيّأ لهم فرصة مشاهدة كلب أو قطة كحيوان أليف يمكن أن يحبّه المرء ويصبح جزءاً من أفراد الأسرة. وسمعت الأطفال يقولون: "آه، إنه قبيح الشكل". ثم يكشّرون ويبتعدون. لا. ليس هناك شيء يمكن عمله لمساعدة هوغو عندما يحين الوقت لذلك. ولن يقول أحد ما: "آه. لا تقتله. إنه حيوان جميل".

حسناً، جاءت إميلي ذات مساء وشاهدت الحيوان الأصفر يتألّق قرب النافذة. لقد جلس هوغو وبدا لونه برّاقاً بسبب أشعة الشمس الغاربة ونور الشموع. وكانت رؤيته في ذلك المكان كافية لكي تصيب إميلي بصدمة، إذ أيقنت تماماً الدوافع التي جعلته يختار عدم الإذعان لغريزة الإحساس بضرورة حماية نفسه.

وقالت:

- آه يا هوغو. عزيزي هوغو...

غير أنه لم يلتفت إليها حتى عندما وضعت يديها فوق كلا جانبي رقبته وقرّبت وجهها من جسده. ولم يذعن لها. وأدركت أنه يقول لها بأنها قد تخلّت عنه ولم تعد تهتمّ به.

لاطفته وتملّقته حتى نزل من على كرسيه العالي وجلست معه فوق الأرض، وبدأت تجهش بالبكاء الشديد الذي يدل على الإعياء. واستطعت أن ألاحظ ذلك كما لاحظته جون أيضاً وهي التي كانت تراقب المشهد دون حراك. وراقبها هوغو ولعق يدها أخيراً واضطجع في مكانه ولسان حاله يقول: لا يهمّني أن أبقى على قيد الحياة إذا لم تهتمّي بي.

كانت إميلي في حالة صراع عنيف وقلق في أعماقها. وظلّت تندفع جيئة وذهاباً بين ذلك البيت وشقتي وبين شقتي والرصيف. وكانت مضطرّة إلى رؤية جون وأخذ القليل من الطعام الذي كانت تحبّه والإشارة إليها بالذهاب إلى النوم عندما يحين الوقت المحدّد لنومها؛ إذ لو تركت جون حرّة فإنها ستظل مستلقية على الأريكة حتى الساعة

الرابعة أو السادسة صباحاً دون أن تفعل شيئاً سوى مراقبة حركات مرضها الداخلية. أما هوغو فلا بدّ لها من عمل شيء ما بشأنه لتظهر له أنها تحبّه. وبدا كأن من واجبها العمل على الاهتمام بهوغو اهتماماً كبيراً كأن تهتمّ بنسبة الطعام أو الدواء. وكنت أنا الأخرى موجودة في المكان: الوصية العجوز والمعلمة، ذات المزاج الخاص. وهناك بقية الأطفال الذين كانوا يرسلون في طلبها دوماً وكأنها لبثت بعيداً عنهم فترة طويلة جداً من الزمن. وأُصيبت بالإعياء وبدت حادّة ونزقة ومتضايقة. وكانت رؤيتها على تلك الحال تدعو إلى الشفقة.

ثم انتهى فجأة كل شيء.

وحُلّت المشكلة: إذْ رحلت جون.

فذات يوم نهضت من مكانها فوق الأريكة واتّجهت صوب الشارع. لماذا؟ لا أدري. ولم أعرف أبداً السبب الذي دفعها إلى ذلك. على أي حال، كانت تقضي فترات ما بعد الظهر مع حشود الناس على الرصيف. ولم يكن يبدو عليها أنها متعلّقة بمجموعة من الناس أكثر من تعلقها بالبقية. وكانت تُشاهد بقوامها المخيف الشاحب والنحيل بين القبائل المختلفة مثلما تُشاهد بين أفراد القبيلة التي جنّدها جيرالد. وشوهدت ذات مرة في مجموعة النساء. ثم رحلت هذه المجموعة، وبرحيلها اختفت جون حيث رحلت وإياهم.

نعم. لم نصدّق ما حدث. بل لم نعرف أول الأمر حقيقة ما حدث. إذ لم نعد نشاهد جون في شقتي أو على الرصيف أو في بيت جيرالد. واندفعت إميلي بعنف تستفسر عنها وعندما اكتشفت حقيقة ما حدث أُصيبت بصدمة.

هكذا اختفت جون إذاً دون أن تترك حتى خبر عن مغادرتها. نعم. هكذا بدت الأمور وقيل لنا إنها ذكرت أنها تشعر برغبة في الرحيل.

والشيء الذي لم تستطع إميلي أن تهضمه هو أن جون رحلت دون كلمة وداع أو ترك أي خبر. ولم تفصح عن أي شيء يدلّ على

رغبتها في الرحيل. تحدّثنا معاً عن الموضوع وتوصلنا إلى حقيقة أن جون قالت في ذلك اليوم الذي تركتنا فيه: "حسناً. مع السلامة. إلى اللقاء فيما بعد". ولم يكن كلامها هذا موجّهاً إلى إميلي أو إليَّ على نحو خاص. أنَّى لنا أن ندرك أن ما قالته إنما هو كلمة وداع قبل رحيلها النهائي:

لقد أصابنا بالصدمة فعلها الذي كان يفتقر إلى المنطق. ألم تعتقد أننا نستحق منها كلمة وداع؟ أم أنها لم تودّعنا وداعاً حقيقياً لأنها كانت تظنّ أننا سنحول دون رحيلها؟ لا. لم نستطع أن نعتقد بذلك. إن الحقيقة المثيرة للصدمة هي أن جون لم تشعر بأنها هي نفسها تستحق أن تبذل المحاولة. ولا بدّ أنها ظنّت بأن رحيلها لا شأن لنا به. ولكن هل كان ذلك على الرغم من أن إميلي كانت تحبّها كثيراً وكانت قلقة عليها؟ نعم، على الرغم من ذلك. إن جون لم تُقيِّم نفسها تقييماً صحيحاً. فقد كان الإحساس بالحب إزاءها والعطف عليها وبذل الجهد من أجلها يتدفّق مثلما يتدفّق الماء في إناء لا قرار له، دون أن يترك أي أثر. إنها لم تستحق شيئاً، ولم تملك شيئاً، ولم تكن تجد من يحبّها حباً حقيقياً ولهذا لا يمكن لأي شخص أن يفتقدها. لهذا السبب رحلت. لعلّ إحدى النساء شعرت نحو جون بالعطف مما جعل هذه الصغيرة تستجيب مثلما استجابت لعواطف إميلي. لقد رحلت لأن في وسعها أن ترحل في أي يوم. لم يكن الأمر بذي شأن، ولم تكن هي الأخرى ذات شأن. واتفقنا أخيراً على أن تلك المرأة القوية والنشطة التي تقود تلك المجموعة من النساء قد استحوذت على جون الكسلى في وقت باتت فيه إميلي لا تملك وقتاً كافياً للطواف والتجوال.

غير أن إميلي لم تستطع أن تهضم ذلك.

شرعت تجهش بالبكاء. كانت دموعها عنيفةً في البداية ووجهها شارداً وعيناها محملقتين وكأنّهما عينا طفل تقولان: ما هذا الذي أصابني؟ مستحيل! هذا ليس عدلاً. وتدفّق طوفان الدموع والنشيج القوي

وعبارات الغضب والسخط. ثم تسترسل قائلة: أنا، أنا الجالسة في هذا المكان، أنا التي أُصيبت بهذه المصيبة. ضوضاء وصوت بكاء. هذا النوع من الدموع لا يحتمل، لا، إنه يؤلم، ليس دموع امرأة.

وهذا ما حدث فيما بعد.

كانت إميلي مغمضة العينين ويداها على فخذيها وتهتزّ ذات اليمين وذات الشمال وإلى الأمام والخلف وتجهش بالبكاء وكأنها امرأة بالغة، أي وكأن الأرض تنــزف. وكنت على وشك أن أقول كأن الأرض قرّرت أن تبكي بكاءً شديداً – إلاّ أن هذا الوصف لا يليق بحالتها – وأصغيت إليها وأنا متأكدة من أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى احترام رغبتها في البكاء كأنها امرأة بالغة تبكي.

مَن يستطيع أن يبكي على هذا النحو؟ ليست امرأة عجوز. إن دموع الشيخوخة يمكن أن تكون مؤسية، ويمكن أن تكون فظيعة إلى أبعد الحدود. إلاّ أنها دموع تعرف أفضل مما لو طالبت بالعدل، فقد تعلّمت كثيراً ولا تعرف أبداً خاصية الانحسار. وفي وسع الولد الصغير أن يبكي كأن بؤس العالم كله هو بؤسه. وليس العذاب الذي يتضمّنه بكاء المرأة هو بيت القصيد، لا. إنه حتمية القبول بالظلم. هكذا كانت وهكذا هي الآن وستبقى إلى الأبد كما تعبّر عنها هاتان العينان المغمضتان الدامعتان وهذا الجسد المرتعش بالحزن. الحزن. نعم؟ فعل الحداد. لقد جوبه عدو ما وعولج وضعه إلاّ أن المعركة انتهت بالخيبة والهزيمة. لم يعد هناك أي شيء، لم يتبقَّ أي شيء، فلا شيء يمكن توقّعه. نعم، وعلى الرغم مني، فإن كل كلمة أكتبها تكون قريبة من الكوميديا، فهناك قهقهة تماماً مثلما هناك امرأة تبكي بصوت عالٍ. ففي الحياة ثمة قهقهة عالية لا يمكن تحمّل أي ذرة فيها كالدموع تماماً. جلست هناك ولبثت جالسة وأنا أراقب إميلي، وهي مسترسلة بالبكاء. وتمنّيت لو أنني أستطيع مغادرة المكان إذ إنني أعلم تماماً أن ذلك لن يغيّر من حقيقة الأمور شيئاً عندها سواء أكنت موجودة أم لم

أوجد. لقد أردت أن أمنحها شيئاً من الراحة والطمأنينة وأن أمدَّ لها ذراعي، وأقدّم لها قدحاً من الشاي (وهو ما سأفعله في الوقت المحدّد). لا. ينبغي عليّ أن أصغي إلى الحزن وإلى التعبير عن الأشياء التي لا تطاق. ماذا في وسع المراقب – سواء كان زوجاً أو عاشقاً أو أماً أو أي شخص آخر – أن يفعله إن سمع شخصاً بكى بهذه الطريقة في وقت ما، خصوصاً إذا كان هذا الشخص زوجاً أو عاشقاً، ماذا في وسعه أن يسأل: ماذا كنت تتوقّعين مني ومن الحياة بحق السماء بحيث إنك تبكين الآن هكذا؟ ألا ترين أن ذلك مستحيل؟ أنت مستحيلة. لا يمكن لشخص وُعد وعداً أن يجعل من هذه الدموع أمراً ممكناً. ألا ترى ذلك؟ لكن لا فائدة من ذلك. العينان المغمضتان تحملقان فيك. إنهما تشاهدان فيك عدواً قديماً وأحمد الله أن هذا العدو ليس أنا شخصياً. إنه الحياة أو القدر أو المصير، أو قوة مثل هذه هي التي سدّدت ضربة إلى قلب تلك المرأة وستبقى جالسة في مكانها إلى الأبد ترتعش بسبب الحزن الشديد الفظيع. كما أن الدموع التي تنهمر منها هي الأركان التي يجب أن يستريح فوقها كل شخص. لا شيء أقل من هذا يمكن أن يبرّرها. وفي أثناء ذلك سقطت إميلي مغشياً عليها فوق الأرض وأخذت تشهق كطفل صغير ثم راحت في نوم عميق. وعندما استيقظت لم تذهب إلى البيت أو الرصيف بل ظلّت جالسة وهي تحاول أن تستعيد نفسها. وكان من شأنها أن تظل في مكانها لا تفارقه لولا عامل التحدي.

فقد أتى جيرالد لرؤيتها. صحيح أنه جاء من قبل لرؤيتها عدّة مرات طلباً للمشورة. ولم تكن زيارته أمراً جديداً فإننا لم نكن نعتبر مشكلته أو مشكلتنا أمراً جديداً. ولم يكن الأمر كذلك في هذه المرحلة.

أراد أن يتحدّث عن عصابة تتألّف من أطفال جدد يشعر نحوهم بالمسؤولية. وكان هؤلاء الأطفال يعيشون في محطات قطار الأنفاق ويأتون طلباً للطعام والحصول على المؤونة. وليس في هذا الأمر أي

شيء جديد. فهناك عدد كبير من الناس الذين آثروا العيش تحت سطح الأرض على الرغم من أن مشاعر الناس حولهم اتّسمت بالغرابة ولا سيما أن هناك عدداً كبيراً من الفنادق والبيوت الفارغة. ولكن ربما كانت الشرطة تطاردهم أو لعلهم كانوا مجرمين على نحو ما فيشعرون أن بقاءهم تحت الأرض أكثر أمناً.

كان هؤلاء الأطفال يعيشون كالجرذان في الأرض، وشعر جيرالد أنه ينبغي عليه أن يفعل شيئاً ما لأجلهم وأراد من إميلي أن تقدّم له العون والدعم. وكان متلهّفاً جداً كي يراها تنهض على قدميها فتدفع فيه القوة بإيمانها وكفاءتها.

وتوسّل إليها. غير أن إميلي كانت فاترة الهمّة وفي عالم آخر. وكان الموقف مثيراً للضحك بما يكفي. فهذه إميلي المرأة تجلس في مكانها وتقول ببرود: "هل تريد مني أن أعود مرة أخرى. هل أنت بحاجة إليّ؟ أنظر إليك وأنت تركع أمامي، لكنني عندما أصبح معك لا تشعر بقيمتي. فأنت تشعر أنك قد ضمنت وجودي. لكن ماذا بشأن الأخريات؟" لقد ألهم التهكم جلستها وإشاراتها وظهر شعاع برّاق في عينيها يوشي بالنقد. وأدرك جيرالد أنه موضع لوم. وأنه لا بدّ أن يكون مذنباً بسبب عمل ما اقترفه، إلاّ أنه لم تكن لديه أي فكرة عن ذلك إلى أن جاءت اللحظة التي أدرك فيها عمق مشاعرها وفداحة جرحه. كان يبحث في ذاكرته عن سلوك شعر أثناء ارتكابه إيّاه بأنه منحرف ويستطيع أن يعده الآن سلوكاً خاطئاً إذا ما حاول حقاً وكان مستعداً لذلك. ربما هذا هو الوضع الذي يثير السخرية؟

وتحمّل جيرالد المشاق حتى النهاية وكذلك إميلي. وكان يبدو مثل صبي وهو يرتدي ثوبه الجرسيه الممزّق وسروال جينزٍ عتيق. وكان هذا اللص وزعيم العصابة شاباً صغيراً. بدا عليه التعب والقلق، وظهر كأنه بحاجة إلى أن يضع رأسه فوق كتف شخص ما ليطمئنه ويهدّئه! وكان يبدو كأنه بحاجة إلى طعام جيد ونوم عميق خارج البيت مرة

واحدة على الأقل. هل ثمة ضرورة لوصف ما حدث؟ أخيراً ابتسمت إميلي ابتسامة جافة لنفسها لأنه لم يستطع أن يفهم سبب تلك الابتسامة. نهضت من مكانها استجابة للتوسل الذي كان يصدر من جيرالد دون وعي منه، إذ واصل نصائحه وشرحه. وفي وقت قصير، كان الاثنان يناقشان مشكلات بيتهما كأنهما والدان في مقتبل العمر. ثم انطلقت وإياه بعد ذلك ومضت عدة أيام لم أشاهدها خلالها. ولم أفهم طبيعة هذه المشكلة الجديدة والصعوبات الخاصة بهؤلاء الأطفال إلاّ بين وقت وآخر. ولم أعرف الأمر من إميلي وحسب. إذ عندما انضممت إلى الناس على الرصيف كان كل واحد منهم يتحدّث عن هؤلاء الأولاد الذين باتوا مشكلة قائمة أمام الجميع.

مشكلة جديدة. ولكي نفهم لماذا كانت هذه المشكلة جديدة علينا فإننا ربّات البيوت اضطررنا إلى التكيّف مع الشوط الطويل الذي قطعناه للانتقال من الحالة التي كنا عليها عندما كنا نتبادل الحكايات والإشاعات عن "أولئك الناس الذين كنا نسمع عنهم فقط" من القبائل والعصابات المهاجرة. ومرة واحدة، وقبل وقت قصير جداً، فإن مراقبة حشد من الدهماء – مراقبة يشوبها الهلع – وهم يمرّون من أمام نوافذنا إنما تعني حدود تردينا في حالة الفوضى. وذات مرة، وقبل أشهر قليلة، شاهدنا هذه العصابات التي لا تعرف أي نوع من أنواع النظام. أما الآن فبدأنا نتساءل فيما إذا كنا سننضم إلى هذه العصابات ومتى؟ لكن فوق كل شيء، المسألة هي أن هذه العصابات والقبائل كانت ذات بنيان معروف إذا ما دُرس وفُهم، وهو بنيان يشبه ما كان عليه حال الإنسان البدائي أو الحيوانات، إلاّ أن نوعاً من النظام الصارم كان يسود بينهم. ولهذا فإن قضاء وقت قصير مع الناس الذين يعيشون هذا النمط من الحياة وفهم قوانينهم – وهي قوانين غير مكتوبة كلها – يجعل الإنسان قادراً على توقّع ما سيحدث.

وهنا تكمن النقطة التي تجعل من هؤلاء الأولاد الجدد مختلفين.

فلا أحد يعرف ماذا سيحدث. ففي السابق، كان عدد هائل من الأولاد المحرومين من الأبوين قد انضمّوا بدافع من رغبتهم إلى بعض الأسر أو القبائل أو الجماعات. وكانوا متوحشين وكثيري المشاكل ويقطعون نياط القلوب. ولم يكونوا مثل أولاد مجتمع مستقر. إلاّ أنه كان من السهل التعامل وإياهم وفق المفاهيم والأعراف التي كانوا يعرفونها.

إلاّ أن هذه العصابة الجديدة من الأولاد ليست كذلك. إنها عصابة إذا توخّينا المزيد من الدقّة. وسرعان ما عرفنا أن هناك غير هؤلاء الأولاد. ولم تقتصر منطقتنا وحدها على وجود مثل هذه الجماعات من الأولاد الصغار الذين وقفوا في وجه كل المحاولات الرامية إلى احتوائهم. لقد كانوا صغاراً جداً. وكان أكبرهم سناً في التاسعة أو العاشرة. وبدوا وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن ذويهم، أو عن نعومة الحياة العائلية. وُلد بعضهم في محطات الأنفاق وتُركوا هناك. كيف نجوا من الموت؟ لا أحد يعرف. إلاّ أن هؤلاء الأطفال يعرفون ذلك. فكانوا يسرقون ما كانوا يحتاجون إليه من أجل البقاء على قيد الحياة، وكان ذلك قليلاً جداً. أما ملابسهم فقلّما تكفيهم. وكانوا... لا، لم يكونوا يشبهون الحيوانات التي تلعق وتصدر الأصوات، أو الناس الذين عرفوا الطريق إلى السلوك القويم من ملاحظة النماذج السائدة. ولم يكونوا جماعة واحدة أيضاً، بل تشكيلة من الأفراد المجتمعين معاً لا لسبب إلاّ توفير الحماية لأنفسهم. ولم يكونوا مخلصين بعضهم لبعض. وإذا حدث وكانوا مخلصين فإن هذا الإخلاص غالباً ما يكون غير متوقع ومتقطّع. وكانوا يخرجون للصيد مدة ساعة واحدة ويقتلون واحداً منهم في الساعة التالية. ودفعتهم اللحظة الآنية إلى هذا التجمع ولكن لم تكن هناك أي صداقة بينهم، بل مجرد أحلاف آنية وسريعة، وبدا أنهم لا يملكون أي ذاكرة عمّا حدث حتى لو كان الحدث قد مرّ قبل دقائق معدودة. وكان عدد المجموعة القريبة منا ثلاثين أو أربعين فرداً. وشاهدت أول مرة الناس وهم يظهرون ردود أفعال يصعب

السيطرة عليها تعبِّر عن خوف عميق. وكانوا على وشك استدعاء الشرطة أو الجيش وكانوا يفضّلون إجبار هؤلاء الأطفال على الخروج من مخابئهم تحت الأرض.

وكانت امرأة من البناية التي أسكن فيها قد خرجت ومعها كمية من الطعام لترى إن كان في وسعها عمل أي شيء من أجل أولئك الأولاد، فالتقت اثنين منهم وهما في طريقهما للقيام بأعمال النهب. فعرضت عليهما الطعام. فما كان منهما إلاّ أن التهماه في مكانهما فوراً وهما يصرخان ويصيحان. فما كان من المرأة إلاّ الانتظار كي تتحدّث إليهما وتقدّم لهما يد العون وكمية أخرى من الطعام، بل وحتى المأوى في البيوت. إلاّ أنهما ما كادا يفرغان من الطعام حتى غادرا المكان دون أن ينظرا إليها. فجلست في مكانها الذي كان عبارة عن مستودع قديم للبضائع يقع بالقرب من مدخل محطة قطار الأنفاق وتنمو عنده الحشائش والأعشاب. وكان المكان محمياً ومفتوحاً بحيث في وسعها الهرب إليه إذا ما اضطرّت إلى ذلك. وقد اضطرّت فعلاً إلى ذلك. إذ بينما كانت جالسة في مكانها رأت المكان يغصّ من حولها بالأولاد الذين أخذوا يزحفون نحوها وفي أيديهم الأقواس والنبال. ولم تصدّق، على حدّ تعبيرها، أنهم كانوا قضية ميؤوساً منها وقد تحدّثت إليهم بهدوء وأخبرتهم بالأشياء التي تستطيع أن توفّرها لهم وكلّمتهم عن مخاطر الحياة التي يعيشونها. غير أنها أدركت وهي في هلع تام أنهم لا يفهمونها. ولم تكن المسألة أنهم لم يفهموا حديثها، إذ كانوا يتحدّثون بعضهم مع بعض بكلمات مفهومة، هذا إذا كانت كلمات حقاً لا صرخات أو نخيراً أو نباحاً. ظلّت جالسة في مكانها وهي تعلم تماماً أن حركة واحدة منها تكفي لكي يرتفع قوس في الهواء ليسدّد سهماً نحوها. وتحدّثت إليهم حديثاً طويلاً بقدر ما تستطيع. وكان هذا الحديث يبدو موجّهاً إلى فراغ. فكانت هذه التجربة من أشد تجارب حياتها غرابة. "عندما نظرت إليهم، لم يكونوا سوى أطفال وهذا ما لم أتمكّن من

استيعابه. كانوا أطفالاً لا أكثر... إلاّ أنهم كانوا أشراراً. وفي النهاية نهضت من مكاني وغادرت المكان. وكان أسوأ ما حدث هو عندما جاء أحدهم وهو يركض صوبي وتشبّث بتنورتي. لم أصدّق ذلك. وعرفت أن من السهل جداً عليه أن يغرز سكيناً فيّ. كان إصبعه في فمه وهو يجذب تنورتي. وأخذ يصرّ أسنانه. إنه حافز لا أكثر. هل فهمت؟ فهو لم يكن يعرف ماذا يفعل. وفي اللحظة التالية ندت صرخة عنه وإذا بالكل يجرون ورائي. فما كان مني إلاّ أن أسرعت بالركض وتمكّنت من الهرب عندما استطعت أخيراً أن أدخل فندق بارك القديم الكائن عند ناصية الشارع. وتمكّنت من الحيلولة دون وصولهم عندما حصّنت نفسي في إحدى الغرف الكائنة في الطابع الرابع حيث لبثت فيها حتى حلول الظلام".

هؤلاء هم الأطفال الذين قرّر جيرالد أن ينقذهم. ولكن أين سيضعهم؟ حسناً. في مكان ما. وإذا لم يكفهم المكان فهناك البيت الكبير الآخر على الجهة الأخرى من الطريق، وربما كان في وسعه أن يدير هذين البيتين بمساعدة إميلي.

بيد أن هناك مقاومة شديدة لهذه الفكرة. مقاومة من الجميع. ومن إميلي أيضاً. غير أن جيرالد تغلّب عليهم كلهم. هكذا شأنه دوماً لأنه هو الذي استطاع أن يحافظ عليهم في نهاية الأمر وهو الذي كان يحصل لهم على الطعام والمؤن؛ وهو الذي يتحمّل المسؤوليات. وإذا صرّح أنه في المستطاع القيام بذلك، فإنه ربما يستطيع ذلك... ثم إنهم (أطفال صغار) لا أكثر وهو على حق بشأنهم. "أطفال صغار... كيف لنا أن نتركهم يفسدون هناك؟"

أعتقد أن الآخرين الموجودين في البيت أقنعوا أنفسهم بعبارة: "إنهم لن يأتوا على أي حال". لكنهم كانوا مخطئين. لقد كان في مستطاع جيرالد أن يجعل الآخرين يثقون به. فذهب إلى محطة قطار الأنفاق مدجّجاً بالسلاح. نعم. كان خائفاً.. وكانوا يزحفون من الثقوب والزوايا

والأنفاق. وبدوا كأنهم يستطيعون الرؤية حتى لو كان الضوء قليلاً. أما جيرالد فكاد نور المصباح اليدوي أن يغشي أبصاره. لقد كان وحيداً وعدواً طالما أنه كان يعرض عليهم شيئاً لا يعرفون حتى اسمه. إلاّ أنه استطاع أن يجعلهم يلحقون به. وقفل راجعاً من المحطة كعازف القرب. أما الأطفال الذين لحقوا به، وكان عددهم حوالى عشرين طفلاً فقد ركضوا وتعالى صياحهم من جميع أرجاء المنــزل وهم يفتحون الأبواب على مصاريعها ثم يطبقونها بشدة ويسدّدون قبضاتهم صوب مادة البوليثين الثمينة المثبتة في النوافذ. ولما وصلت إليهم رائحة الطعام، احتشدوا واقفين في انتظاره. وشاهدوا الناس جالسين: أطفال في مثل سنهم وبالغون. إنه مشهد يثير دهشتهم. فخضعوا للأمر كما يبدو. أو على الأقل خبت تلك القدرة على الاستجابة بسرعة مناسبة على نحو مؤقت، أو ربما كانوا يحبّون الاستطلاع. لن يجلسوا إلى المنضدة؛ فهم لم يسبق لهم أن جلسوا إلى منضدة. ولن يجلسوا على الأرض بطريقة منظّمة لكي يتمّ توزيع الطعام عليهم. ولكنهم ظلّوا واقفين وهم يخطفون قطع الطعام الذي كان يمرّ من أمامهم ويوزّع عليهم في صوانٍ ويلتهمونه بينما أعينهم تحملق في كل شيء في محاولة للفهم. ولما لم يجدوا ما يكفي من الطعام ليسدّوا به جوعهم، بدأوا بالصراخ والزعيق في أرجاء المنــزل محطّمين كل شيء يقف في طريقهم.

وفجأة تدهورت الأمور في هذا المنــزل. فلم يكن بمقدور جيرالد أن يصغي إلى هؤلاء وتوسلاتهم. وكانت حالتهم تشي بشيء لا يستطيع جــيرالد أن يتســامح معــه. إذ كان مصرّاً على بقائهم في هذا المكان ومصرّاً على بذل المحاولة ولهذا فإنه لن يطردهم الآن، إذ فات الأوان. أمــا الآخــرون فقــد خرجوا. وبعد مضي بضع ساعات أدرك جيرالد وإميلــي أن أســرتيهما قــد رحلتا وبقيا هما في البيت كوالديْن لهؤلاء الأطفال المتوحشين. ويبدو أن جيرالد اعتقد أنه من الممكن تعليم هؤلاء الأولاد القوانين التي وُضعت لصالح الجميع. قوانين؟ إنهم لا يستطيعون

فهم ما يقال لهم. فليست لديهم فكرة عن البيت وكانوا يحطّمون كل شيء ممزّقيـن النباتات المزروعة في الحديقة ويرمون القانورات من النوافذ علـى رؤوس المارة كأنهم قردة. كانوا ثملين حقاً إذ عوّدوا أنفسهم على تناول الخمور.

واستطعت أن أشاهد من النافذة إميلي وقد لفت ذراعها بضماد، فذهبت إليها لأستفسر عمّا جرى.

قالت بسخريتها المعهودة:

– آه. لا شيء.

ثم أخبرتني كيف أنها هبطت وجيرالد إلى الطوابق السفلى في ذلك البيت الكبير ووجدا الأطفال جاثمين على الأرض كأنهم قرود في أقفاص صغيرة. وكانت ثمة قطع صغيرة من اللحم لم تنضج تماماً منتشرة في أرجاء المكان. كانوا يشوون الجرذان: إذ يقع البيت قريباً من مدخل يؤدّي إلى المجاري. ولهذا، فإنه لا يوجد أي شيء تحت سطح الأرض لم يعرفه أو يألفه هؤلاء الأولاد. وقد زحفوا إلى هناك مسلّحين بالأقواس والسهام والمنجنيق.

تحدّثت إميلي وجيرالد في الطابق العلوي عن الأسلوب الذي يجب اتباعه. فالوضع لا يبعث على التفاؤل. كما أنهما لم يعثرا على أي فرد من أفراد أسرتيهما. وبدا واضحاً أن هؤلاء قد انضمّوا إلى جماعات أخرى أو بيوت أخرى أو أنهم قرّروا أن الوقت قد حان للانضمام إلى إحدى القوافل المهاجرة. وأصبح الاثنان وحيدين تماماً مع هؤلاء الأولاد الجدد. وأخيراً قرّرا أن يهبطا إلى الطابق الأسفل من البيت وإجراء حديث معهم معقول ولكنه متشدّد. وقرّرا أن من الأفضل أن يتحدّثا حديثاً لطيفاً مع هؤلاء الأولاد بغية إقناعهم قبل أن ينـزل بهم العقاب الصارم. إلاّ أن المشكلة تمثّلت في أنه لا يوجد أي عقاب. فقد تحمّل هؤلاء المنبوذون كل شيء. وأدركت إميلي وجيرالد أنهما لا يملكان شيئاً يهدّدان به الأولاد سوى مناقشتهم وفق الأسلوب القديم بأن الحياة

ستكون أكثر مدعاة للراحة للجميع إذا ما نظّفوا المكان وعملوا معاً واحترموا حرية الفرد. غير أن الأطفال ظلّوا على قيد الحياة دون أن تتبادر إلى أذهانهم مثل هذه الأفكار.

ولما وجد الاثنان أنهما عاجزان عن التفكير بأي شيء آخر هبطا إلى أسفل. وهناك ضربها أحد الأطفال بهراوة. ثم ضربها مرة أخرى وصرخ. وفي هذه الأثناء وثب طفل آخر من مكانه وهجم عليها. وعندما ذهب جيرالد لإنقاذ إميلي وجد نفسه محاطاً بأعداد غفيرة منهم. وأخذوا يضربونه ويعضّونه ويخدشونه. وبذلا كل ما في وسعهما في قتال هؤلاء الأولاد الذين لم يتجاوز أي واحد منهم سن العاشرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن النهي بعدم ضرب طفل أو إلحاق الأذى به كان من القوة بحيث "شلّ أذرعنا"، على حدّ تعبير إميلي. وقد قال جيرالد آنذاك: "كيف تستطيعين ضرب طفل؟" على الرغم من أن إميلي أُصيبت في ذراعها إصابة شديدة. وقف الشابان في مكانيهما وقد مزّقتهما المعركة وغطّت الدماء جميع الأرجاء وهما يتّقيان ضربات الأولاد ويصرخان فتعلو صرخاتهما على صرخات الأولاد. وحاولا اللجوء إلى العقل والإقناع، فكانت نتيجة هذه التحذيرات أن حصر الأولاد أنفسهم في ركن ضيّق من الغرفة وأطبقوا أفواههم ورفعوا هراواتهم استعداداً لدحر أي هجوم كأن الكلمات صواريخ. وفي النهاية تراجع جيرالد وإميلي وتناقشا معاً وقرّرا أن محاولة أخرى يجب القيام بها إلاّ أنهما لم يعرفا كيف السبيل إلى ذلك. وفي تلك الليلة، وبينما كان الاثنان مستلقيين على السرير في أعلى المنـزل، شعرا برائحة دخان ينتشر: لقد أضرم الأولاد النار في الطابق الأرضي وكأن البيت ليس ملجأهم. وبعد أن أخمدت النيران، انكمش الأولاد مرتعدين وراء أسلحتهم بينما انهمك جيرالد في محاولة إقناعهم متوسلاً بعد أن ازداد انفعاله؛ إذ لم يستطع تحمّل فكرة عدم إنقاذ هؤلاء الأطفال (ولم يكن في وسع أحد أن يسأل عن السبب لإنقاذهم). وكادت حصاة منطلقة من منجنيق أن تصيب عينه

إلاّ أنها أصابته في خدّه.

ما الذي يمكن عمله؟

لا يمكن طرد الأولاد. مَن الذي سيطردهم؟ لا. لقد فتح جيرالد البوابات على مصاريعها للغزاة الذين سيبقون هنا. لِمَ لا؟ لديهم أسرَّة كافية وملابس وموقد لإشعال الوقود. لم يشعروا بالدفء في السابق. نعم، مما لا شكّ فيه أن البيت سيحترق عمّا قريب وهو بيت نظيف وأنيق أما الآن فقد غطّى الطعام جميع أرجائه: على الأرض والجدران والسقوف. كما أخذت رائحة الغائط تفوح من المكان كله. وكانوا يفتقرون حتى إلى نظافة الحيوانات وغريزتها في الإحساس بالمسؤولية. لقد كانوا أسوأ من الحيوانات في كل شيء بل أسوأ من الرجال.

ألحق هؤلاء الأولاد الأذى بكل فرد في منطقتنا، وقد تقرّر عقد اجتماع لمناقشة الموضوع يوم غد على الرصيف. وتوافد الناس من الشقق والبيوت المحيطة ووجّهت الدعوة إليّ. وكانت الحواجز التي وُضعت بين المواطنين والحياة السائدة على الرصيف تدلّ على مدى الخطر الذي يشكّله هؤلاء الأطفال.

خرجتُ بعد ظهر اليوم التالي بعد أن تركتُ هوغو في غرفة نومي وأقفلت الباب وأسدلت الستائر.

كان ذلك اليوم أحد أيام فصل الخريف وكانت الشمسُ ضعيفةً والجو بارداً بينما تطايرت أوراق الأشجار في كل مكان. ووقفنا كلنا في حشد هائل من الناس بلغ عدده حوالى خمسمئة شخص أو أكثر بينما ظل آخرون يتوافدون للانضمام إلينا. ووقف على منصة صغيرة صُنعت من الطابوق بعجالة حوالى ستة أشخاص هم القادة. وكانت إميلي تقف قرب جيرالد فوق المنصة.

وقبل أن يبدأ الحديث، وصل الأطفال مدار الحديث ووقفوا على مقربة منا وبدأوا بالإصغاء. كان عددهم حوالى الأربعين طفلاً.

وأتذكّر أن رؤيتنا لهم شجّعتنا كثيراً فقد جاءوا أخيراً ولعلهم كانوا يشعرون أنهم يشكّلون جماعة ما. لقد فهموا على الأقل أن هناك اجتماعاً سيُعقد بشأنهم فسمعوا الكلمات وفهموا ما تعنيه مثلنا تماماً. ثم بدأوا يضربون بأخمص أقدامهم ويغنّون أغنية: "أنا ملك القلعة أما أنت فوغد قذر". وكان المشهد مفزعاً، إذ كانت أغنية الأطفال القديمة هذه من أغاني الحرب، بل إنهم جعلوها كذلك وأخذوا يعيشون أجواءها. والأكثر من هذا، استطعنا أن نلاحظ كيف كانت الكلمات المألوفة تقفز، وكيف تتغيّر الأشياء، ونتغيّر نحن... كيف تغيّرنا حقاً: هؤلاء الأولاد هم نحن أنفسنا. نحن نعرف ذلك. وقفنا في أماكننا. وأخذنا نصغي شاردين وقلقين. وبدأ جيرالد يصف الوضع الذي آلت إليه الأمور بينما كانت أصوات الغناء والصراخ تتعالى. وفي هذه الأثناء ساد جو من التوجس والقلق بين حشود الناس ليس سببه وجود الأطفال أو إدراكنا أنفسنا وحسب. لقد كان هذا الاجتماع أشبه باجتماع جماهيري للعالم الاعتيادي وكان لدينا أكثر من سبب يدفعنا إلى الإحساس بالرهبة من مثل هذه الاجتماعات. وفوق كل هذا، فإن الشيء الذي كنا نخشاه أشدّ الخشية هو انتباه السلطة، أو تنبيهها. وأوضح جيرالد على نحو عقلاني ضرورة إنقاذ هؤلاء الأطفال من أجل الجميع. وأصغينا ونحن محتشدين إلى شخص يتحدّث إلينا من فوق منصة وفكّرنا أنه دُرّب في إحدى الضواحي الكثيرة المنتشرة، وأن عادتنا المريحة في النظر إلى أنفسنا فقط وإلى الأرصفة والحياة المفعمة بالحيوية فوقها إنما هي طريقة للتعامل مع مشكلة الخوف. وهي طريقة مفيدة. فنحن لسنا ذوي شأن والمدينة ضخمة. وفي مستطاعنا الاستمرار في حياتنا المحفوفة بالمخاطر بسبب فطرتنا الطيبة التي ساعدت هذه السلطات على غضّ النظر عنا. واختارت تجاهل أمرنا كثيراً. إلاّ أنها لن تقبل بإضرام النيران في أحد البيوت أو الشوارع أو السماح لإحدى عصابات الأولاد الذين لا يسيطر عليهم أحد بإرهاب الناس. فقد كان للسلطات

جواسيسها وتعرف جيداً ما يدور من أحداث.

إن الوصف الذي قدّمته آنفاً للأحداث التي وقعت بيننا وفي منطقتنا قد يوحي بعجزي عن تقديم صورة واضحة بما يكفي عن الأسلوب الذي كان يسير فيه مجتمعنا المدهش الآن. على أي حال إنه يسير الآن نحو شيء ما. فطيلة هذا الوقت، وبينما كانت الحياة الطبيعية تندثر أو تتّخذ لها أشكالاً جديدة، فإن هيكل الحكومة استمرّ قائماً على الرغم من أنه هيكل ثقيل ومرهق يزداد تشعباً مع مرور الزمن. فكل شخص حصل على عمل ما أصبح الآن في الحكومة. نعم، من الطبيعي أننا معشر الناس الاعتياديين تبادلنا النكات عن أن جهاز الحكومة ظلّ قائماً لكي يتمكّن أصحاب الامتيازات من الحصول على الوظائف واستلام الرواتب. وفي هذا الكلام شيء من الصحة. إن ما فعلته الحكومة هو تكييف نفسها مع الأحداث بينما تدّعي في الوقت نفسه - وربما حتى في أوساطها - أنها كانت توجد هذه الأحداث. واستمرّت المحاكم في مهامها. وكانت هناك محاكم كثيرة، كما أن الإجراءات القانونية كانت مطوّلة ومخادعة وقد تكون مفاجئة وشديدة القسوة، وكأن نفاد صبر الذين يمارسون القانون بكل ما فيه من إجراءات وسوابق يتأثّر بالأسلوب الذي يمكن فيه تجاهل القانون تجاهلاً تماماً وتجاوزه وإعادة كتابته. غير أن الأشياء التي كانت تحذف ظلّت ثقيلة الوطأة كالسابق. فالسجون مليئة كسابق عهدها، على الرغم من أن الذرائع كانت غالباً ما تتخذ لإخلائها. ولهذا فقد ارتكبت جرائم عديدة وتبيّن أن هناك أنواعاً جديدة من الجرائم لم يسبق توقّعها في كل يوم. فالمدارس الإصلاحية والبيوت المرفهّة وبيوت المسنّين تكاثرت وأصبحت أماكن فظيعة ووحشية.

واستمرّ كل شيء بالعمل. العمل إلى حدٍّ ما وعلى نحو محيِّر فهناك ما تسمح به السلطة من جانب، وما لا تسمح به من جانب آخر. أما هذا الاجتماع فقد تجاوز كل الحدود، وهذا سيدفع الشرطة إلى

المكـــان فـــي رتل من السيارات فتجذب هؤلاء الأطفال وتضعهم وراء القضـــبان في أحد البيوت التي لا يمكنهم العيش فيها أسبوعاً واحداً. إن أي شخص يعرف تاريخهم لا يستطيع إلاّ الإحساس بالعطف عليهم. ولم يرغـــب أي واحـــد مـــنا أن ينتهي بهم المطاف بأحد البيوت؛ حيث إننا نعـــرف تأريخها. إلاّ أننا لم نرغب أيضاً - ولم نستطع القبول - بزيارة رجـــال الشرطة، لأنها ستثير انتباه المسؤولين إلى مئات الترتيبات التي اتخذت لإسكان الناس على نحو غير قانوني. فالبيوت كانت مسكونة من قِبَلِ أناس لا يملكونها، والحدائق تنمو فيها المواد الغذائية فيأكلها ناس لا حـــقّ لهـــم في أكلها، والطوابق السفلى من البيوت المهجورة تعيش فيها الجـــياد والحمير التي تستخدم واسطة للنقل في أعمال صغيرة لا حصر لهـــا ازدهرت ازدهاراً غير قانوني، وكانت هذه الأعمال الصغيرة هي التـــي حـــوّرت تحويـــراً ذكياً عن مصادر التكنولوجيا القديمة التي كنا نملكهـــا. فـــالحقول التي تربّي الديكة الرومية وحظائر الدجاج وملاجئ الأرانب كانت غير قانونية كلها. ولا ينبغي لأي منها أن يظل قائماً. بل لا شـــيء مـــنها قـــائم رسمياً. ولما أجبرت *السلطات* على ملاحظة هذه الأشـــياء، أرسلوا قوات من الجيش أو الشرطة لهدمها. ويشار إلى مثل هـــذه الـــزيارات بعناويـــن بارزة في نشرات الأخبار: "تمَّ في هذا اليوم تنظـــيف الشـــارع الفلاني..." وكان كل فرد يعلم تماماً حقيقة ما حدث ويشكر الله أن ما حدث كان في شارع آخر.

كان مثل هذا النوع من *التنظيف* هو ما يخشاه الجميع أكثر من أي شيء آخر. لكننا مع هذا كنا نثيرهم بتجمعاتنا هذه. تحدّث جيرالد حديثاً عاطفياً يائساً كأن فعل الحديث نفسه هو الذي سيوفِّر الحل. وذكر في معرض حديثه أن الأسلوب الوحيد للتعامل مع الأولاد هو فصلهم، ووضع كل واحد منهم أو كل اثنين في بيت منعزل. وأتذكّر الآن الملاحظات الساخرة التي صدرت عن هؤلاء الأطفال ووجوههم

البيضاء الغاضبة. فتوقّفوا عن رقصة الحرب التي كانوا يؤدّونها، وتجمّعوا ووجوههم صوب الخارج وأسلحتهم مشرّعة.

وظهر رجل شاب فوق رؤوس الحشد. وكانت ذراعه تلتفّ حول جذع شجرة يستند إليها. وصاح: "لماذا نفعل هذا الشيء؟ إذا جاءوا الآن فتلك هي نهايتنا. لا تبالوا بأولئك الأطفال. وإذا أردتم أن تعرفوا ما يدور في ذهني فإن من الأصوب استدعاء الشرطة لتولّي زمام الأمور. نحن لا نستطيع التعامل معهم. وقد حاول جيرالد. أليس كذلك يا جيرالد؟"

ثم اختفى عن الأنظار بعد أن نزل من فوق جذع الشجرة.

وجاء دور إميلي للحديث الآن. وظهر وكأن شخصاً قد طلب منها الحديث، كانت تقف فوق كومة الآجر ويبدو عليها الجد والقلق. قالت:

– ما الذي تتوقّعونه؟ هؤلاء الأطفال يدافعون عن أنفسهم. لقد تعلّموا ذلك. ربما علينا أن نثابر معهم. وسأتطوّع لهذه المهمة إذا رغب الآخرون.

فتعالت الصيحات من كل جوانب الحشد:

– لا، لا، لا.

ثم صاح أحدهم:

– لقد كسر أحدهم ذراعك. هذا ما يبدو واضحاً عليك.

فقالت إميلي مبتسمة:

– لقد كسرت الإشاعات ذراعي لا الأطفال.

فضحك بعض الحاضرين.

مكثنا واقفين في مكاننا. ولم يكن أمراً مألوفاً أن يقف حشد من الناس بمثل هذا الحجم صامتاً لا يدري ما يقول. فاستدعاء الشرطة سيعني خروجاً عن الفعل الذي نستطيع أن نتسامح به. ولهذا فإننا لا

نستطيع الإقدام على ذلك.

وصاح أحد الرجال:

- سأستدعي الشرطة بنفسي. وفي وسعكم تصفية الحساب معي بعد ذلك. لا بدّ لنا من الإقدام على ذلك وإلاّ احترقت المنطقة كلها ذات ليلة.

في هذه الأثناء بدأ الأطفال ينسحبون في جماعات صغيرة حاملين العصي والحجارة والمنجنيق.

وصاح شخص ما:

- إنهم يهربون.

- صحيح. لقد بدأوا يهربون. واهتزّت الحشود وتمايلت في محاولة لكي يروا كيف ركض الأطفال وعبروا الشارع وتواروا عن الأنظار في الظلام.

وصاحت امرأة من بين الحشود:

- يا للخزي والعار. لقد خافوا. يا لهم من مخلوقات صغيرة مسكينة.

في تلك الأثناء ندت عن أحد الأشخاص صرخة:

- الشرطة!

وسرعان ما بدأ الجميع يركضون. واستطعت أن أراقب من نوافذ شقتي ومعي جيرالد وإميلي وبعض الأشخاص الآخرين سيارات كبيرة تزمجر في الطريق وأنوارها مضيئة وصفاراتها تدوي. لم يبقَ أحد على الرصيف. ودارت السيارات مجتمعة حول إحدى البنايات السكنية ثم عادت من جديد إلى الظهور. واستمرّ دوي الصفارات وهدير السيارات وهي تدور حول شوارعنا الخالية حوالى نصف ساعة *مستعرضة عضلاتها* على حدّ تعبيرنا ثم اختفت بعد ذلك. إن الشيء الذي لم يتمكّنوا من السكوت عليه حتى في هذه اللحظة هو التجمعات العامة التي

قد تشكّل خطراً عليهم. وهذا أمر غريب ومثير للحزن والشفقة. إذ إن آخر شيء يثير اهتمام أي فرد هو تغيير نظام الحكم: كما أننا لم نرغب إلاّ في نسيان ذلك.

وعندما هدأت الشوارع ذهب جيرالد وإميلي إلى البيت الآخر لكي يــريا مــا إذا كــان الأطفال قد توجّهوا إلى هناك. وبدا واضحاً أنهم قد ذهــبوا إلــى هــناك ورحلــوا بعدئذ بعد أن أخذوا معهم كل ممتلكاتهم الصــغيرة: العصي والحجارة والأسلحة وقطع من لحم الجرذان المشوية وبطاطا غير مطبوخة.

وأصبحا الآن في المنــزل وحدهما. ولم يكن هناك ما يحول دون تشــكيل مجموعة جديدة. هل في المستطاع استعادة المجموعة الأولى؟ كلا. لا يمكن ذلك. فثمة شيء عضوي نما نمواً طبيعياً وتحطّم.

* * *

كان الجو بارداً. ولم يكن في البيت سوى كميات قليلة من الوقود. وفــي أوقات العصر والمساء الطويلة والمظلمة جلست في غرفتي التي تنــيرها شــمعة واحــدة. وكنت في بعض الأحيان أطفئها تاركة النور المنبعث من الموقد ينير الغرفة.

وبيــنما كنت أجلس ذات يوم في مكاني هذا أحدّق إلى وهج النار تخيّلــت مشــهداً من أكثر المشاهد المتنافرة التي لا يمكن تخيّلها. كيف أستطيع أن أقول إن توقيت المشهد كان غير مناسب بينما لم يعد الزمن موجوداً. ومع ذلك وحتى في ذلك الوقت الذي يتقبّل فيه الفرد كل شيء ولا يعارض نظام الأشياء كنت أفكّر: يا له من مشهد غريب يكشف عن نفسه الآن؟

كان هوغو معي. ولم يكن هذا الحيوان رفيقاً لي ومساعداً شأنه شأن أي كلب. بل كان مخلوقاً ومهماً في الأحداث التي رأيتها.

كانت الغرفة غرفة فتاة، فتاة مدرسة. وهي غرفة صغيرة ذات

ستائر تقليدية مطرّزة بالورود وثمة ملاءة مفروشة على السرير ومكتب رُصّت عليه الكتب المدرسية رصاً أنيقاً. وثمة جدول دروس مثبّت فوق خزانة بيضاء. في تلك الغرفة ثمة شابة أمام مرآة لم تكن في الأحوال الاعتيادية جزءاً من الغرفة أبداً - إذ كان ثمة مرآة مثبتة على الجدار فوق المغسلة - وكانت هذه المرآة كبيرة الحجم تذكّرنا بمرآة توضع في محلات الأزياء الأنيقة أو على خشبة المسارح. كانت هذه الشابة هي إميلي، فتاة قُدّمت أو أُعدّت لتكون امرأة شابة.

وقفت أنا وهوغو جنباً إلى جنب ونحن ننظر إليها. كانت يدي فوق رقبة الحيوان وكنت أحسّ بارتعاش يسري من قلبه إلى يدي. كانت إميلي في الرابعة عشرة من عمرها. إلاّ أنها بدت ناضجة كما يُقال. وكانت ترتدي ثوب سهرة قرمزي اللون. ومن الصعب أن أصف مشاعري عندما شاهدتها وشاهدت الثوب. كان الاثنان يتّسمان بالعنف. وقد صدمني ثوبها إذ لم يكن مثل هذا الثوب مسموحاً بارتدائه لأي امرأة. لكن الذي حدث هو أنه اعتبر زياً عصرياً جديداً لا أكثر ولا أقل.

وكان ثوبها ضيقاً حول خصرها وصدرها. وكلمة صدر مناسبة هنا. إذ لم يكن لها ثديان ويرتفعان ويهبطان لدى تنفّسها، ويستطيعان أن يتغيّرا بفعل الانفعالات أو مع التغيرات الشهرية. كانا أشبه ببروز نافر متوثّب. وكان ظهرها عارياً، وكذلك كتفاها، كما أن الثوب كان ضيقاً حتى الركبتين وفوق الردفين. وهذه كلمة أخرى مناسبة إذ برزت مؤخرة إميلي كمرتفع أو حدبة منفردة. أما في الأسفل، فكان الثوب يتماوج ويلتفّ حول كاحليها. إنه ثوب خليع تماماً. ولكنه، من الناحية الأخرى، ثوب غير جنسي على الرغم من كل المفاتن الجسدية التي تظهر منه، والرغبات التي يجسّدها عند نوع معيّن من الرجال الذين يشاهدون امرأة ترتدي مثل هذا الثوب فيجعلها تبدو أشبه بالدمية، مضحكة، استفزازية ويائسة. إنه يجرّدها تماماً من الحماية ويجعلها

مكروهة ومثيرة للشفقة والخوف؛ امرأة غريبة.

انتصبت إميلي مرتدية هذا الثوب الفظيع الذي كان ثوباً تقليدياً ترتديه مئات الآلاف من النساء في عصري، وتنظر إليه بعين الحسد والإعجاب الكثيرات من النساء ويستخدمنه لتغطية أحلامهن "الماسوشية". وقفت إميلي وهي تدير رأسها ذات اليمين وذات اليسار أمام المرآة. وكان شعرها مشدوداً إلى أعلى تاركاً مؤخرة عنقها عارية. وكانت أظافرها قرمزية اللون. والواقع أن الأزياء لم تكن كذلك في زمن إميلي. إذ لم يكن هناك أي تقليد متّبع في الملبس، على الأقل، عند الناس الاعتياديين. أما هنا في هذا المكان فكانت تقف على بعد خطوات قليلة منا فتشعر بوجودنا نحن الاثنين الوصية القلقة عليها والحيوان الوفي. التفتت ببطء شديد ونظرت إلينا بعينين ذواتا رموش طويلة خفيضة بينما فتحت شفتيها لقبلات وهمية. ودخلت الغرفة والدة إميلي المرأة الضخمة طويلة القامة. وكان ظهورها سبباً في تضاؤل إميلي حالاً، إذ بدت صغيرة وأخذت تذوي منذ اللحظة التي دخلت فيها أمها إلى الغرفة. نظرت إليها إميلي وتقلّص حجمها ومثّلت دورها الجنسي الاستفزازي وأخذت تتلوّى وهي تُخرج لسانها من فمها. حملقت الأم فيها وقد امتلأت رعباً وحقداً بينما الابنة تتقلّص أكثر فأكثر حتى أصبحت دمية صغيرة قرمزية اللون ذات صدر متوثّب ومؤخرة نافرة. وبعد أن تماوجت الدمية الصغيرة واتخذت وضعاً خاصاً اختفت في شعاع من دخان أحمر اللون كأنها قصة أخلاقية عن الجسد والشيطان.

تقدّم هوغو إلى أمام صوب الفسحة الكائنة أمام المرآة، وبدأ يشمّها أولاً ثم انتقل ليشمّ الأرض التي كانت تقف عليها إميلي. فكشّرت الأم تعبيراً عن اشمئزازها لما رأته. أما الآن فإن هذا الحيوان هو الذي أخذ يثير اشمئزازها. قالت بصوت خفيض حبيس الأنفاس؛ صوت مرهق بسبب شدة الكراهية والخوف: "اغرب عني. اغرب عني أيها الحيوان

القذر الوسخ".

فتراجع هوغو إلى ناحيتي وعدنا أدراجنا معاً أمام المرأة التي تقدّمت صوبنا وهي ترفع قبضتها لتضربني وتضرب هوغو. رجعنا بسرعة أكبر إلى الوراء بينما واصلت المرأة تقدّمها وازداد حجمها وأصبحت ضخمة وهائلة الحجم حتى كادت تملأ غرفة طفولة إميلي. وفجأة وجدنا أنفسنا في غرفة الجلوس، في المكان المظلم الذي كانت تتألّق فيه الشمعة الوحيدة والذي كانت فيه النار الصغيرة تشيع الدفء في الفضاء القليل المحيط بها. كنت أجلس في مكاني المألوف بينما وقف هوغو منتصباً قرب الجدار ينظر إليّ. نظرنا إلى بعضنا بعضاً فسمعته يئنّ. لا. الكلمة الصحيحة هي أنه يبكي. كان يبكي في وحدته شأنه في ذلك شأن الإنسان. ثم التفت وتسلّل إلى غرفة نومي.

تلك هي المرة الأخيرة التي شاهدت فيها إميلي في ذلك المكان الذي أطلقت عليه اسم *الشخصي*. وأعني بذلك أنني لم أدخل مرة أخرى المشاهد التي تُظهر تطورها كفتاةٍ أو رضيعة أو طفلة. وكان مشهد المرآة الرهيب بما يتضمّنه من انحرافات هو النهاية. كما أنني لم أعثر لدى دخولي ذلك العالم الآخر – وهذا أمر جديد – وسط النيران أو الوهج القليل للنار التي كنت أجلس قربها في ليالي الخريف الطويلة على تلك الغرف التي تفتح الواحدة على الأخرى. أو لا أعتقد أنني عثرت عليها. ففي العودة من رحلة إلى ذلك المكان، لم أستطع أن أتذكّر جيداً ما حدث لي أو المكان الذي كنت فيه. كل ما أعرفه هو أنني كنت هناك وذلك بقي من عواطف فيّ أو من العواطف التي كانت تستنزفني. لقد تغذّيت هناك من مصدر رحب كل أنواع الراحة والعذوبة؛ وشعرت بالخطر والرعب. أو لعلّي تحت ضوء هذه الغرفة الساطع الذي بدا وكأن ضوءاً آخر أخذ يسطع وهو قادم من هناك؛ لقد أتيت به معي ولبث فترة وجيزة وجعلني أشتاق إلى ما يرمز إليه.

وعندما تلاشى ذلك الضوء وقد أصبح المكان مظلماً وثقيلاً وشديد

الوطأة، أُصيب هوغو بالسعال الجاف. وبينما كنا نجلس معاً كان في مستطاعه أن يثب فجأة ويذهب إلى النافذة ليشمّها ويحرّك أطرافه عندها بينما أنا أفتحها بعد أن أدركت أنني في حالة من السبات بسبب جو الغرفة الخانق. وكنا نستطيع أن نقف جنباً إلى جنب نشمّ الهواء الذي يهبّ علينا من الخارج ونحاول غسل رئاتنا به.

* * *

مـــرّت بضعة أيام لم أشاهد خلالها إميلي فذهبت إلى بيت جيرالد وسلكت شوارعَ غير منتظمة إلاّ أنها بدت أنظف مما كانت عليه سابقاً. ولاح المكان وكأن كميات هائلة من الأوساخ والقاذورات قد انتشرت في كـــل مكان ثم جاءت الريح أو على الأقل نسمات الهواء فدفعت ببعض منها بعيداً. ولم يصادفني أحد في أثناء سيري.

ولـــم أتوقّـــع إلاّ قلـــيلاً أن أجد المحاولات قد بذلت لإصلاح شأن الحديقـــة المـــزروعة بالخضر. لا. لقد وجدتها مهشّمة تعبث بها فراخ الدجاج، بينما زحف أحد الكلاب صوبها من وراء الأعشاب. وكان ذلك مشـــهداً نادراً اضطرّني إلى الوقوف والتأمل. واكتشفت أن هناك كلاباً عـــدّة، لا كلباً واحداً، تزحف من جميع الجهات نحو الدجاج المنهمك في الأكل. ولا أستطيع أن أعبّر عن القلق الذي اجتاحني. وأدركت أن شيئاً مـــا سينفجر في أعماقي، فهناك حركة وتغيّر حقيقيان في حالتنا: كلاب! مجموعة كلاب. أحد عشر أو اثنا عشر كلباً. ماذا يعني هذا؟ وفي أثناء انهماكـــي بالمراقبة عرفت من الوخز الذي شعرت به في أنحاء جسدي والعرق البارد المتصبّب على جبهتي أنني خائفة وأن هناك سبباً معقولاً لهذا الخوف: إذ قد تختار الكلاب أن أكون أنا الضحية بدلاً من الدجاج. فأسرعت بدخول المنـــزل فوجدته خالياً ونظيفاً. وفي أثناء صعودي إلى المنـــزل أصغيت إلى صوت الحياة المنبعث من الغرف، لكنني لم أسمع شـــيئاً. ووجـــدت باباً مغلقاً في أعلى البيت. فطرقته. ثم شاهدت إميلي تفـــتحه قلـــيلاً ولمـــا عرفت من الطارق دعتني للدخول وأقفلته بالرتاج

بسرعة. كانت ترتدي الفرو. فلقد كان البنطال من جلد الأرنب أو القطة، إضـــافة إلى سترة من الفرو وقبعة من الفرو الرمادي تصل إلى وجهها وبدت أشبه بقطعة صامتة، لكنها شاحبة وحزينة. أين جيرالد؟

عادت إلى العش الذي صنعته لنفسها على الأرض ويتكوّن من سجاد ووسائد من الفرو. كانت رائحة الفرو طاغية في أرجاء الغرفة. وأدركت أن الهواء من شأنه أن يكون منعشاً لولا رائحة الفرو. ووجدت نفسي أتنفّس الهواء بكميات كبيرة. أفسحت لي إميلي مكاناً على الفرو فجلست وغطّيت نفسي. فقد كان الجو بارداً جداً والمكان يخلو من لتدفئة. فجلسنا بهدوء معاً ونحن نتنفّس بصعوبة.

قالت: "بعد أن أصبح من الصعب تنفُّس الهواء في الخارج، فإنني بدأت أقضي معظم وقتي هنا". وأدركتُ أن كلامها صحيح. فهذه هي اللحظة التي كان فيها شخص ما شيئاً ما وأصبح فيما بعد جوهر الحقيقة المفهومة إلى حدٍّ ما، والتي تشير إلى نتيجة واضحة. في هذه الحالة كان الهواء الذي نتنفّسه هو الذي أصبح ثقيل الوطأة على رئتانا، وأصبح فاسداً نتناً منذ وقت طويل. لقد ألفنا ذلك وتأقلمنا معه. وكنت أتنفس تنفساً متقطعاً متردّداً شأني في ذلك شأن أي شخص آخر، وكأن النسبة التي ندفعها في رئاتنا وفي أجهزتنا في مستطاعها أن تجعل السموم أقل. أي سموم؟ لكن مَن يستطيع تحديد ذلك؟ لعل هذا الشيء قادم مرة أخرى على نحو جديد أو لعله قادم وفق هيأته الأولى.

وفي أثناء جلوسي في تلك الغرفة التي كان الفرو يغطّي أرضيتها كي يستطيع المرء أن يسترخي عليها أو يتكئ، تلك الغرفة التي لا يوجد فيها أي شيء يفعله الإنسان سوى أن يستلقي أو يجلس، أدركت أنني سعيدة في ذلك المكان لمجرد أنني موجودة وأتنفّس فيه. وهذا ما فعلته منذ زمن طويل بينما هدأ بالي وازدادت معنوياتي إشراقاً. نظرت من النافذة إلى السماء المثقلة بالغيوم المحمّلة بالثلوج. وراقبت الضوء يغير مكانه على الجدار. وبين الحين والحين تبادلت وإميلي الابتسامات. كان

الهواء منتشراً في كل مكان. وفي أحد الأحيان سمعنا صوتاً عنيفاً قادماً من الحديقة لكننا لم نحرّك ساكناً. فتوقف الصوت وران الصمت من جديد. واصلنا الجلوس دون حراك، لا نفعل شيئاً سوى التنفس.

كانت ثمة آلات في الغرفة. تدلّت إحدى هذه الآلات من السقف، بينما كانت الأخرى موجودة على الأرض، والثالثة مثبتة على الجدار. كانت هذه الآلات تهدف إلى تنقية الهواء في الغرفة. وهي تشتغل بمرور تيارات من الإلكترونات والأيونات السالبة – وقد استعملها الناس بعض الوقت – مثلما لا يحلم أي شخص باستعمال الماء من الحنفية ما لم يكن قد مرّ بأنواع عديدة من أجهزة التعقيم. الهواء والماء، الماء والهواء هما من أساسيات وجودنا وهما العنصران اللذان نستحمّ بهما ونتحرك فيهما، كم من وقت طويل مضى ونحن لا نثق بهما، نتجنبهما، ونعاملهما معاملة الأعداء.

قالت:

– ينبغي أن تأخذي بعض الآلات إلى البيت. هناك غرفة ممتلئة بها.

– جيرالد؟

– نعم. لقد ذهب إلى أحد المستودعات. هناك غرفة مليئة بالآلات تقع تحت هذه الغرفة. وسوف أساعدك في نقلها. كيف تستطيعين العيش في ذلك الجو الفاسد؟

قالت بلهجة توحي بأنّها كانت على وشك أن تقول ذلك إلاّ أنّها ترددت. ثم ابتسمت على نحو تأنيبـــي.

– هل ستعودين؟

قلت ذلك وأنا أتردد في استعمال كلمتي إلى البيت. لكنها قالت:

– نعم سأعود وإياك.

فقلت دون لوم أو تأنيب:

- سيفرح هوغو كثيراً.

ورأيت عينيها تترقرقان ووجهها يحمرّ.

فسألتها مجازفة:

- لماذا تستطيعين المجيء الآن؟

إلاّ أنها هزّت رأسها وهي تقصد أن تقول: "سأردّ على سؤالك بعد لحظة". وفعلت ذلك عندما تمالكت نفسها:

- لا ضرورة إلى وجودي في هذا المكان.

- هل تركك جيرالد؟

- لا أدري أين هو الآن. لا أعرف عنه شيئاً منذ أن أحضر هذه الآلات.

- أيحاول تشكيل عصابة جديدة لنفسه؟

- إنه يحاول ذلك.

وعندئذ نهضت على قدميها ولفّت الفرو في صُرّة كبيرة لكي تأخذها معها. وبينما هي تضع بقية الفرو لتغطّي به الآلات سمعنا طرقاً على الباب فذهبت إميلي لترى من الطارق. لم يكن جيرالد بل كان هناك طفلان. وانتابني الخوف عندما شاهدت هذين الولدين. وأدركت في لمح البصر أنني أسوة بالجميع نظرت إلى هذين الطفلين نظرة هلع. وكانت هذه النظرة صحيحة تماماً حتى قبل مجيء هذين الطفلين الصغيرين المسكينين.

جلس هذان الطفلان القذران الحذران على الأرض المغطاة بالفرو بعيداً عنا بعد أن تركا مسافة قليلة بينهما. وكان كل واحد منهما يحمل عصا ثقيلة ذات رأس غرست فيه المسامير. واستعدّا لاستخدامهما ضدنا وضد بعضهما بعضاً.

وقال أحدهما وهو ذو رأس أحمر اللون وبشرة بيضاء ونمش ساحر:

- ظننت أنني سأتنفّس هواءً نقياً.

أما الطفلة الثانية فكانت صغيرة السن شقراء ملائكية فقالت محدثة نفسها:

- نعم، لقد أردت أن أتنفّس هواءً نقياً.

جلس الاثنان وأخذ يتنفّسان ويراقبان بينما واصلت أنا وإميلي تغليف الآلات ونحن ننظر إليهما باستمرار.

سألت الطفلة:

- إلى أين أنتما ذاهبان؟

- أخبرِي جيرالد، فهو يعرف مكاني.

وأعطاني هذا الكلام وقتاً كافياً للتفكير والاستيعاب:

هـل هـذان الولدان جزءاً من عصابة جيرالد الجديدة؟ أليس هما عضوان من عصابة الأطفال القادمة من محطة قطار الأنفاق؟ فإذا كان هـذا صـحيحاً، فـربما كانـت هذه العصابة فتّاكة عندما تكون وحدة متراصّة. أما أفرادها فيمكن إنقاذهم عندما يكونون بمعزل عن الآخرين. هـل كـان جيرالد على حق؟ وبعد أن فرغنا من إعداد أغراضنا تركنا البيـت ولحق بنا الولدان. إلاّ أنهما تخلّيا عنا عندما شاهدا المجزرة في الحديقـة. ريش في كل مكان، قطع من اللحم وكلب ميت. ولما غادرنا المكـان كان الولدان منهمكين في تقطيع جثة الكلب وقد جلس كل واحد منهما إلى أحد جانبي الجثة وبأيديهما قطع حادّة من الفولاذ.

عدنـا إلى الشقة سالكتين الشوارع التي قلت لإميلي إنها أقل قذارة ولاحظـت رد فعلهـا الصغير. كانت الشوارع خالية، ولا أثر فيها لأي بشـر سـوانا؛ وعلقت على هذه الظاهرة أيضاً وسمعتها تطلق حسرة. كانت صبورة معي.

وجدنا في ممر المبنى الذي نسكنه خارج المصعد زهرية ضخمة مهشّمة إلى قطع صغيرة. وكان هناك جرذ وسط النفايات. وبينما رفعت إميلي الحيوان من ذنبه لترمي به إلى الشارع وصل الأستاذ

وايت وزوجته وجانيت قادمين من جهة الممر الذي نستخدمه معاً. وبدا عليهم أنهم ظلوا محتفظين بعاداتهم القديمة التي توحي أنهم كانوا يرتدون ثياب السفر؛ سترات وحقائب ولفافات. وكانت رؤية ثلاثتهم معاً تذكِّر المرء بالعالم الآخر أو بطبقات المجتمع الكائنة فوقنا حيث لا يزال الناس يعرضون ثيابهم وممتلكاتهم في المناسبـات. كانت الأسرة عازمة على السفر كأن شيئاً لم يحدث في عالمنا هذا. وكانت جانيت تقول: "أسرعا. هيا. لنذهب يا أبي ويا أمي. فظيع أن نبقى هنا بينما غادر الجميع المكان". ها هي مرة أخرى الكلمات المتدفقة بفعل الجو نفسه بفعل ذلك الشيء نفسه، وهي تختصر حالة جديدة لم تختصر بعد؛ أو على الأقل لم تختصر لديّ أنا. لاحظت نظرة إميلي إليّ ووجدتها تتقدّم خطوة أخرى تلقائياً بإشارة تدل على رغبتها في اتقاء لحظة ضعف. وقفت صامتة وأنا أراقب أسرة وايت وضوضاءها وأرى منها ماضيّ أنا، ماضينا نحن: بدا الأمر مضحكاً. كان مضحكاً. فقد كنا دوماً حيوانات صغيرة مضحكة مغرورة تمثّل دورها. ولم يكن شيئاً لطيفاً مراقبة أسرة وايت والنظر إلى أنفسنا. ثم ودّعنا بعضنا بعضاً بالأسلوب القديم تماماً: سرّني التعرف إليكم. أرجو أن نلتقي مرة أخرى. وغير ذلك من العبارات كأن شيئاً ما لم يحدث. لقد اكتشفوا أن ثمة حافلة ستغادر المدينة بعد ظهر ذلك اليوم في مهمة رسمية إلى مكان يبعد عشرة أميال إلى الشمال. ولم تكن هذه العربة مخصّصة للمواطنين العاديين، إلاّ أن هؤلاء المواطنين دفعوا الرشاوى وشقّوا طريقهم إلى هذه الحافلة التي ستقلّهم إلى مكان يبعد ميلاً واحداً عن المطار. لقد تمَّ ترتيب رحلة رسمية إلى أقصى الشمال بعد ظهر هذا اليوم. ومرة أخرى، بينما لا يستطيع أي شخص اعتيادي أن يسافر على هذا النحو، فإن رئيس أي دائرة وأسرته قد يتمكّنون من ذلك إذا كان لديهم المال الكافي لا للسفر وحسب، بل لدفع الرشاوى أيضاً؛ أي مقايضات ووعود وتهديدات وتوسلات جرت لتحقيق هذه الرحلة، أي

جهود رهيبة – وكلها تتمّ وفق الأسلوب الجديد الذي يقضي بالنجاة والبقاء على قيد الحياة مهما كان الثمن – لكن دون أن يظهر أي أثر من هذا على سلوكهم: وداعاً. وداعاً. يسعدنا أنكما كنتما جارتينا. ربما سنلتقي قريباً. نعم. أرجو ذلك. وداعاً. أتمنّى لكما رحلة سعيدة.

دخلنا شقتنا وراقبنا أفراد الأسرة من النافذة وهم يسيرون في نهاية الشارع ويحملون الحقائب الثقيلة.

ستكون الغرفة المجاورة لغرفتي خالية الآن. خالية! وخُيِّل إليَّ أنني كنت أشاهد عدداً قليلاً من الأفراد في الممرات والقاعة. ما الذي حدث للسوق؟ سألت إميلي إلاّ أنها هزّت كتفيها وشعرت بوضوح أنه ينبغي لي أن أعرف. تركت شقتي ثانية وذهبت إلى غرفة الحارس الكائنة في نهاية الممر: (في حالة الطوارئ اتصل بالشقة رقم 7 في الطابق الخامس) كانت اللافتة المعلّقة على نحوٍ منحنٍ والصمت الذي ساد وراء الباب أقنعاني أن الحارس وأسرته قد رحلا. لعلّ اللافتة ظلّت معلّقة في مكانها منذ أسابيع. إلاّ أنني ذهبت إلى المصعد الذي كان يعمل في بعض الأحيان وضغطت على الزّر. فارتفع المصعد إلى أعلى وانتظرت وأنا أضغط وأجيل النظر لكن المصعد لم يأت. لهذا لجأت إلى السلالم وصعدت الطوابق الواحد تلو الآخر وكانت كلها خالية لا أثر فيها للحيوية أو الاتجار أو المقايضة. لقد اختفى جميع التجار والمشترين والبضائع. ولم يكن أحد في الشقة رقم 7 في الطابق الخامس. ولكنني شاهدت في أعلى المبنى وقرب السطح بعض الصبيان يطعمون الجياد التبن مستخدمين في ذلك المذرات. فتراجعت دون أن أرغب في أن يشاهدوني طالما أن بعض هؤلاء الصبيان كانوا أطفالاً صغاراً. تسلّلت إلى نهاية الممر وأنا أجتاز غرفاً أخرى وُضعت فيها الحيوانات: رأس معزة يندفع من فتحة الباب، زوج من الخراف يقف عند نهاية إحدى الممرات، وثمة خربشة ورفش من مكان قريب ورائحة خنازير. حاولت سلوك الطريق نحو السطح، ووجدت هناك

حديقة مزهرة تحتوي على مختلف أنواع الخضر والأعشاب، وبيتاً زجاجياً وأرانب داخل أقفاص وأسرة تتكوّن من أم وأب وثلاثة أطفال وهم يعملون بجد. ولما شاهدوني نظروا إليَّ نظرة ذلك الزمان. مَن أنت؟ عدو أم صديق؟ ثم انتظروا وأدواتهم مشرعة في أيديهم ليستخدموها سلاحاً. فهبطت مرة أخرى إلى الطابق الذي يليه فوجدت طفلاً متجمّداً من البرد في ركن مظلم. وكان هذا الولد يتبعني، وأسنانه تصرّ صريراً حاقداً ولكن محسوباً. أقصد أن عواءه كان محسوباً لإثارة الرعب فيَّ. وأستطيع أن أتخيّله وقد التقط مرآة من إحدى الزوايا وهو يجرّب فيها مختلف التعابير المخيفة. وشعرت بالرهبة حقاً: كانت يده - تشبه يد إميلي في تلك الأيام - قريبة من صدره وقد برز منها مقبض سكين. وفكّرت أنني أعرف ملامح وجهه وأنه - بشعره الأحمر وحجمه الحقيقي - أحد الولدين المشاكسين اللذين زارا إميلي في ذلك اليوم نفسه. غير أنني لم أناده معتمدة على تلك المعرفة بل تفرّست به في الظلام وحركّت يدي اليمنى مهدّدة إياه بسكين لا وجود لها. فلبث في مكانه، فسرت من أمامه واتّجهت إلى نهاية الممر وأنا أنظر إلى الغرف وهناك شعور يخالجني بأنه يزحف من ورائي ولكن عن كثب. ورأيت جيرالد جالساً فوق كومة من الفرو ويحيط به الأطفال. إنهم أطفال محطة قطار الأنفاق وكانوا يعيشون في المبنى الذي أسكنه. وأثار هذا الأمر الصدمة فيَّ. فهبطت إلى الطابق الأسفل مارّة بالصبي الصغير الذي ظلّ يهدّد ويقطّب جبينه. وواصلت الهبوط حتى وصلت إلى شقتي التي وجدتها بعد كل الذي شاهدته مكاناً غريباً طابعه النظام والراحة على الطراز القديم والدفء. أوقدت إميلي النار وجلست قربها وأمامها هوغو. نظر الاثنان إلى بعضهما بعضاً نظرات طويلة هادئة. وكانت الفتاة مدثرة بالفرو ولهذا كان من الصعب معرفة بداية شعرها اللامع من نهايته. أما الحيوان المسكين بجلده الخشن الأصفر اللون - الحسناء ووحشها - فكان متنكّراً بهذا الزي. لكن

الحسناء كانت قريبة جداً من وحشها الآن، وملفوفة برداء الوحش، حادّة ومقطّبة مثل الوحش، وتعيش مثل الوحش. نعم. لقد نزلت الحسناء إلى المرتبة الدنيا. ومررت بلحظة سيئة عندما راقبت الاثنين وفكّرت كيف أننا نركض ونعدو مثل الجرذان على امتداد الأنفاق، لكنني رأيت أن النار متوهّجة، والآلات الهوائية التي جئنا بها تشتغل كلها والستائر مسدلة والبطانيات العتيقة مثبتة فوقها. كان الهواء في هذا المكان جيداً ونظيفاً وكان في مستطاعي أن أشعر أن نفسي الحقيقية أخذت تنتعش مرة أخرى بوجوده، لكن الشيء الذي أقدمت عليه أولاً هو أنني غادرت الشقة وذهبت إلى الرصيف. كان الغروب قد أرخى سدوله ولم يعد في مكان التجمع سوى عدد قليل من الناس كانوا يتسكّعون وهم ينظرون نظرات شاردة قلقة: لقد رحلت قبائل كثيرة وهؤلاء هم المتلكئون. كان الظلام يحيط بكل شيء! وكان من المألوف وقت حلول الظلام سابقاً رؤية مئات الشموع تتوّهج على امتداد المباني العملاقة: فالناس قريبون من نوافذهم ينظرون إلى أسفل، أما الغرف من ورائهم فيظللها ضوء الشموع. ولكن الأضواء في هذا المساء كانت خافتة الآن. فمن نافذتي لا يمكن رؤية أي شيء. ولكن على الرغم من ذلك، كانت الغرف لا تزال تشيع فيها الحيوية: ولم يعد ممكناً الآن أن نتعرّف إلى الموجودين في المبنى من الأضواء المنبعثة من النوافذ. أما الشوارع فكانت مظلمة وتفتقر إلى الضياء. وفيما عدا وهج سيجارة مشتعلة، فإن الظلام يخيّم على الرصيف. ووجدت نفسي واقفة هناك أحاول أن أتفرّس في المبنى المظلم والشمعة الوحيدة المتوهجة من غرفتي. هكذا كانت الأمور مؤخراً. ومن شأن أي عابر سبيل أن يدرك أن في هذا المبنى شخصاً وحيداً أو أسرة وحيدة تفتقر إلى الحماية. كنت مجنونة. إذ إن ردود فعل إميلي الصغيرة والمكبوتة والتي كانت تدلّ على نفاد الصبر والقلق كانت مفهومة ولها ما يبرّرها. وكان في المستطاع مشاهدة شبح هوغو

الصبور وهو يراقب تحت وهج تلك الشمعة الوحيدة. نعم، لقد كان تصرّفها حسناً حين جاءت إلى البيت في ذات الوقت لترعاني لا لأرعاها.

عدت مرة أخرى إلى الشقة فوجدت إميلي قد نامت. أما هوغو فلم يذهب وإياها. كبرياء: لا بدّ أنها أدركت ذلك. ووجدته مستلقياً أمام النار شأنه في ذلك شأن أي حيوان أليف، أنفه في اتجاه الحرارة وعيناه الخضراوان يقظتان ومفتوحتان. مددت يدي إليه فهزّ ذيله. جلست مدة طويلة بينما أخذت النار تخبو شيئاً فشيئاً وأصغيت إلى الصمت المطبق على المبنى. لكن على الرغم من كل هذا، فلقد كان هناك مزرعة فوقي، وحيوانات، وأطفال خطيرون وصديق قديم هو جيرالد. ذهبت إلى سريري ولففت رأسي كما يفعل الفلاحون البسطاء من الناس تحسباً للمخاطر وتركت وجهي وحده مكشوفاً. وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي وجدت الماء مقطوعاً.

كان المبنى ميتاً.

في الصباح جاء جيرالد ومعه طفلان: ذو الشعر الأحمر وفتاة صغيرة سمراء. وعرض علينا الشراب؛ إذ وجد محلاً لبيع الشراب وقد نهب نصفه كما عثر على بعض البطانيات وبعض الطعام. فأعدت إميلي لنا الطعام، وكان يتكوّن من الثريد الذي يحتوي على اللحم وكان لذيذاً ومريحاً.

أراد جيرالد منا أن ننتقل إلى الطابق العلوي حيث في مستطاعه أن يثبّت مروحة هوائية تشبه طاحونة صغيرة: سيكون لدينا ما يكفي من الطاقة لتدفئة الماء إذا توفّر لنا. ولم أقل شيئاً بل تركت إميلي تنوب عني فتختار ما تشاء. ولكنها رفضت وآثرت البقاء في الشقة. ولم تنظر إليّ وهي تتحدّث وأدركت أن السبب هو أننا إذا انتقلنا إلى الطابق العلوي فسنكون معرّضين للهجوم أكثر من السابق. ففي ذلك المكان

يصعب الهرب. أما هنا في شقتي، فإن المسألة لا تقتضي أكثر من القفز من النافذة. هذا هو سبب رفضها العرض عندما قال: "إنها شقة كبيرة يا إميلي. كبيرة جداً وتمتلئ بأنواع مختلفة من الأغذية والمواد. وفي وسعي أن أزوّدها بالطاقة في غضونٍ يوم واحد. ألا نستطيع..؟" ثم توسّل إلى الولدين فهزّا رأسيهما وكشّرا وهما يجلسان إلى جانبيه ولم يتجاوز سنهما السابعة أو الثامنة. كان الاثنان تابعين له، كما أنه جعل من نفسه ملكاً لهما، لقد أصبحت لديه عصابته، قبيلته، لكن الثمن هو تنفيذ رغباتهما وخدمتهما.

أراد جيرالد أن ترجع إميلي إليه، أراد منها الصعود وإياه إلى الطابق العلوي، وأن تعيش وإياه ملكة أو سيدة أولى، امرأة قاطع طريق، بين الأولاد، بين عصابته. لكنها لم ترغب في ذلك. من المؤكد أنها لم ترغب في ذلك. صحيح أنها لم تتذكر ذلك، لكن المسألة كانت واضحة. وأدرك الولدان اليقظان جوهر القضية. من الصعب معرفة ما كان يحسّان به من مشاعر، إذا لم تكن هناك أي دلائل مألوفة توحي بذلك. فكانت عيونهما تنتقل من إميلي إلى جيرالد ومن جيرالد إلى إميلي: وكانا يتساءلان فيما إذا كان في مستطاع إميلي أن تكون مثل جيرالد وتصبح واحدة منهم، تقتل وإياهم. تقاتل وإياهم؟ أو هل كانا يفكّران بأنها فتاة جميلة ولطيفة وأن وجودها معهم يثير البهجة؟ هل رأوها بمثابة فتاة تملأ الفراغ الذي خلّفته أمهما، هذا إذا تذكّرا أمهما أو أسرتيهما؟ هل فكّرا في قتلها بسبب حب جيرالد لها؟ مَن يدري؟

كانت عاداتهما في تناول الطعام مقزّزة. وقال لهما جيرالد: استعملا الملعقة. انظرا. هكذا. لا.. لا ترميانها على الأرض، وهذا يدلّ على أنه في بيته وفي كهفه لا يهتمّ كثيراً بمثل هذه الأشياء. وكانت نظرته إلى إميلي تقول بأنها إذا لبثت معهما فإن في استطاعتها أن تؤثر فيهما وتعلّمهما، ولكن بلا جدوى. فغادر الرجل والولدان الصغيران وقت الظهيرة. وقالوا إنهم سيأتون يوم غد حاملين لنا لحماً طازجاً: إذ

سيُذبَحُ خروفٌ. وسوف يأتي جيرالد لرؤية إميلي مسرعاً. لقد تحدّث إليها وأصبح المكان يعود لإميلي الآن... أصبحت شقتي هي شقة إميلي. أما أنا فمرافقتها العجوز. حسناً، ولِمَ لا؟

ظلّت صامتة بعد ذهابه. ثم جاء هوغو وجلس وهو يضع وجهه فوق ركبتها وكأنه يقول: في وسعي أن أرى أنك قرّرت أن تختاريني أنا في النهاية. أنا ضدّه. أنا بدلاً من الآخرين كلهم.

كان الأمر مضحكاً يدعو إلى الشفقة. إلاّ أنها نظرت إليّ نظرة تقول: لا تضحكي. لقد كانت هي التي تكبت ضحكاتها وتعضّ على شفتيها وتتنفّس تنفساً عميقاً كي تمنع انطلاق ضحكة. ولاطفت كلبها وهي تقول: "يا عزيزي هوغو. يا عزيزي. يا عزيزي هوغو...". انتبهت لها وراقبتها. ورأيت فيها امرأة ناضجة، امرأة تمتّعت بكل شيء، لكنها لا تزال تُسأل ويُطلب منها تلبية الرغبات: هذه المرأة كريمة حقاً. فصناديقها النفيسة مليئة دوماً وتواصل توزيع ما فيها. إنها تحب، ولكن في أعماقها ثمة إرهاق وإعياء. وقد عرفت هذا كله ولا تريد أكثر من ذلك. لكن ما عساها تفعل؟ إنها تعرف نفسها حق المعرفة – فعيون الصبيان والرجال تتحدّث هكذا – وإذا لم تكن هكذا، فإنها لا شيء. لهذا لا تزال تفكّر، وهي لم تطرح بعد ذلك الوهم. إنها تعطي وتعطي. لكن هذا يتمّ مع كبت الإعياء وإخفائه عن الأنظار. لهذا مسّدت رأس كلبها ولاطفت أذنيه وهمست كلاماً فارغاً. والتقت عيناها بعينيَّ من فوق رأس هوغو. كانت عيناها عيني امرأة ناضجة في حوالى الخامسة والثلاثين من العمر أو في الأربعين... إنها لن تعاني أبداً بمحض اختيارها. وعرفت أسوة بنساء حضارتنا الميتة، المنكهات أن الحب يشبه الحمى ولا بدّ من معاناته والخوض في غماره: فالعشق مرض لا بدّ من تحمّله، وفخ قد يؤدّي بها إلى خيانة طبيعتها، وفطرتها وأهدافها الحقيقية. إنه باب يقود إلى نفسه هو لا إلى أي شيء آخر: وهو ليس مفتاح الحياة، بل هو حالة ووضع قائم بذاته. ولو أنها تحدّثت

عنه لتحدثت على هذا النحو كما أشرت. إلاّ أنها لم ترغب في الحديث. أظهرت تعبها، وأعلنت رغبتها في الاستسلام والتخلي عن كل شيء إن كان ذلك ضرورياً، وأن تتخلى دون قناعة. إن جيرالد الذي عشقته وكان أول حب تقليدي لها، والذي انتظرته وعانت وسهرت الليالي من أجله يحتاج إليها الآن. إنه يريدها. وبعد أن أصبح متلهفاً عليها الآن لم تعد تملك القدرة على النهوض وللقائه.

وعندما جاء جيرالد مرة أخرى في وقت متأخر من ذلك اليوم في محاولة لإقناعها في العودة إليه، تحدثت إليه. تحدثت إليه وهو يصغي إليها. فأخبرته بما حدث له لأنه كان يجهل ذلك.

فبعد أن دمّرت عصابة الأولاد القادمة من الأنفاق عصابته التي شكّلها في بيته، وعندما رأى أن أحداً من أفراد منــزله لم يعد، فإنه كرّس جهوده كلها من أجل إعادة إميلي إليه والبقاء معه لكي يشكّلا بيتاً جديداً. لقد عاد إلى الرصيف، لكي يجذب نواة قبيلة جديدة. لكن هذا لم يحدث. بل لم يحدث من قبل. لماذا؟ ربما لأن الاعتقاد كان سائداً بأنه على صلة بالأطفال الخطرين، أو أن أي مجموعة جديدة يشكّلها قد تجذب الأولاد إليها. ولعل الحقيقة التي أظهرها صراحة بعزمه على اختيار امرأة واحدة والاستقرار معها، إميلي مثلاً، بدلاً من أن يظل حرّاً في اختياراته، مغدقاً شمائله على كل من يجدها في سريره، هي التي أثارت الإحباط في نفوس الفتيات. ومهما كان القانون المعمول به آنذاك، فالنتيجة هي أن جيرالد، الذي كان من قبل أميراً شاباً، وربما أكثر الشبان مدعاة للاحترام على الرصيف، وجد نفسه أخيراً بلا رفاق يسيرون من ورائه. لقد أصبح واحداً من الصبيان الذين عليهم أن يربطوا مصيرهم بقائد لكي يبقى على قيد الحياة.. أصغى جيرالد إلى هذا الحديث كله باهتمام وتأمل دون أن يبدي أن اعتراض على أي شيء أتت إميلي على ذكره.

"ثم قرّرت أن من الأفضل أن يكون لديك الأطفال بدلاً من لا

شيء، أو بدلاً من الانتظار والصبر. إن كل ما تسعى إليه هو تشكيل عصابة بأي ثمن. ولهذا عدت إلى الأولاد وتسيطر عليهم. إلاّ أنهم هم الذين سيطروا عليك. ألا ترى ذلك؟ أراهن أنك تفعل كل ما يطلبونه منك تماماً. أليس كذلك؟ إنني واثقة أنك لا تستطيع منعهم عن القيام بأي شيء يرغبون فيه. وأنك لا تستطيع إلاّ الامتثال لكل ما يطلبونه".

لكن جيرالد انسحب الآن إذ لم يكن مستعداً لسماع هذا الكلام الذي لم يتمكن من قبوله.

قال:

– لكنهم أطفال صغار لا أكثر ولا أقل. أليس من الأفضل لهم وجودي بينهم؟ إنني أحصل على المواد الغذائية وغير ذلك. كما أنني أرعاهم.

فقالت إميلي بجفاف:

– لكنهم كانوا من قبل يحصلون على الغذاء وغير ذلك.

فوجد في كلامها لهجة جافة جداً وفهمه على أساس أنه انتقاد موجّه إليه. لا شيء أكثر من ذلك. ليست هناك عاطفة تجاهه؛ هكذا شعر. ولهذا فقد ذهب ولم يعد إلاّ بعد بضعة أيام.

كنا نعيد تنظيم حياتنا وغرفنا.

وتوفّر لنا الهواء النقي إذ كنا نجلس وندير مقبضاً لإعادة شحن البطاريات بين وقت وآخر. وأصبح الجو دافئاً. ثم خرجت إميلي وفي يدها فأس لتعود وهي تحمل كميات كبيرة من الخشب. وبينما أنا أفكّر في أن نقص الماء قد يضطرّنا إلى مغادرة الشقة، سمعنا صوتاً ثقيلاً وظهرت عربة يجرّها حمار محمّلة بعدد من الدلاء البلاستيكية والخشبية والمعدنية.

– مااااء! مااااء!

تناهت إلى أسماعنا هذه الصيحة القديمة التي تغلغلت في شوارعنا

الشمالية الرطبة. ورأينا فتاتين في حوالى الحادية عشرة من العمر تبيعان الماء، أو تقايضانه. فخرجت أحمل بعض الأوعية وشاهدت غيري من الناس يأتون من مختلف البنايات السكنية المحيطة بنا. ولم يكن عدد هؤلاء كبيراً، إذ لم يزد عن الخمسين فرداً. اشتريت الماء بثمنٍ غالٍ: فقد عرفت الفتاتان كيف تستغلان الظروف وكيف تهزّان رأسيهما وأكتافهما إذا بدرت من الناس أي إشارة تدلّ على أنهم قد يستغنون عنه. واضطررت إلى دفع فروة خروف مقابل دلوين من الماء الصالح للشرب؛ وعلى الأقل كان مسموحاً لنا تذوّق الماء قبل شرائه.

وعندئذ ظهر جيرالد وبرفقته حوالى عشرين من أفراد عصابته وهم يحملونِ مختلف أنواع الأوعية. من الطبيعي أن وجود هذا العدد الكبير من الحيوانات في الطوابق العليا يستلزم كميات كبيرة من الماء. لكن العصابة استولت على الماء في لحظة واحدة دون أن تدفع أي مبلغ من المال. ووجدت نفسي أصرخ وأقول لجيرالد إن هذا مصدر رزق الفتاتين الصغيرتين؛ لكنه لم يهتم. وأعتقد أنه لم يسمعني، إذ كان يقف حذراً ويقظاً بينما تقيّم عيناه الوضع كله. أما الأولاد فرفعوا الدلاء وهربوا باتجاه المبنى بينما تذمّرت الفتاتان وصرخ الناس الذين جاءوا لشراء الماء ولم يحصلوا بعد على بغيتهم. توارى جيرالد والأولاد عن الأنظار وجاء دوري لكي أتعرّض للسطو. وقفت في مكاني قرب الدلوين الممتلئين بالماء بينما رفع رجل من البناية السكنية المقابلة لشقتي يده ثم أخفض رأسه لكي يتفرّس في عينيّ ويصرُّ أسنانه. سلّمته أحد الدلوين وركضت صوب المدخل وأنا أحمل الدلو الآخر. في هذه الأثناء، كانت إميلي تراقب المشهد من النافذة وبدا عليها الحزن والارتباك. وكان في مستطاعي أن أعرف الكلمات التي ستستخدمها في تأنيب جيرالد وهي لا تزال في ذهنها.

قدّمنا طبقاً من الماء النظيف لهوغو فشرب حتى ارتوى ثم وقف بجانب الطبق الفارغ ورأسه منخفض: فملأناه ثانية وشربه. وبهذه

الطريقة فرغ ثلث الدلو وفكّرنا بهذا الشيء الذي فكّر به هوغو أيضاً. جلست إميلي قربه وطوّقته بذراعيها على طريقتها القديمة: لم يعد بحاجة إلى القلق أو الحزن إذ ستوفّر له إميلي الحماية ولن يقدر أحد على مهاجمته. وينبغي له أن يحصل على الماء إذا أرادت أن تذهب بدونه أو إذا ما..

ولما عادت بائعتا الماء بعد مرور يومين اثنين، كان يحرسهما عدد من الرجال مسلحين بالبنادق. فاشترينا الماء في صفوف منتظمة. ولم نشاهد جيرالد أو عصابته. وقالت إحدى الواقفات في الصف إن *الفاسدين* فتحوا نهر فليت وبدأوا يبيعون الماء على حسابهم الخاص. كان هذا صحيحاً، ويعدّ تطوراً جيداً في الأحداث لصالحنا أنا وهوغو وإميلي إذ بدأ جيرالد يحمل إلى شقتي دلواً من الماء أو أكثر يومياً.

– حسناً. كان لا بدّ أن نفعل ذلك. لا بدّ من توفير الماء لحيواناتنا. أليس كذلك؟

وأدركنا من كلامه الدفاعي أن معركة عنيفة قد نشبت. أهي مع السلطات؟ مع أناس آخرين يستخدمون ذلك المصدر؟ إذ إن الآبار والينابيع القديمة قد حفرت في جميع أرجاء المدينة. فإذا كانت المعركة ضد السلطات فكيف استطاع جيرالد وعصابته الانتصار فيها؟ لا بدّ أنهم فعلوا ذلك لكي يتمكنوا من الوصول إلى مصدر التموين. وقال جيرالد:

– حسناً. إنهم لا يملكون عدداً كافياً من الجنود لكي يراقبوا كل شيء. أليس كذلك؟ لقد اختفى معظمهم. أقصد أن عددنا كان يفوق عددهم...

* * *

فإذا كان الجميع قد ذهبوا فما الذي نفعله أنا وإميلي وهوغو هنا؟

لكننا لم نعد نفكّر في الرحيل. ولم نكن جادين. ربما سنتحدث قليلاً عن أسرة دولجيلي أو نقول: حسناً، يوماً ما ينبغي لنا أن نفكّر...

الهواء، الماء، الغذاء، الدفء؛ هذه الأشياء متوفرة لدينا، بل إن الأمور هذه الأيام أسهل بكثير مما كانت عليه سابقاً. فالتوتر والخطر أصبحا أقل مما مضى. وحتى الناس الذين كانوا يعيشون في الجحور والشقوق المنتشرة في هذه المدينة استمرّوا في الرحيل، الرحيل.

راقبت إحدى القبائل وهي ترحل مع نهاية فصل الخريف واقتراب فصل الشتاء. وكانت هذه آخر القبائل التي ترحل عن رصيفنا على الأقل. وكانت تشبه كل القبائل الأخرى التي رحلت إلاّ أنها كانت أفضل تجهيزاً وتعدّ قافلة نموذجية تذكّرنا بأيامنا الخالية. ويبدو الآن من مقارنة الملاحظات أن كل جماعة لها خصوصياتها، بل وأساليبها في السفر! نعم، في استطاعتي استعمال تلك الكلمة، العادات والتقاليد تنمو بسرعة هائلة! فأنا أتذكّر شخصاً ما قال في الأيام الأولى من رحيل القبائل: "أين هو جلد الأحذية؟ لدينا دائماً كميات كبيرة منه". ولعل من المفيد أن أقدّم وصفاً لهذا الرحيل مفصلاً.

كان ذلك الصباح بارداً جداً. وكانت الغيوم تتحرك بسرعة من الغرب إلى الشرق. وكان الهواء ثقيلاً ويسبب ضيقاً في التنفس على الرغم من أن الريح كانت تدفع ركام الثلوج التي غطت قليلاً الشارع والأرصفة. وبدت الأرض ندية. أما المباني الشاهقة من حولنا فكانت مظلمة وقاسية أو متوارية بين الغيوم وتساقط الثلوج الخفيف.

تجمع حوالى خمسين شخصاً وهم يتدثرون جيداً بفرائهم وفي مقدمتهم شابان مسلحان ببندقيتين. ووقف من ورائهما أربعة أشخاص يحملون الأقواس والنبال والعصي والسكاكين. ووراءهم عربة محورة عن سيارة نزعت عنها جميع أغراضها ولم يبق منها سوى العجلات ثم صفت فوق هيكل السيارة ألواح لتكون بمثابة سطح العربة. وكان ثمة حصان يجر العربة وهي محملة بصرر من الملابس والمعدات وثلاثة أطفال صغار السن وعلف للحصان. أما الأطفال الأكبر سناً فكان يتوقع أن يسيروا على أقدامهم.

وسارت النساء والأطفال وراء العربة، ومن ورائهم في عربة أخرى جلس شابان اثنان فوق النيّر. وكانت هذه العربة تحمل نموذجاً مكبراً لصندوق التبن القديم وهو عبارة عن وعاء خشبي مبطن بمادة عازلة وبعض الحشوات ويمكن تثبيت القدور فيه، وهي قدور تحتوي على طعام ساخن أعد قبل بدء الرحلة تماماً ومن شأنه أن يظل ساخناً في هذه القدور ويقدّم وجبة طعام في نهاية الرحلة. ووراء العربة الثانية ثمة عربة ثالثة وهي عربة حليب قديمة تحمل المؤن الغذائية: الحبوب والخضراوات الجافة والمواد المركزة وغيرها. وهناك عربة رابعة يجرها أحد الحمير وكانت مقسمة على هيأة أقفاص وضعت فيها مجاميع من الدجاج والأرانب – التي تستخدم للتناسل لا للأكل – وأكثر من عشرة إناث حوامل من هذه الطيور والحيوانات. وكان أربعة صبيان مسلحين يحرسون هذه العربة الأخيرة.

وكان الحصان والحمار سمة هذه القافلة. فقد كان هذا الجزء من مدينتنا معروفاً بحيواناته التي تجر الأثقال. أما السبب الذي جعلنا نشتهر بهذه الصفة فأنا أجهله. ربما كان ذلك يرجع إلى وجود إصطبلات للركوب في الأيام الخوالي، والتي تطورت فأصبحت مؤسسات لتربية الحيوانات عندما دعت الحاجة إلى ذلك. وحتى حديقتنا الصغيرة كانت تحتوي على بعض الجياد التي تحظى بالحراسة المشددة ليلاً ونهاراً.

ومن المألوف عند انطلاق رتل من الناس في رحلة صوب الشمال أو الغرب أن يخرج الناس من البنايات السكنية لتوديعهم وإرسال الرسائل إلى أصدقاء وأقرباء رحلوا قبلهم إلاّ أنه لم يكن هناك إلاّ أربعة أشخاص في ذلك الصباح. جلست أنا وهوغو بهدوء قرب نافذتنا نراقب القبيلة وهي تهيّئ نفسها للسفر والرحيل دون إثارة أو توديع. وبدا هذا الرحيل مختلفاً جداً عن أي رحيل سبقه اتسم بالصخب والضوضاء، فلقد كان هؤلاء المسافرون هادئين وظهر عليهم الوجل الذي جعلهم يتوارون داخل ثيابهم المصنوعة من الفرو. فقافلتهم هذه يمكن أن تكون غنيمة جيدة.

أما إميلي فلم تشغل نفسها بالمراقبة.

وفي اللحظة الأخيرة برز جيرالد ومعه ستة أطفال ووقفوا على الرصيف حتى توارت آخر عربة عن الأنظار وحجبتها الكنيسة الواقعة عند ناصية الشارع. وعندئذ عاد جيرالد وقاد رفاقه واتجهوا صوب البناية. ولما رآني هزّ رأسه ولكن دون أن يبتسم. كان القلق بادياً عليه. بل إن مجرد رؤية تلك العصابة من الأطفال المتوحشين تكفي لإثارة القلق في نفس الإنسان فكيف إذا كان المرء مثل جيرالد يعيش بينهم ليلاً ونهاراً: أعتقد أنه خرج وراءهم كي يحول دون هجومهم على العربات المحملة بالبضائع.

في تلك الليلة سمعنا صوت طرق على الباب ووجدنا أربعة أطفال يقفون وراءه. كانوا هائجين ومسعورين. فما كان من إميلي إلاّ أن أغلقت الباب في وجوههم وأقفلته. ثم وضعت عدداً من الكراسي وراء الباب وعندئذ سمعنا الهمسات والغمغمات وصوت وقع أقدام وهي تعود من حيث أتت.

نظرت إميلي إليّ وقالت شيئاً من فوق رأس هوغو. واستغرقت بعض الوقت حتى أفهم ما كانت تعنيه: لنشوِ هوغو.

فقلت:

– أو لنشوِ إميلي.

وبعد مرور بضع دقائق تناهى إلى سمعنا صوت صرخات قادمة من الشارع ثم تلاه وقع أقدام تتدافع وصيحات أطفال مبتهجين بالنصر؛ إنها أصوات غارة، جريمة. فتحنا الستائر واستطعنا أن نشاهد في وميض الثلج الذي انعكس عليه نور القمر الصغير عصابة جيرالد. لكن جيرالد نفسه لم يكن موجوداً. وكان أفراد العصابة يجرون وراءهم شيئاً ما وهم يتجهون إلى السلم الأمامي. وكان هذا الشيء يشبه جثة أو قد يكون كيساً أو صرّة. لكن الشك كان ما زال قائماً ويكفي لكي يجعلنا

نؤمن به.

جلسنا طيلة الليل بهدوء قرب المدفأة ونحن ننتظر ونصغي.

لم يكن هناك أي شيء يحول دون جعلنا ضحايا في أي لحظة.

لا شيء. حتى رغم أن جيرالد نفسه أخذ يزورنا وحده أو برفقة نخبة من الأطفال بطريقة اعتيادية جداً. وقد حضروا إلينا محملين بالهدايا والدقيق والحليب المجفف والبيض والنايلون والمسامير والأدوات وشريط لاصق وغير ذلك. وأعطونا سجاداً مصنوعاً من الفرو وزوّدونا بالفحم والبذور والشموع و... كانت المدينة خالية تقريباً من الناس من حولنا. وكل ما يتعين على المرء أن يفعله هو دخول إحدى البنايات والمستودعات وأخذ ما يريد منها. لكن الأشياء المتبقية فيها لم تعد صالحة للاستعمال بعد الآن: ولو قدر لأحد من الناجين العثور على هذه الأشياء بعد بضع سنوات لسأل نفسه: لأي شيء كانت تستعمل هذه الأغراض بحق السماء؟

في الإمكان رؤية الأطفال يجلسون فوق كومة من بطاقات التهنئة ويقلبون الأشياء الموجودة أمامهم من كتب أو أسطوانات أو غير ذلك: ما هذا؟ ولأي شيء يستعمل؟ ماذا فعلوا بها؟

لكن هذه الزيارات وهذه الهدايا لم تكن تعني أنهم لن يتورّعوا عن القتل في مناسبة أخرى أو إذا انتابتهم حالة جديدة بدافع من نزوة أو رغبة.

اللامنطق...

اللامنطق مرة أخرى تماماً مثلما حدث عندما رحلت جون.

كنا نجلس في أماكننا ونفكّر ونتحدث في الموضوع ونصغي، وفوق رؤوسنا ثمة صهيل لأحد الجياد وثغاء خروف وطيور تطير من أمام نافذتنا في طريقها إلى أعلى المبنى حيث يوجد بعض الفتات. لا منطق. شيء جديد في علم نفس الإنسان. جديد؟ حسناً. إذا كانت المنطق

موجوداً دوماً فقد أحسن توزيعه وتنظيمه وتنشئته اجتماعياً أو اننا اعتدنا على الأساليب التي يظهر فيها حتى لم نعد نميِّزها.

إذا حدث قبل زمن ليس طويلاً أن صافحك إنسان ومنحك بعض الهدايا فسيكون عندك السبب الذي يجعلك تظن أن هذا الشخص لن يُقدم على قتلك في اللقاء التالي لأن الفكرة قد راودت ذهنه في تلك اللحظة تماماً. وهذا يبدو أقرب إلى الكوميديا المضحكة. إلاّ أن الكوميديا تعتمد على ما هو مألوف وشائع واعتيادي. إذ بدون الأعراف، التي هي مصدر الكوميديا، ينضب ذلك النوع من الضحك.

ما زلت أتذكّر جون عندما أقدمت أول مرة على السطو على شقتي وسألت إميلي: "ولكن لماذا اختارتني أنا؟" فكان جوابها: "لأنك موجودة هنا. إنها تعرفك. بل حتى لأنك صديقة".

وكان في وسعنا أن نصدق أن الأطفال في الطابق العلوي قد يهبطون ذات ليلة لقتلنا لأننا أصدقاؤهم، ولأنهم يعرفوننا.

وفي وقت متأخر من إحدى الليالي وبينما نحن جالسون حول المدفأة التي تشتعل فيها النيران، سمعنا بعض الأصوات في الخارج. فلم نتحرك أو نبحث عن أي سلاح؛ بل تبادلنا نحن الثلاثة النظرات ولا أستطيع القول إن هذه النظرات كانت مسلية. لا. نحن لا نملك قدراً كبيراً من الفلسفة، إلاّ أنني أستطيع الزعم أن هذه النظرات كانت ذات طبيعة مضحكة. ففي صباح ذلك اليوم قدّمنا بعض الطعام لأولئك الأطفال الموجودين خارجاً الآن. وكنا قد جلسنا لتناول الطعام وإياهم: هل تحسون بالدفء الآن؟ هل تريدون قطعة أخرى من الخبز؟ هل تريدون حساءً إضافياً؟

لم يكن في مستطاعنا حماية أنفسنا ضد هذا العدد الكبير: ثلاثون أو أكثر. وكانوا يهمسون من وراء الباب وتحت النافذة. وجيرالد؟ لا. لم نستطع أن نصدق ذلك. كان نائماً أو بعيداً أو في مهمة ما.

تحرك هوغو من مكانه ووضع نفسه بين إميلي التي ستدافع عنه والباب. نظر إليَّ موحياً بضرورة أن أضع نفسي بين إميلي والنافذة؛ فمن الطبيعي أن إميلي هي التي تحتاج إلى الحماية.

واستمرّ صوت المشي والهمس، وسمعنا طرقات على الباب، ثم صوت مشي من جديد، فصرخة مدوية وصياحاً ووقع أقدام تبتعد. ما الذي حدث؟ لا ندري. لعل جيرالد سمع بما يفعله الأطفال فجاء للحيلولة دون ذلك. ربما غيروا رأيهم.

وفي اليوم التالي جاء إلينا بعض الأطفال يصحبهم جيرالد وقضينا وقتاً ممتعاً.. أستطيع أن أقول ذلك، وأن أكتبه. لكنني لا أستطيع أن أنقل الجانب الطبيعي فيه: الجلوس والحديث وتناول الطعام معاً والنظر إلى الوجوه الطفولية والتفكير: حسناً. حسناً. ربما كنت أنت الذي خطط لغرز السكين فيَّ ليلة أمس.

وهكذا استمرّ كل شيء.

ولم نرحل. ولو سألنا شخص ما: أتقصدان أنكما تريدان البقاء هنا في ظلِّ المخاطر بدلاً من ترك المدينة والرحيل إلى الريف حيث الأمان والسلام لأجل هذا الحيوان القبيح الجالس هناك؟ أأنتما على استعداد للموت جوعاً أو برداً أو اغتيالاً بسبب هذا الحيوان؟ وعندئذ يكون في مستطاعنا القول: لا. حقاً لا. نحن لسنا عبثيتين هكذا. نحن نضع الجنس البشري في مكانه اللائق، في مكان أسمى من مكان الحيوانات ونريد أن ننقذ حياتنا بأي ثمن. لا بدّ من التضحية بالحيوانات لأجل البشر. هذا صحيح ومناسب وسنفعله أيضاً شأننا في ذلك شأن الجميع.

إلا أن المسألة لم تعد متعلقة بهوغو.

المسألة هي إلى أين نذهب؟ وإلى ماذا؟ وران الصمت في الخارج، في المكان الذي رحل عنه الكثيرون. صمت وبرد. ولم نسمع أي كلمة تأتي من أولئك الذين رحلوا. لم يعد أي واحد منهم إلى الرصيف مرة

أخرى ليقول: "ها قد عدت من الشمال، من الغرب. وحدث لي كيت وكيت...".

لا. فكل ما استطعنا مشاهدته عندما نظرنا إلى الأعلى والخارج هو السحب الواطئة المتجمعة في ذلك الشتاء وهي تسرع نحونا: سحب داكنة، سحب داكنة وباردة. إذ سبق وتساقط الثلج. تساقط الثلج حتى وصل إلى حافة نوافذنا. ولكن ما الذي حدث لكل أولئك الناس الذين رحلوا؟ ربما سقطوا في مكان ما. وكانت أجهزة الراديو، وأحد مكبرات الصوت المثبتة فوق سيارة رسمية نشاهدها من نوافذنا، تبدو الآن أشبه بأطلال حقبة ميتة، تنقل الأخبار عن الشرق: نعم. بدا كأن هناك أسلوباً في الحياة لا يزال قائماً. بل إن بعض الناس انهمكوا في أشغال الزراعة وتنمية المحاصيل ومواصلة الحياة. "هناك في الخارج"، "هناك إلى الجنوب"، سمعنا عن هذه الأماكن وكانت حية في نظرنا. وثمة حياة في المكان الذي نعيش فيه. المدينة القديمة شبه خاوية كعهدنا بها وفيها ناس وحيوانات ونباتات تنمو وتنمو فتغطي الشوارع والأرصفة والطوابق السفلى من المباني، وتصيب المادة الإسفلتية بالتصدعات، وتزحف على الجدران.. حياة. وعندما حلّ الربيع كانت الخضرة يانعة والحيوانات تتكاثر وتنمو.

أما في الشمال والغرب فالأمر ليس كذلك. لا شيء سوى البرد والصمت. لم نرغب في الرحيل. وإذا أردنا ذلك فمع من؟ هل نذهب وحدنا أنا وإميلي وهوغو؟ لا توجد قبائل مسافرة. ولا حتى قبائل في طريقها إلى التجمع. وعندما نظرنا من النوافذ لم نجد أحداً على الأرصفة. بقينا وحدنا في الظلام البارد في ذلك الشتاء الطويل. آه. الجو مظلم تماماً. ظلام ثقيل يحيط بنا؛ الأبراج الشاهقة السوداء تناقض لون الثلج الأبيض المتراكم من حولها الذي يزداد يوماً بعد يوم. لم يعد ثمة ضياء في هذه البنايات الآن. لا شيء. وإذا ما شوهد وميض في زجاج إحدى النوافذ في هذه الليالي الحالكة والطويلة فإنه ضوء القمر الذي

يبرز بين الحين والآخر من بين الغيوم الكثيفة.

وفي أحد الأيام وقبل ساعة واحدة من إضاءة النور، وقفت إميلي تنظر من النافذة. وفجأة صاحت: "آه. لا، لا، لا". فذهبت نحوها لأرى جيرالد وسط الثلوج البيضاء وكان يرتدي سترته الأنيقة إلاّ أنها كانت مفتوحة كأنه لا يبالي بالبرد الشديد. ولم يكن يعتمر أي شيء وهو يتجول في المدينة كأنه الشخص الوحيد فيها وليس في مستطاع أحد مشاهدته. أيقوم بزيارة الأماكن التي شهدت انتصاراته عندما كان زعيماً للرصيف وقائداً للقبائل المتجمعة؟ نظر من حوله إلى الثلج الرقيق وإلى السماء التي كانت غيومها الواطئة تأتي بالظلمات من جهة الغرب؛ وإلى الأشجار المظلمة التي يعلوها بياض الثلج. وقف بضع دقائق ساكناً وهو يحملق مفكراً أو شارداً. وراقبته إميلي واستطعت أنا أن أشعر بقلقها يزداد. أصبحنا نحن الثلاثة نراقبه الآن. ومن الطبيعي أن هناك غيرنا من الناس الذين يراقبونه من نوافذهم. كان مجرداً من السلاح بينما وضع كلتا يديه في جيبه على خصره. بدت عليه اللامبالاة. لقد جرّد نفسه من السلاح دون أن يهتم لذلك.

ثم اندفع من أمامه شيء صغير يشبه طيراً مسرعاً. فنظر نظرة لامبالية إلى المبنى ولبث في مكانه دون حراك. بعد ذلك توالت عليه مجموعة من الحجارة. وكانت أعداد من المنجنيق من النوافذ الكائنة فوقنا قد سددت باتجاهه. ربما كان هناك ما هو أسوأ من المنجنيق. فأصابته الحجارة في كتفه بعد أن أخطأت وجهه أو حتى عينه. فالتفت الآن عمداً وأصبح في مواجهة المبنى ولاحظنا أنه يعرض نفسه هدفاً. ترك يديه تتهدلان إلى جانبيه ووقف ساكناً لا يبتسم، غير وجل، غير هيّاب، بل ينتظر وعيناه مثبتتان على شيء ما أو شخص ما في النوافذ الواقعة في الطابق الذي يلي شقتنا.

قالت إميلي مرة أخرى: "آه، لا".

وفي لحظة واحدة وضعت لفافاً فوق كتفيها كأنها فلاحة وخرجت

من الشقة ورأيتها تركض وتعبر الشارع. وبدا تنفّس هوغو يشبه النحيب بينما أنفه يغطي زجاج النافذة بطبقة من البخار. وضعت يدي على رقبته فهدأ قليلاً. دست إميلي ذراعها تحت ذراع جيرالد وتحدثت معه وحاولت جذبه من الرصيف والاتجاه به نحونا. وانهالت عليهما الحجارة وقطع المعادن والنفايات والقاذورات. فأصيب جيرالد في صدغه بينما أصابت حجارة أخرى خصر إميلي مما جعلها تترنح قليلاً إلى الوراء. في هذه الأثناء عادت الحياة إلى جيرالد بعد أن رأى الخطر الذي يتهدد إميلي فطوّقها بذراعه ودخل وإياها المبنى. وكان في وسعي أن أسمع صوت الأطفال من فوق وهم يصرخون وينادون وينشدون: "أنا ملك القلعة..." واستمرّ صوت الغناء والقرع بالأقدام من فوقنا بينما دخل جيرالد وإميلي الغرفة وكنا أنا وهوغو في انتظارهما. كان جيرالد شاحب اللون وثمة جرح غائر في جبهته. فنظفته إميلي بينما جعلها هو تنظر إلى مكان الحجارة التي أصابتها لترى إن كانت إصابتها شديدة. ولكن لم تكن هناك سوى كدمة، لا أكثر.

أجلسته إميلي قرب النار ثم جلست بجانبه وأخذت تفرك يديه بيديها.

بدا عليه الوجوم والإحباط. وقال وهو ينظر إليّ وإلى إميلي وهوغو:

- لكنهم أطفال صغار لا أكثر. هذا كل ما هناك.

وبان الألم على وجهه. ولا أدري السبب الذي يجعل جيرالد لا يتحمل ما آل إليه أمر هؤلاء الأطفال. أعتقد أن ثمة شيء في أعماقه، وأنه شعر بأن التخلي عنهم يعني التخلي عن أعز شيء لديه.

- هل تعلمين يا إميلي أن الولد الصغير دنيس يبلغ أربعة أعوام؟ نعم. هل تعرفينه؟ هل تعرفين الولد الذي أقصده؟ كان موجوداً معي قبل عدة أيام. ذلك الولد الصغير ذو الوجه المشاكس.

- نعم. إنني أتذكّره. لكن ينبغي لك يا جيرالد أن توافق على...

فقال بإصرار:

- أربعة أعوام. أربعة. هذا كل شيء. لقد استنتجت ذلك منه. لقد ولد في السنة التي مرّت بهذه المنطقة أول مجموعة من المسافرين. نعم. إنه يخرج مع الآخرين. ولا يقل عنهم خشونة. هل عرفت أنه كان يؤدي ذلك العمل في تلك الليلة؟

فسألته عندما وجدت إميلي صامتة وهي لا تزال تفرك يديه:

- القتل؟

- نعم، حسناً. أعتقد أنها عملية قتل. كان موجوداً هناك. وعندما عدت في تلك الليلة فقدت أعصابي وأصبحت سيئ الطبع. قلت لهم... ثم قال أحدهم إن دنيس هو الذي ارتكب الجريمة. إنه هو الذي بدأها بحجارة حسبما أظن. لقد كان هو البادئ، ثم لحق به الآخرون. أربعة أعوام. وعندما عدت إلى الشقة كان الميت موجوداً فيها. هل تعلمين ذلك؟ وكان الكل موجودين هناك... دنيس كان هناك هو الآخر، كان كبيراً كالحياة، يؤدي دوره. إنها ليست غلطتهم. كيف يمكن أن تكون غلطتهم؟ كيف يمكنك إلقاء اللوم على طفل في الرابعة.

- لا أحد يلومهم.

قالت إميلي بهدوء وعيناها متألقتان ووجهها شاحب وهي تجلس بجانبه كأنها حارس يوفّر له الحماية، كأنها أنقذته ولن تدعه يذهب.

فتوسل إليها:

- لا. ولكن إذا لم ينقذهم أحد فإن الأمر يشبه توجيه اللوم لهم. أليس كذلك؟

بقينا جالسين طيلة ذلك الليل ونحن ننتظر. من الطبيعي أننا نتوقع هجوماً، زيارة، أو مهمة... أي شيء. كان المبنى الضخم من فوقنا ساكناً يخيم عليه الصمت. وفي النهار الذي أعقب تلك الليلة تساقط الثلج

وكان الجو بارداً ومظلماً. جلسنا وانتظرنا ولكن لم يحدث أي شيء.

علمت أن إميلي كانت تتوقع قيام جيرالد بزيارة الجزء العلوي من المبنى ليرى ماذا يحدث. وكانت تسعى إلى إقناعه بالعدول عن رأيه. إلاّ أنه لم يذهب. وكل ما قاله بعد أيام:

- لعلهم رحلوا إلى مكان آخر.

فقالت إميلي بعنف وهي تفكّر بالحيوانات البائسة في الطوابق العليا:

- وماذا بشأن الحيوانات؟

رفع رأسه ونظر إليها وأطلق ضحكة قصيرة تعني أن شخصاً ما وضع نهاية لشيء ما يفكّر فيه؛ قرار. لكنه قرار مغلّف بالتهكم، أو بالمعاناة:

- لو أنني ذهبت إلى الطابق العلوي، حسناً، فقد أبقى هناك. وهذا ليس أمراً حسناً. ولهذا، فإن على الحيوانات أن تتمتّع بفرصتها شأنها شأن أي شخص آخر؛ هناك آخرون لا يزالون في الطابق العلوي.

ولهذا صعدنا نحن الأربعة بهدوء.

وانتهى كل شيء، لكنني لا أستطيع أن أحدّد الوقت بعد انضمام جيرالد إلينا. فقد كنا موجودين هناك في انتظار نهاية فصل الشتاء وكنا نعرف أن ذلك حدث منذ وقت طويل، لكن ليس طويلاً جداً كما كانت حواسنا تتنبؤنا: وقت طويل ولكنه ليس أطول من الشتاء. وذات صباح وجدت بقعة صفراء على الجدار وأدركت أن النموذج الخفي قد عاد إلى الحياة مرة أخرى. وكان إحساسي بأن هذا الشيء هو الذي كنا ننتظره منذ وقت طويل، وكان قوياً بحيث ناديت الآخرين وكانوا لا يزالون نياماً: "إميلي – إميلي ، جيرالد وإميلي أسرعا. أين أنت يا هوغو؟"

خرج الحيوان المطيع من غرفة إميلي وكان من ورائه كل من جيرالد وإميلي وقد تدثرا بالفرو وهما يتثاءبان وشعرهما أشعث. ولم تبدُ

عليهما الدهشة إلاّ أنهما كانا ينظران نظرات متسائلة. أما هوغو فلم يكن مندهشاً هو الآخر، بل وقف يقظاً مفعماً بالحيوية قرب الجدار، ينظر إليه كأن الشيء الذي كان يريده ويحتاج إليه وعرف أنه سيحدث أصبح موجوداً الآن هنا وأنه مستعدّ له.

أمسكت إميلي يد جيرالد ودخلت وهوغو من شاشة الغابة إلى... والآن من الصعب قول ما حدث تماماً. فقد كنا في ذلك المكان الذي قد يفاجئنا بأي شيء؛ غرفة مؤثثة بهذا الأسلوب أو ذاك تعبّر عن أذواق وعادات ألف عام: جدران محطمة، تتداعى وتنهض ثانية. سقف بيت يشبه أرض غابة تزرع فيها الأعشاب تنتشر عليه أعشاش الطيور، غرف محطمة، مليئة بالقانورات، تعرّضت للسطو؛ عشب أخضر لمّاع تحت السحب المحمّلة بالرعود، وفوق هذا الحشيش ثمة بيضة سوداء عملاقة من الحديد كامدة اللون ومن حولها وقف كل من إميلي وهوغو وجيرالد ووالد إميلي الضابط وأمها الباسلة الضاحكة الضخمة ودنيس المجرم الصغير البالغ أربعة أعوام وقد تشبّث بيد جيرالد وهو ينظر إلى وجهه ويبتسم. وقفوا هناك وهم ينظرون إلى هذه البيضة الحديدية إلى أن تهشمت بفعل وجودهم قربها وخرج منها... مشهد، ربما، لأناس يجلسون في غرفة هادئة وقد انحنوا لتثبيت قطع صغيرة من مواد مطرزة فوق سجادة فقدت رونقها الذي لن يعود إليها إلاّ بعد إكمال وضع القطع المناسبة: لكن لا. فأنا لم أشاهد ذلك. وإذا كنت قد شاهدته فلم يكن ذلك غير واضح... ذلك العالم يقدّم نفسه بألف ومضة صغيرة، مجموعة من المشاهد الصغيرة، سطوح صورة أخرى كلها ناقصة أخذت تنطوي حالما تقدّمنا إليها، كانت تجمع نفسها لتتوارى وتتلاشى وتختفي كلها: الأشجار والجداول والأعشاب والغرف والناس. لكن الشخص الوحيد الذي كنت أفتّش عنه طيلة هذا الوقت كان موجوداً هناك؛ كانت موجودة هناك.

لا، أنا لا أستطيع أن أقول بوضوح ماذا كانت تشبه. كانت جميلة:

وهذه كلمة مناسبة. أنا لم أشاهدها إلاّ لحظة واحدة، وفي وقت يشبه تلاشي شرارة في جو مظلم؛ لمحة. التفتت مرة واحدة إليَّ وكل ما أستطيع قوله هو... لا شيء إطلاقاً.

وبينما العالم ينطوي ويتلاشى من حولها وبينما هي تستدير لتسير وتخرج، كانت إميلي بجانبها. وكان بجانب إميلي كل من هوغو وجيرالد الذي تأخر قليلاً. كانت إميلي، نعم، إميلي، قد تحولت دون أن تدري، إلى حالة أخرى، وبات الحيوان الأصفر هوغو يلائمها في ذاتها الجديدة: حيوان رائع، أنيق، متباه، ذو سلطة، يسير بجانبها ويدها فوق رقبته. وسار الاثنان وراء ذلك الشخص الذي سار أمامهما ليدلهّما على طريق الخلاص من هذا العالم الصغير المتداعي، وليقودهما إلى عالم جديد تماماً. والتفت الاثنان برهة وجيزة وهما يعبران تلك العتبة. وابتسما... وعندما شاهد جيرالد هذين الوجهين انجذب إليهما، بيد أنه تردد وفي أعماقه صراع عنيف. فنظر من حوله بينما القطع اللامعة تدور حوله. وفي اللحظة الأخيرة تماماً، جاءوا إليه، جاء إليه أولاده يركضون ويتشبثون بيديه وملابسه. وسار الجميع بسرعة إلى الأمام وراء الآخرين بعدما تداعت الجدران الأخيرة.

انتهت

مذكرات من نجا

في مدينة مطوّقة تروّع شوارعها الجرذان والعصابات، تقوّضت فيها أركان السلطة الحاكمة، واستشرى العنف العقيم، يؤتى لامرأة متوسطة العمر والحالة الاجتماعية بطفلة عمرها اثنا عشر عاماً ويقال لها إنها مسؤولة عن تربيتها. هذا الكتاب، الذي وصفته الكاتبة بأنه «محاولة لكتابة سيرة»، هو مذكرات تلك المرأة اليومية، وهو نظرة سريعة على مستقبل أكثر ترويعاً من حاضرنا، وعلى القوى الوحيدة القادرة على إنقاذنا من تدمير كامل.



ولدت **دوريس ليسّينج** عام 1919 في بلاد فارس (إيران في الوقت الحاضر) لأبوين بريطانيين، حيث كان والدها يعمل محاسباً في البنك الإمبراطوري لبلاد فارس. انتقلت عائلتها إلى مستعمرة روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حاليا)، حيث أمضت طفولتها في مزرعة الذرة التي اشتراها والدها هناك. وعندما انتهى زواجها الثاني عام 1949، انتقلت إلى لندن، حيث نشرت عام 1950 روايتها الأولى «العشب يغني». تستكشف تلك الرواية الصلف والضحالة في المجتمع الاستعماري الأبيض في جنوب أفريقيا، وقد حققت الرواية المذكورة نجاحاً كبيراً وكرّستها بوصفها روائية شابة موهوبة.
كتبت ونشرت منذ ذلك التاريخ أكثر من 50 كتاباً في الرواية، والقصة القصيرة، والنقد، والشعر، والمسرح ونالت العديد من الجوائز، خاتمتها كانت جائزة نوبل للآداب عام 2007.

تعيش دوريس ليسينج في لندن. وسوف تُصدر الدار العربية للعلوم ناشرون، بالتعاون مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، أربعاً من رواياتها تباعاً، فاتحتها هذه الرواية.